

يوسف الشارونى

الزحام / الكراسى الموسيقية

الأعمال الكاملة

الإبداعية



• الزحام
• الكراسى الموسيقية
• ما بعد المجموعات

المجموعات القصصية الكاملة

يوسف الشارونى

على سـبيل التقـديم :

نعم استطاعت مكتبـة الأسـرة بإصـداراتهـا عـبـر الأعـوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مـسبوق على مـستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مـجالات الإبداع والمعـرفـة كـادت أن تـنسى وأطلعت شـبـاب مـصـر على إبداعــات عــصــر التنوير ومــا تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسـانية المصـرية والعـربية علـى وجـه الخصـوص، ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مـختلف فروع المعرفة الإنـسانيـة بالنشـر الموسوعى بعـد أن حـقـقت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصـدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جـانب الإصـدارات الإبداعـيـة والفكرية والدينيـة وغيـرهـا من السلاسل المعـروفـة وحـتى إبداعات شـبـاب الأقاليم وجـدت لهـا مكاناً هذا العام فى «مكتـبـة الأسـرة» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سـمير سرحـان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الكاملة)

الزحام ـ الكراسى الموسيقية
ما بعد المجموعات
يوسف الشارونى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشـــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

الزحام

الزحـــام

انا انسان منضغط ، من قبل كنت سمينا ، كان ذلك منذ ثلث قرن ، حين كنت فى سنى مراهقتى ، كذلك كان أبى ألف رحمة عليه ، وامى ظلت تحتفظ بشحمها ولحمها حتى آخر لحظات حياتها . فقد عاشا زهرة حياتهما فى الريف حيث الخلاء والفضاء يتسعان للسمان والنحاف . اما أنا فقد اضطررت ـ بين صخب المدينة وزحمتها ـ ان أتخلى عن سمنتى حتى أفسح مكانا للآخرين واجد متنفسا لى بينهم .

منذ ثلث ساعة وأنا واقف على محطة الأوتوبيس ، أحـاول الركوب لأذهب واستلم نوبتى ، فأنـا محصـل بشركة النقـل الداخلى . لم يبق الا ثلث آخر على موعد عملى . مر أوتوبيس لم يقف بالمحطـة . كان متخما بالركاب لا يستطيع أن يزدرد آخر . جاء ثان ؛ وقف هـذه المرة ، انحشر الذين يريدون الهبوط مع الذين حاولوا الصعود ، وقف الجميع صـامدين بلا تقهقر .. أخيرا أفرز الأوتوبيس عددا من الأذرع والأقدام ، وامتص عددا آخر . حاولت أن أشـق لنفسى طريقـا بين معـركة الهـابطين

والصــاعدين ، لكنى ما كدت اجد مكانا لأطراف أصــابع قدمى اليمنى حتى تحرك الأوتوبيس ، فترنحت الى الوراء وانا أكافح لئلا يختل توازنى ، ومع ذلك فان شيئا قويا دفعنى فى صدرى فوقعت ، وقمت أمسح التراب عن ملابسى .

أنا فتحى عبد الرسول ، محصل وشاعر ، من قرية كوم غراب مركز الواسطى مديرية بنى سويف ، حيث امضيت طفولتى بين الحقول المترامية والأفق الممتد حتى نهاية البصر . كان أبى يشترك فى حلقــات الشيخ شعرانى ، فيهتز ببدانته المفرطة يمينا وشمالا ، وانا أرقبه فى فرح ورهبة محــاولا أن اقلده . ما أزال أذكر ــ فى لحظات خاطفة كالوميض ــ تلك الأمسيات التى كان يقرأ فيها ــ على ضــوء مصباح خافت ــ قصة السيد البدوى أو ادعية شيخنا المتولى . كانوا يرشحونه لخلافة الشيخ شعرانى، كان محبوبا من الجميع ، يقبلون يديه فى اجلال وينحنون ليقبلوا وجنتى فى لطف ومداعبة .

وانا أخاف الزحمة واتهيبها ، اخافها منذ اصطحبنى والدى معه الى مولد سيدى أحمد النوتى ، وانضم الى حلقــة من حلقات الذكر يتزعمها حتى نسينى تماما ، أما أنا فقد تمنيت ان أركب احدى المراجيح ، ثم وقفت اتامل مبهورا حصانا من الحــلوى عليه فارس صغير ربما فى مثل سنى ، ثم مر بائع الطراطير ، تتبعته قليلا حتى احسست فجــأة أننى ضعت وسط الزحمــة . ذهبت أعدو فى لهفة الى حلقات الذكر المنتشرة فى المولد ، كلهم يشبه أبى وليس فيهم أبى . انفجرت باكيا وانا أعدو مرتطمــا بالناس ، محتميا منهم فيهم ، خائفا مذعورا . لو كنت معه فى الحقل لرأيته على مسافة أبعد مساحة من المولد . لم ينقذنى يومها الا واحد من

قريتنا ، سمعته يقول : ابن عبد الرسول يبكى ، مالك يا ولد . ثم قادنى الى أبى . من يومها تهيبت الزحمة .

عندما نزح أبى من الريف ، باحثا عن لقمة عيشه فى المدينة الكبيرة ، كنت فى سنى مراهقتى ، وقد اخذت تظهر على بدنى بوادر سمنة موروثة ، كما أخذ صوتى يخشوشن ، وأنا أذهب الى المدرسة وأتعلم كيف أقلب صفحات الكتب التى كان يقرؤها والدى : نفح الطيب فى مدح الشفيع الحبيب .. هدية المسافر الى النور السافر .. الأبكار الحسان فى مدح سيد الأكوان ؛ وشغفنى بوجه خاص ما ورد من قصص فى كتاب : روض الرياحين فى حكايات الصالحين .

بهرتنى المدينة الكبيرة باتساعها وزحامها لكأنما اجتمع فيها ألف مولد مرة واحدة . كان واضحا أننا جئناها متأخرين فلا مكان فيها لمزيد من الناس . عندما رأيت العمارات بقاماتها المرتفعة وطوابقها المتعددة عجبت كيف تزدحم البيوت بعضها فوق بعض . كنت أخاف دائما ان تندك فوق ساكنيها لثقل ما تحمل . رأيت لأول مرة الترامات والأوتوبيسات تزحمها الناس وهى تزحم شوارع المدينة . وبدا كأنما الجميع ، رجالا ونساء ، وشيوخا واطفالا وشبابا ، يهرولون نحو شىء ما ، كأنهم قطيع اغنام تتدافع فى طريق عودتها الى قريتنا ساعة الغروب ، كل منهم مندفع يشق طريقه .. معزولا ووحيدا وسط الزحمة . فاجتاحتنى نوبة كآبة عميقة ؛ أعمق من تلك التى اجتاحتنى يوم ضعت فى المولد . لو ضعت هنا وبكيت لن أجد من يقول لى : مالك يا ولد . هنا لا تعرف أحدا ولا أحد يعرفك .

تمكن والدى ـ ولعلها كرامة من كراماته ـ ان يخلق له عملا وأن يجد لنا سكنا . أما العمل فكان محلا صغيرا للبقالة .

أما السكن فكان غرفة ، جمعتنا أنا وأبى وأمى وأختى الصغيرة سعديه وبقايا ما حملناه من كتب وأثاث . الغرفة طابق نصفه فوق الأرض ونصفه تحت الأرض ، نوافذه ضيقة ذات قضبان كأنها نوافذ زنزانات ، تصلها بقايا ضـوء الشمس ولا تصـلها الشمس ، فكأن نهارنـا غروب طويل ، وما يحمـل الغروب من رطوبة لا دفء فيها .

فى هذا المكان تتلاصق الغرف ، فى الغرف تتلاصق أجساد الرجال وأجساد النسـاء كلما جمعتهم عتمـة الليل فيتوالدون كالأرانب . وتتصادم الأهواء فيعلو الشجار ، وتتلامس الرغبات فيشتعل الجنس ، الصياح هو اللغة الوحيدة التى يعترف بها سكان هـذا الطابق ، صياح لا يهم أن يكون فيه كلمـات ، كأنما هناك مسافات بعيدة بين الرجل وزوجه ، وبين الابن وابيه ، وبين السيدة وجاراتها .

ويبدو أن صاحب البناء ـ توفيرا لنقوده ـ قد جعل سقف طابقنا منخفضا للغايـة ، بحيث لابد أن ينحنى كل من يريـد الدخول ، الأطفال وحدهم يستطيعون دخوله منتصبى القامة . فكنت ترى الرجـال والنساء يزعقون ويضحكون ويتحركون وهم منحنون كأنهم أقواس أو انصاف دوائر ، لهذا كانوا بمجرد دخولهم وانحنـائهم يرون اول ما يرون اقـدامهم والأرض التى تحت اقـدامهم . النوم هو فرصتهم الوحيدة لاعتـدال قاماتهم من جديد . ومع ذلك فقد كانوا يفضلون ـ طلبا للدفء فى الشتاء ـ أن يحتفظوا بتقوسهم حتى فى أثناء النوم ، ولقد كان ذلك صعبا علينا أول الأمر بسبب سمنتنا ؛ غير أننا ما لبثنا أن تعودناه . وكان فى الغرفة سرير ينام عليـه والدى وأمى ، أما أنا وأختى فكنا ننام على حصير فوق الأرض .

أمي ولدت ست مرات ، مات منهم اربعة ، ثلاثة قبل أن يتموا العام وواحدة قبل أن تتم العامين ، وبقيت أنـا وأختي سعدية ، في المرة السابعة ماتت أمي . حدث لها نزيف لم تعرف الداية كيف تجابه تحديه . بدأ ذلك في المساء وانتهى في الصباح، ليلتها لم ينم جيراننا . في الليل قدمت الجارات كل ما يستطعن من عطف وعون .. كلمـة تشجيع ، قطعة قماش ، تأوهات ، طشت ، ملاية سرير ، صرخات . في الصباح عندما علم الرجال أن الأمر قضى قـدموا ما أمكنهم تدبيره من مـال ليقرضـوا أبي ما يستعين به على تكاليف الموت . الرجال الذين حملوا خشبتها تعبوا لبدانتها المفرطة ، قيل انها كانت سببا في التعجيل بموتها ، بكاها أبي وبكتها أختي وبكيتها . بعدها بشهر كانت هنـاك عروس في غرفتنا تحتل في السرير مكان أمي .

لم تكن عواطف غريبة عنا . كانت من سكان احدى الغرف المجاورة ، ثم انتقلت مع أسرتها الى غرفة أقل أجرا بطـابق آخر بحي مجـاور . كانت في العشرين ، وكان أبي يومها قد أشرف على الخمسين وبالرغم من أنني تقبلتها أول الأمر في شيء من التحفظ الا انها حاولت أن تكون لطيفـة معي ومع أختي ، كما أن حلاوتها أذابت كل مقاومة من جانبي ، فما مرت بضعة أسابيع حتى أقنعتنا أنه ما كان لغرفتنا أن تستمر الحياة فيها بدونها . كما أننـا قد عانينـا خـلال الشهر الذي أعقب وفـاة أمي من اضطراب في غرفتنا . كانت الجارات يغسلن لنا ملابسنا ، وأبي يشتري لنا الطعام من السـوق ، أما الغرفة فتراكمت فيهـا الأوساخ . فلما أقبلت عواطف انتظم كل شيء من جديد ، بل بدت الغرفة أكثر انتظاما مما كانت عليه أيام أمي .

فى ذلك الوقت حصلت على الشهادة الاعدادية . حاول أبى ان يلحقنى باحدى المدارس الصناعية الثانوية . قيل لنا فى كل مكان انه لا مكان . مجموع درجاتى أقل من أن يسمح لى بمزاحمة غيرى . كل الفصـــول فى كل المدارس ازدحمت بمن استطاعوا ان يحصلوا على مجموع أكبر .

ســـمع ابى ان معهدا رياضـــيا ما تزال فيه بعض الأماكن الخالية ، لا يشترط فيمن يقبلهم مجموع الدرجـات . سكرتير المعهد ما ان رآنى ـ وراى والدى أيضـــا ـ حتى أفهمنا عبث محاولتنـــا .

قال لأبى وهو يتأمل سمنتى باسما :

ـ ليس لدينا الا مكان واحد ، وابنك يحتاج الى مكانين .

ـ لكن تمريناتكم قد تجعله يخلى مكانا لآخر .

ـ بل عليـــه أن يقوم اولا بتدريبـــات ، فالنحافـــة شفيع الداخلين الى معهدنا .

عدت اجر سمنتى خجلا منها ، كأننى ازحف أو أحبو . ثدياى كثديى امراة ، كضرعى بقرة حلوب فى كوم غراب ، لحم بطنى كله ثنيات ، اليتاى متهدلتان ، وثمـــة عرق لزج هـــلامى ينضح متلكئا من كل ثنية ترهل .

انضممت لفورى الى أحـــد النوادى فى مقـــابل اشـــتراك متواضـــع ، حيث أخذت اقوم بتدريبـــات شاقة ، عندما نحف جسمى كان موعد القبول قد انتهى ، ادركت ان طريق المدارس أغلق أمامى ، وعلى أن بحث عن عمل .

أراد والدى ان يوفر على نفسه مهمة البحث عن عمل لى ، فرأى أن يلحقنى بمحل بقالته ، طرد العامل الذى كان يستخدمه ؛ اتهمه بمغالطته فى حساب الزبائن ، فلا مكان لكلينا .

فى أوائل كل شهر كان الناس يتزاحمون على البقالة ؛ بطاقات التموين وقد لوثتها يد ، والنقود وقد لوثتها اليد الأخرى، فاذا اختفى صنف من السوق وتسامع الناس أن بقالة عبد الرسول بها بقايا منه تضاربوا وتدافعوا فى سبيل الحصول على الكمية كلها ان امكن ، وينفد ما لدينا والناس ما يزالون يتضاربون .

كانت مهمتى فى ذلك الوقت أن ادفعهم بعيدا عن دكاننا حتى لا تنقلب بضاعتنا فوق رؤوسهم أو تمتد اليها فى خفية يد سارق .

علاقتى بوالدى كانت علاقة اعجاب وتهيب أكثر مما هى علاقة محبة ، كنت اعجب بشجاعته واتهيبه لقسوته . كان قد هجر زعاماته الدينية ، فبقالته تأكل وقته صباح مساء . احيانا كان يضبطنى اقرأ أو أكتب اغنية فيسخر منى قائلا : لماذا لم تفلح فى المدارس اذن . . لماذا لا تأكل عيشك كما يأكله اهلك ؟ . . ومع ذلك أرسلت للاذاعة أغنية بعد أخرى دون أن أتلقى جوابا . كنت احاول أن أكتب فى خفية عنه أغانى مثل تلك التى يكتبونها عن الحب والعذاب ، لكنها كانت أيضا تعبر عن عاطفة مشبوبة بدأت تشتعل فى دمائى .

فى الليل عندما تجمعنا غرفتنا ، بعد أن تخفت الأضواء فى الغرف المجاورة ، وتخفت معها حدة الصيحات حتى تتحول الى ما يشبه الهمسات بدأت اتنبه الى امور جديدة . كنت أسمع ـ

وأنا ما بين اليقظة النوم ـ حركات وأصواتا مريبة حيث يستلقى أبى وعروسه . أخذت انتبه شيئا فشيئا الى ما يحدث فى عالمهما وانا أستقبله بمزيج من حب الاستطلاع والاشمئزاز واللذة .

فى الصيف فضلت النوم خارج الغرفة ، فى الردهة التى تطل عليها بقية الغرف ، فى الشتاء لم احتمل البرد . عندما اكتمل العام ولدت عواطف طفلها الأول ، ولدته فى الظهيرة .

سخونة الشمس تلسع راسى ، راسى دب فيه الصبلع ، حرارة الجو اذابت نضارة النساء ، تبخرت عطورهن ، فاحت رائحة العرق من تحت اباطهن ، لم يقبل أوتوبيس ثالث ، اسأل واحدا بجوارى عن الساعة فيجيب وهو ينفخ : الساعة مليون . سيدة تنقل طفلها من كتفها اليمنى الى اليسرى ، ومن اليسرى الى اليمنى كل دقيقتين بانتظام . عجوز يرفع عينيه ويحدق فى قرص الشمس ثم يسألنى عن رقم الأوتوبيس المقبل . ومن حين الآخر يخرج شخص عن الموقف ـ متوكلا على الله ـ يرفع يده ويزعق : تاكسى ، ويفتح باب التاكسى .

فى محل البقالة رفع أبى السكين يهم بضربى .

ـ ماذا تفعل يا ابن الكلب ، ما تزال تؤلف اغانى الغرام ، هل هذه آخر تربيتى ، أردتك ان تكون شيخ طريقة ، فلا تصبح الا شيخ فساد .

تدخل الزبائن : اتركه يا معلم .. من أجل خاطرى .. كل الأولاد هكذا ..

ـ اتركونى أؤدبه .. المجرم .. حتى هنا لا تفلح ..

أفلت من أيدى الناس المتشابكة ، اختطفوا السكين من يده ، صفعنى على خدى أمامهم ، تهاوت بعض قطع الصابون . فكرت ان اقذف راسه بواحدة منها . لم تكن المرة الأولى ، صممت ان تكون الأخيرة .

لم تكن الأخيرة . العثور على عمل آخر يستغرق وقتا . أخيرا قادنى صديق الى شركة النقل الداخلى . وقفت امام الموظف المختص بقبول الطلبات ، تذكرت وقفتى امام سكرتير المعهد الرياضى ، لم تعجبه هو ايضا بدانتى ، الكثير منها ذاب الآن ، قال الرجل :

ـ سياراتنا مزدحمة ، اقصد شديدة الزحام ، لا تنقص امثالك .. كيف تستطيع أن تنزلق بينهم . نريد محصلين مثل أعواد القصب ، وأنت .. اقرب الى الفيل أو الدرفيل .. كه كه كه .

ضحكت مع الرجل حتى لا أبدو سمينا وسمجا ، استأنف كلامه :

ـ شركتنا تحب الزحمة ، كلما أزدحمت أوتوبيساتنا زادت ايراداتها ، نحن نكافىء محصلينا .. ثمانية قروش جائزة اذا وصل الايراد الى عشرة جنيهات ، اربعة قروش عن كل جنيه بعد ذلك . جسمك سيحرمك من الجائزة والمكافاة .

استعطفته :

ـ اعدك ، ساضغط جسمى .

ـ لماذا تأكل كثيرا .. وفر يا أخى لغيرك .. كه كه كه .

ـ كه كه كه .. تحسبنى مليونيرا .. أعدك لن آكل بعد اليوم .

ـ سأقبل أوراقك .. المهم أن تقنع الممتحنين يوم اختبار كشف الهيئة .

عدت الى النادى الذى يبيع النحافة ، هناك وجدت عشرات غيرى ، كل منهم يقوم بتمرينات شاقة أملا فى أن يضغط جسمه قليلا فيحصل على مكان فى مدرسة أو مصلحة . التدريب كأنه تعذيب ، كان على أن انحنى واعتدل ، اجلس واقف واتمدد ، أرفع يدا أو أخفض أخرى ، انبعج يمينا ويسارا ، أتقوس أماما وخلفا ، كأننى فى حلقة ذكر ، حتى ينضح عرقى غزيرا ولهث ككلب يعدو من وحش يزعجه .

اقللت من شرب الماء ؛ حرمت نفسى من نومة القيلولة ، اقتصرت على تناول وجبة واحدة فى اليوم . جسدى كحصان عمدتنا الجامح ، اروضه بل أذله عساه أن يقودنى وسط الزحمة.

ومع أننى لم أصل الى شكل عود القصب أبدا الا أننى أقنعت ممتحنى يوم جلست أمامهم . غنيت لهم بعض ما الفت بعد أن استعرت الحان غيرى ، ضحك أحدهم ، ابتسم الآخر ، هذا أول تقدير لأغانى ، وهكذا اصبحت محصلا بشركة النقل الداخلى .

فى زحام الأوتوبيس ظننت انى فى احدى غرف طابقنا الأرضى . السقف منخفض كسقف غرفتنا ، الناس يزدحمون على

هيئة اقواس وأنصاف دوائر كما يزدحمون فى طابقنا . أجسام الرجال واجسام النساء تنضغط فيتوهج الجنس ، الداخلون والخارجون يتصادمون ، يدوس بعضهم بعضا فيعلو الشجار . يركز الواحد منهم كل تفكيره على مقعد قد يخلو ، هذا الاحتمال يصبح اهم ما يشغل فكره فى العالم كأنما عليه يتوقف مصيره .

ـ تسمحى يا هانم أفوت .

ـ تفضل .. من منعك .

ـ انت امامى .. كيف اتفضل ؟

ـ فاكر نفسك فى الهيلتون .. نحن فى أوتوبيس .

ـ الحــق على .

ـ فاكر نفسه فى الهيلتون ، قال تسمحى قال .

ـ لا يعجبها أن يتفادها الرجل ، الحق عليه فعلا .

ـ ربما لها مزاج .

ها ها ها .. هو هو هو ..

ـ آه قدمى قدمى .

ـ اذا كنا نعانى من الزحمة الآن على هـذا النحو ، ماذا يفعل أولادنا اذن .

ـ هذه حكمة عدم زواجى .

ـ بل حكمة الزحمة ، تعالج نفسها بنفسها ، تضايق الخلق فلا ينجبون .

ـ هذا أفضل من الأوبئة والمجاعات والحروب :

ـ الزحمة حرب ... كلما نظرت الى أطفالى اشفقت على مستقبلهم .

ـ بعد بضع سنوات لن يجد الناس مكانا على الأرض الا واقفين متلاصقين .

ـ النكتة أن الزحمة نتيجة التقدم الطبى ، وتغلغل الأطباء فى الريف ، نعمة ولدت نقمة : من يصدق ؟

ـ آه راسى اصطدم بالسقف .

فى الدرجة الثانية صوت نسائى يقول فى غضب وحزم :

ـ تسمح تبعد .

ـ الزحمة لا تعجبك .. خذى تاكسى .

ـ انت قليل الأدب .

ـ ما قليل الأدب غيرك .

ـ يا جماعة كلها دقيقتان .. صبركم .

ـ وحدوا الله يا جدعان .

بقيت دقيقتان على موعد نوبتى ، سينتظرنى أوتوبيسى حتى يزدحم بالراكبين فيزعقون على مفتش الحركة ، ويخصمون اجر يومى . لم اعد احتمل الوقوف . مفاصلى تلتهب .

ذات صباح شكا أبى من مفاصله ، من ركبته اليمنى على وجه التحديد . فى المساء عاد يشكو من ركبته الأخرى ومن

سخونة فى جسده ، كان يتصبب عرقا كرائحـة الخل ، ابتلع قرص اسبيرين ونام ، فى الصباح رفض أن يستريح . قلت له : استرح يا ابى ، ستذهب عواطف الى البقـالة . برقت عينـاه كالوحش وصاح : انا أعلم ، تريد ان ترثنى وانا حى .

ـ بل صدقنى أريدك أن تستريح .. أنا خائف عليك . خرجت فى الصباح ومفصـل يؤلمك ، عدت فى المساء بمفصلين ..

قام يحاول الهجوم على وهو ثائر يصيح : تريد ن تبيع الدكان لتشترى به ورقا واقلاما ، أنا اعرفك . عواطف لن تخرج من هنـا .

سكان الغرف المجاورة اقبلوا ـ كعادتهم ـ حبا فى الاستطلاع ووساطة فى الخير . فضوا ما بيننا .

ذهب الى عمله ، قويا كالوحش ، مستعدا أن يقاوم الموت . فجأة رقد ، لا يحتمل احدا أن يلمس جزءا من جسـده . تورمت مفاصله ، انتفخت بالمـاء ، قال الطبيب ان المرض وصل القلب . هزه السعال والتقيؤ . كلما سعل أحس أحشاءه تتمزق فتتمزق معه روحى . ونظرات الرعب فى عينيه لا تمحى من عينى .

فى الليل بعد ان دفنـاه ، بعد أن انفض مجلـس المعزين والمعزيات ، بعد أن بكت اختى سعدية وعادت الى بيت زوجها ، بعد ان بكى اخـوتى من عواطف وناموا ، كانت عواطف ما تزال تبكى . لم استطع أن اذرف دمعة واحدة ، على حين ارتفع فى داخلى نشنيج صامت يقطر مرارة .

أدركت أنني ورثت أبي حقا ، الأفواه الصغيرة ألتى تركها لى ، بقايا كتبه وبضاعته ، دكانه ، وعواطف أيضا . حاولت ان اعزيها وانا فى حاجة الى من يعزينى . ثياب الحداد السوداء كشفت عن بياض بشرتها ، لم اتنبه من قبل الى بياض بشرتها على هذا النحو الناصع ولا الى نعومته الحريرية .

فى الليلة التالية لموت أبى اكتشفت أن انفها جميل ، ادركت ان الأنف مسئول عن جمال الوجه أو قبحه ، الأنف مركز الوجه ، اذا كان ضخما أو طويلا او افطس أو معقوفا ألقى قبحه على ما يحيط به . انفها دقيق اشاع الحلاوة فيما حوله .. فى شفتيها، فى ذقنها ، فى عينيها ، حتى تمنيت أن اقبله ، ان اقبل فقط طرف انفها ، كتبت هذا فى الأغنية .

فى الليل حلمت انى احمل ابى وهو يئن من آلامه ، كان ثقيلا لبدانته ، وكنت انا قد اصبحت نحيفا . وقعت واوقعته معى على الأرض . سمعت انينه وهو يصيح فى حزن : لماذا توقعنى .. يا جبار يا قاسى . فى تلك اللحظة كنت أذوب حنانا وعطفا عليه ، وانا ارى آلامه تتضاعف بسببى . صحوت منزعجا لأرى عواطف راقدة فى سرير ابى تتنفس فى هدوء وقد تعرى جزء منها أكثر بياضا ونعومة مما اكتشفته امس ، فاقتربت اغطيه فى حنان وانا أحس الدفء يشع منها .

فى الليالى التالية تعمدت الا اعود مبكرا ، لا أعود الا بعد أن تكون عواطف قد نامت . طلبت أن تكون نوبتى ليلية ، كنت افضل هذه النوبات حيث يخف الزحام قليلا .

فى ليلة الأربعين كان على أن أكون بجانب عواطف استقبل المعزين ، فى تلك الليلة اكتشفت صوتها ، كيف لم اكتشفه

الا الليلة ، نطقها المتكسر كأنه نداء ، فيه بحة كأنه رغبة ، ليلتها لم انم بعيدا عنها ، لم يفصـــل بيني وبينها اخوتي ، بل نمت تحت سريرها مباشرة . كان هـــذا في أول الليل . غير أنه حدث في منتصفه ان وجدت نفسي أرقد حيث أبي كان يرقد . في تلك اللحظة اكتشفت قدميها . اكتشفت أصابع قدميها ، اكتشفت اظافر اصابع قدميها . كنا مجنونين رغبة . ثم غفت ففغوت .

وجدت نفسي في المولد ، المولد في أوتوبيس ، ثمـــة موكب يتجه نحوي ، يقترب مني ، احتشد فيه الناس وهم يذكرون ويكبرون حاملين أعلامهم ومشاعلهم وطبولهم يتقدمهم أبي على حصان كبير من الحلوى لابسا طرطورا شـــاهرا سيفه ؛ حوافر حصانه تطؤني وسيفه يضربني ، من خلفـــه يتدافع الناس كمـــا يتدافعون لأخـــذ تموينهم من البقـــالة ، كمـــا يتدافعون لركوب الأوتوبيس قبل أن ينزل ركابه . يتدافعون ويدوسونني وأنا أصرخ ولا صـــوت يخرج ، فقد امتلأ فمي بالتراب . كنت أنضغط تحت حوافرهم وهم يدوســـون مفاصل جسدي مفصلا مفصلا ، حتى ضاع دفتر التذاكر وتبعثرت نقود محفظتي ، وأنا أتشبث عبثا ببقاياها .. آه سيطردونني من عملي . لم يبق بيني وبين موعد نوبتي غير ثلث دقيقة . أحذيتهم واقدامهم ما تزال آثارها داخل مفاصلي ، داخل ركبتي اليمنى على وجه التحديد ما تزال آثار ضربة من سيف أبي .. جسمي يغمره عرق رائحتـــه كرائحـــة الخل . سيزحف المرض على قلبي .

أنا فتحي عبد الرسول ، محصل وشاعر وعاشق ، نحن في الغرفة جميعا ، ابنها الأكبر بدأ يتنبه . يصحو في الليل كأنمـــا يريد أن يشرب من القلة ، ينظر نحونا ، أنا قد ابتعدت ، لعله يريدها له ، أشك في نواياه .

ـ ماذا تفعل يا سعيد .

ـ ايه .. أشرب .

ـ تشرب .

وتصحو عواطف وهى تقول :

ـ الدنيا ليل .. الحيطان لها آذان .. اخزوا الشيطان .

ـ لكن ما علاقة هذا الولد بك .

ـ تقصد ابنى سعيد .. هل أنت مجنون .

ـ لست مجنونا .. لماذا يقوم كل ليلة .

ـ يريد أن يشرب او يتبول .

ـ بل أعرف ماذا يريد .

صفعت سعيد على وجهه ، صرخت امه ، استيقظ الجيران ، عواطف تصرخ :

ـ ابعدوا عنى المجنون ، ابعدوا عنى المجنون .

فى الفجر لمحت والدى فى ركن الغرفة يرتدى بذلة مفتش فى شركتنا وقد جلس متربعا وهو يتمايل يمينا ويسارا ، المانوفستو بيده ينشد منه :

آه يا جبار يا قاسى .. انا ابوك يا ناسى .

ظل يردد نشيده كأنه فى حلقة ذكر حتى تذكرت الفاتحة ، رددتها اختفى . غير أنه عاد فيما بعد . كان لا يعود الا فى الفجر أولا ، ثم تعددت زياراته فى كل وقت .

فى زحام الأوتوبيس عاودتنى نوبات الكآبة والتهيب وانـا منحن اقطع التذاكر حتى لأفقد كل رغبة فى الحيـاة ، لا احتفظ الا بالقليل الضرورى لاستمرارها . أفقد شهيتى للطعام والنوم كما افقد عواطفى نحو عواطف بل قدرتى على تأليف الأغانى .

ــ تذكرتك يا هانم .

ــ دقيقة .. آه كيس نقودى ، كيسى ، أين كيسى .

ــ نشله النشالون .. نشالون .. لون .

ــ أوقف الأوتوبيس .

ــ عندنا مواعيد .

ــ فتش الركاب .

ــ ولد صغير كان يقف بجوارها ، قفز من محطتين سابقتين.

ــ كان فيه كثير ؟

ــ عوضك على الله يا هانم .

السيدة تلعن الزحمة على حين يتحسس كل راكب جيبه .

ــ انت دفعت كم ؟

ــ خمسة قروش .

ــ واخذت الباقى كم ؟

ــ تسعة قروش .

ــ هل هذا باقى مبلغك ؟

ــ وهل أعرف ثمن التذكرة فى أوتوبيسكم ؟

ها ها ... هى هى ... هو هو هو ...

أريد ان أشم رائحة الخضرة ، أن اتنفس ضـوء القمر وهو ينتشر على حقول غطتها عيدان الذرة . لم أعد أشم الا رائحـة العرق والأنفاس . فى الليل يختنق ضـوء القمر تحت زحمـة البيوت ، طردوا القمر من المدينة . هذا كان فى الأغنية .

اشرفت عواطف على محل البقالة . كانت تخرج فى الصباح ولا تعود الا فى الليل . فاجأتها أكثر من مرة لعل زبونا يغازلها . الزحام اشتد على البقالة عن ذى قبل . وجدت سعيدا يساعدها بعد عودته من المدرسـة . لم تعطنى نصيبى مما تربحه ، أريد أن اقضم انفها ، وجه أبى يقف بينى وبينه .

ـ ماذا يفعل هذا الولد عندك ؟

ـ يساعدنى كما كنت تساعد اباك .

ـ بل ياكل نصيبى .

ـ نصيبك ياكله اخوتك .

ـ اذن آكل انفك .

ـ يكفيك أجرك .

ـ يكفينى طرف انفك .

ـ ليس لك نصيب .

ـ انفك نصيبى .

ـ آه .. ماذا تفعل .

هجمت عليها ، التحمت أصابعي بشعرها ، التصقت به ، تشبثت به ، حاولت أن أرفع وجهها لأقضم انفها ، فوجئت بطعم الدم . لساني يلعقه . لمحت ــ من خلال المعركة ــ انفها الجريح ، غير أني لم افلح في انتزاع قطعة منه ، ولا حتى مجرد قطعة صغيرة صغيرة . خمشت وجهي باظافرها وهي تولول . ضربت راسها في حائط الدكان . تجمع الناس ثم تزاحموا كما يتزاحمون في الأوتوبيس ، ضغطوني بينهم . قلت لهم انها لا تريد أن تدفع ثمن تذكرتها ، يجب أن تنزل في المحطة التالية .. أين تذاكركم ، انا اعرفكم ، كلكم تحتمون في الزحمة حتى لا تدفعوا .. لكني اميز جيدا بين الوجه الذي دفع والقفا الذي لم يدفع .

دفعتنا الزحمة الى مركز الشرطة ، قالت لهم اني مجنون واستشهدت بأنفها المقضوم . طلبت حمايتها مني والكشف على عقلي . كتب الشاويش المحضر ، في المحضر كتب اسمي وعنواني وعمري وعملي .

من يومها ادركت أنهم قد يقبلون في أية لحظة ، ليلبسوني قميص الكتاف ثم يأخذونني .

منذ زمن بعيد كنت اسير متكورا ، مادام علي ان انحني كالقوس داخل غرفتي ، وكالقوس داخل أتوبيسات شركتنا ، فقد وفرت على نفسي جهد الاعتدال ما بين المكانين ، ووجدت في هذا التكور ما قد يخفيني عن اعينهم .

كنت احاول الاختفاء عنهم واستعد في الوقت نفسه لاستقبالهم . في كل مرة اتسلم أجري اقول : هذا آخر اجر لك قبل أن ينقلوك ، في كل مرة احلق شعر رأسي أو ذقني اقول :

هذه آخر مرة تحلق فيها قبل أن يأخذوك ، فى كل مرة أستحم فيها أقول : هـذه آخر مرة تستحم فيها قبل أن يلبسوك قميص المجانين .

ـ تذاكر .

ـ مصلحة .

ـ تسمح .

ويخرج الرجل بطاقة تثبت انه خارج من مستشفى الأمراض العقلية ، أساله لماذا لا يريد أن يدفع ، يضحك قائلا :

ـ يا سلام ... نحن واحد .

هى هى هى ... هو هو هو .. أنا فتحى عبد الرسول ، محصل وشاعر وعاشق ومجنون ؛ ألفت أغنية عن الزحمة ، طبيبى لا يصدق انى مؤلفها .

فى الزحمة تتلاصق الأجساد ، تتلاصق الكلمات ،

يختفى العطف ، تختفى حروف العطف ،

يتلاشى الوصل ، تتلاشى اسماء الوصل ،

الزحمة هم ثقيل ؛ أحمله فوق قلبى ، فوق ظهرى ،

يضغط على لحمى ، يتسلل الى نخاع عظامى داخل لحمى .

رأيت الناس فى الزحمة ؛ رأيتهم عندما يخلو مكان فيتدافع نحوه العشرات مذعورين متحفزين ، غير أن أشخاصا أقدر من غيرهم على الانسياب وسط كتل اللحم ، هم وحدهم يفوزون بالمقعد ونصف المقعد ، ويجلس الواحد منهم وعلى شفتيه شبه

ابتسامة ، كانما هو بطل صغير محلي يحتذى ويحسد . أما الرضع والحوامل ؛ أما الذين يتأدبون والذين يترددون ويبطئون فيظلون واقفين ؛ تتشبث قبضاتهم بقضيب فى أعلى السيارة ، كانهم ذبائح بشرية معلقة مكدسة ؛ تقطر مرارة آه .. مفاصلي تؤلمني . هذا ليس فى الأغنية .

معى فى هذا المكان الذين يبكون والذين يضحكون . الذين صمموا على ان يقفوا بقية حياتهم على ساق واحدة ، والذين صمموا على أن يرفعوا يدا لا تنخفض ، معى عظماء العالم : نابليون والسيد البدوى وصاحب « شركات النقل الصاروخى قبل أن تخترع الصواريخ » هكذا الاسم الكامل لشركاته . ومعنا أيضا من أطلق على نفسه لقب صاحب القدرة على كل شيء ، جميعهم طيبون ما عدا نابليون ، هو وحده الذى يخيفنى ، متى وجد عصا فى متناول يده ركض خلفى يحاول أن يضربنى مدعيا انى أحد جنوده العصاة وانه يؤدبنى بعصا الماريشالية ، وأنا أعدو متكورا أمامه حتى يختطفها الممرضون منه .

أما الباقون فيأتون من حين لآخر ليقفوا الى جانبى فى انتظار الأوتوبيس ، غير أن صبرهم سرعان ما ينفد ، فيتسللون واحدا اثر واحد ، حتى صاحب شركات النقل الصاروخى ما يلبث أن ينفخ ثم ينسحب ، واظل وحدى واقفا تحت وهج الشمس انتظر .. أنتظر .. أنتظر ...

منذ دخلت هذا المكان وانا أقول : غدا أخرج ، غدا وبعد غد وبعد بعد غد . فى كل عام أقول : هذا آخر مولد لسيدى أحمد النوتى أقضيه هنا ، هذا آخر مولد نبوى . آخر عيد كبير .. عيد صغير .

عندما اسأل الطبيب : متى تقرر خروجي . يجيب : بل انت الذي تقرره ، عندما لا تعود ترى وجه ابيك ، عندما لا تعود تقضم انوف النساء ، عندما ترفع قامتك من جديد . فأسأله : هل الزحمة ما تزال تزحم المدينة . فيضحك قائلا : ها انت ذا ما تزال مريضا .

انى المح طبيبى مقبلا ومعه زائر جديد ، هكذا كل يوم . أعرفه بمعطفه الأبيض ونظارته الفضية . أعرف بماذا يهمس له ، كما همس لزائر الأمس ، واول امس ، واول أول أمس . انه يؤكد له أن مفاصلى سليمة ، المرض فى مفاصل عقلى .. ها ها ها .. انه يشير نحوى قائلا : هذا الرجل القوس لايزال ينتظر الأوتوبيس ، منذ ثلث قرن ما يزال واقفا ينتظر ، ينتظر مكانا له فى الزحمة .

مدد يا قطب يا مغيث ، مدد يا حى يا قيوم .

فبراير ١٩٦٣

لمحات من حياة

« موجود عبد الموجود »

وملاحظتان

**« الحاضر وقت مصلوب فوق الواقتين ،
لأن الماضى حدد مصير المستقبل وهو محاصر
بينهما ، لا يستطيع الفكاك من أيهما » .**

انطفات الشمعتان : البنت وامها ، زوجتى وعشيقتى ، لم يبق الا المدارس .

انا مدرس فلسفة ، كنت طالب فلسفة ، منذ مدة طويلة . ولكن فلنبدأ القصة من آخرها .

انا فى الغرفة وحدى ، غرفة واحدة وحيدة فوق سطح فسيح ينشر فيه السكان ملابسهم المغسولة على حبال امتدت بطوله فى غير نظام ، تتقاطع حينا وتتوازى حينا فتصنع المثلثات

والمربعات . ليس غرفتي أثاث كثير : مقعد أجلس على قاعدته وأعلق « بدلتي » على مسنده ؛ منضدة للكتابة والأكل ، « كنبة » كان يجلس عليها ضيوفي نهارا وأنام عليها ليلا ، كوب أشرب فيه أحيانا وأضع فيه أزهار البازلاء التي أحبها أحيانا . كل شيء مزدوج الفائدة في غرفتي ، حتى الصحيفة التي يلقيها البائع كل صباح تحت عقب الباب أتتبع منها أخبار اتهامي ثم أجعل منها مفرشا لمنضدتي . ولكن فلنبدأ القصة من آخرها .

يا رعبي من الليل ، يا لكآبة الليل ، ليس الليل في أوائله ، مشكلتي مع الليل في أواخره : فأنا أهرب من خوف في أوائل الليل، اذ يهبط على نوم ثقيل بعد تناول طعام العشاء مباشرة مهما كان خفيفا ، كأنما تناولت مخدرا أكيد المفعول . غير اني ما البث أن اكتشف أني كنت ضحية خدعة سمجة ، اذ أصحو فزعا في الثالثة أو الرابعة صباحا حيث يصبح صمت الليل أعلى من ضجيج النهار : نباح كلب ، نقيق ضفدع ، دقات ساعة ، أشياء تتكسر ، أقدام تدب ، وتوقع شر يوشك أن يقع ولا يقع لكنه سيقع . ويطوف بي هاجس أن ضع حدا وحلا لما انت فيه ، افتح نوافذ غرفتك ـ عندما يزدحم النهار بنور الشمس وتزدحم الساحة بخلق الله ـ لتعلن جريمتك . بل الأفضل أن أتسلل بلا ضجة الى مركز الشرطة لأعترف . لكن بماذا عساي ان أعترف ، هل أعترف بأني لست واثقا على وجه يقيني أبدا بما أعترف ؟ لكن هل تراهم ينتظرون حتى أذهب بنفسي ، لعلهم قادمون ، والا فلماذا ينبح كلب وتدب قدم . يا لهول الأرق والقلق . الفجر خلاصي من عذابي ، صياح ديك ، شقشقة عصفور ، وينزاح كابوس الظلمة .

فى صباح يوم ما ، منذ زمن غائر فى الزمن ، كنت أهبط السلم فى طريقى الى كليتى ، عندما ترامت الى انفى رائحة عفنة . ظننت أول الأمر انها تنبعث من قط أو كلب ميت أو ربما من فأر القاه أطفال العمارة فى بئر السلم . غير أن اختفاء الشيخة مديحة منذ أيام أثار ريبتى ، وهى التى كانت تملأ العمارة والحارة والحى كله حيوية وضجيجا . عدت أصعد درجات السلم التى كنت قد هبطتها لأطرق باب شقتها ، غير أن احدا لم يستجب لطرقاتى . عبثا حاولت أن أدرك الحقيقة من خلال الباب المغلق : وضعت عينى فلم أر شيئا ، أرهفت اذنى فلم اسمع شيئا . انفى فقط استطاع أن يلتقط رائحة اقرب الى رائحة الجريمة . قررت أن أسرع الى مركز الشرطة لأطلعهم على مخاوفى ؛ فقد كانت تربطنى بالشيخة مديحة — قبل أن تستشيخ منذ اسابيع — أكثر من صلة .

حين صارحتها أن عيون الناس مفتوحة ولا معنى من الصاق تهمة نحن منها براء ، كان جوابها ضحكة كأنما قلت نكتة :

— لماذا لا تتزوج ؟

— ما زلت طالبا .

— ولا تملك نفقات زواج ؟

— ولا وقع اختيارى على عروس .

— العروس أمامك ، ونفقات الزواج مكفولة ، والمسكن مهيأ .

هكذا عرضت على الزواج لكن بابنتها . هذا رد مفحم على تقولات الناس ، هذا تفسير لا يخطر على بال ابليس نفسه

لسر الزيارات المتبادلة ، وهو ازالة نهائية لمخاوفى . ما على ألا ان اهبط من غرفتى العلوية الى شقتها زوجا لابنتها أمام النـاس وعشيقا لها أمـام الشيطـان . يا للفراش الآثم ، يا لضحيتنـا المسكينة ، يا للمجنونة تكتسحنى وتكتسح ابنتها أمام نزواتها . وانا سعيد بالعصفورين أردد نشيدى الفلسفى : انا خائف اذن انا موجود .

فى طريق عودتى مع الشرطـة ، كان ثمـة أمـل أن تكون مخاوفى مجرد وهم ، فنجد الباب مفتوحا والشيخة مديحة واقفة تصـد الشرطة عن الدخول ، فوقوع أمر سيىء للشيخة مديحة سيسبب لى متـاعب لا نهايـة لها ، وسيوجـه الاتهـام أول ما يوجه لى .

عندما استدعيت امام المحقق كنت أرتجف رهبة . سردت موجز علاقتى بالشيخة مديحة منكرا ومستنكرا أية صلة آثمـة لى بها . وكان بعض الشهود الفضوليين قد اطلعوا المحقق على احتمالات من هذا القبيل . اعترفت أنى دفعت لها دينا على ظهر الخميس .

ــ اى دين ؟

ــ دين اقترضته منها يوم زواجى بابنتها .

ــ كم اعطيتهـا ؟

ــ جنيهين قسطا اول .

أما معركتى معها فلم اشر الى شىء منها . قطعة من مداس ابنتها كانت تستلقى بلونها الأحمر الباهت امامنـا على مكتب التحقيق . سألنى فجـأة عن بقيتها ، انكرت معرفتى بشىء عن

مصيرها . لو ضيق على لاعترفت على الفور ، فأنا لا أجيد الكذب، هذه احدى رذائلى ، ما أخفيه بلسانى تشى به انفعالاتى .

ولقد وقع ما كنت أخشاه : فالباب لا يزال مغلقا ، وقد تجمع الجيران أطفالا وسيدات أمامه يتشممون الحدث . وعندما اقتحم رجال الشرطة الشقة وجدوا بقايا الشيخة مذبحة على فراشها تنبعث منها رائحة تزكم الأنوف . فهبط قلبى وتخلخت ركبتاى ، وشملنى دوار عنيف . غير أنى تماسكت ، لمحت الجميع وقد سدوا أنوفهم بمناديلهم أو أصابعهم ففعلت مثلما يفعلون ، وتساءلت مثلما يتساءلون : أترى فى الأمر جريمة ، واذا كانت هناك جريمة فمن هم المتهمون ومن هم الشهود ، وهل ترانى شاهدا أو متهما . واذا اتهمت فالى أى حد يصل اتهامى . هل تراه يصل الى حد ادانتى ؟

فى الصيف السابق ، فى بداية العام الرابع والأخير لدراستى، أقبلت مع سمسار أبحث عن غرفة تؤوينى ، فى أول عام كنت كالتائه فى زحام القاهرة ، أقمت مع ابن عمى ، أتوكأ عليه وأنا أستكشف خفايا المدينة الكبيرة وأتعثر فى منحنياتها ، مزودا بنصائح أبى ودعوات أمى وما يقتطعانه من قوتهما وقوت أخوتى . اكتشفت أن لهجتى ومخارج الحروف من فمى تعرينى أمام زملائى وزميلاتى القاهريين . واكتشفت ـ لدهشتى ـ أن هؤلاء الزملاء والزميلات يتحركون معا ببساطة وبلا حرج . تمنيت أن أفعل مثلما يفعلون . كان ينقصنى شيئان : موهبة أو دربة ، وقليل من المال . فانزويت وانطويت .

فى الصيف السابق تزوج ابن عمى ، عدت من قريتى فوجدت عروسه الحلوة القاهرية الصغيرة تحتل الشقة بأثاث لامع براق ،

وقد كومت سريرى ومقعدى ومكتبى وكتبى فى ركن منزو ، فخرجت أبحث عن مكان يؤوينى حتى عثرت على غرفتى .

فى الصيف السابق اكتشفت أنى من خلال ثقب الباب استطيع ان أستعرض نساء العمارة المتواضعة وهن ينشرن الغسيل : ملابسهن وملابس ازواجهن واطفالهن . فى صباح كل جمعة كانت مديحة تنشر غسيلها . لاحظت انها لا تنشر الا ملابس نسائية ، ليس بينها ملابس رجال أو أطفال . كانت هذه هى معرفتى الثانية بها ، معرفتى الأولى كانت يوم اتفقت معها ــ وفى شقتها ــ على تأجير غرفتى . يومها لاحظت انها فى الأربعين وابنتها الى جانبها فى العشرين . لكن حين اقبلت تسألنى عن غسيل لها مفقود بدت فى الثلاثين . كانت تمضغ اللادن وتلفحنى برائحة عطرة نفاذة ، ثوبها بسيط وان كانت ألوانه زاهية ، ليس فيه تكلف الحشمة ولا خروج عليها ، كلماتها قلائل فى جرأة وفى أدب ، ومع ذلك احسست أن هناك دعوة خفية منها موجهة الى تنبعث من عطرها ولادنها وثوبها ومن جرأتها المؤدبة . فى الليل ــ وانا ما بين اليقظة والنوم ــ رايتها تخطر امامى على حين توارت زميلات تعودت ان أستعرضهن كلما انتابنى أرق ذات ليلة .

فى المرة التالية أطالت الوقوف فى حين كانت ابنتها زينب تجمع الغسيل . استفسرت عما يضايقنى فشكرتها ، وان كنت بدات افكر فيما يضايقنى او قد ينقصنى . تجربتى فى القرية والبندر اولا ، ثم مع زملائى وزميلاتى فى الكلية : علمتنى أن أتهيب الناس واخشاهم ، لكنى لا أتعلم . حاجتى الى الآخرين تدفعنى نحوهم ، وتشككى فيهم يدفعنى عنهم .

زينب لم تكن فى حيوية أمها ولا جاذبيتها ، وأن كان شبابها يفيض حلاوة هادئة . لاحظت انها تغادر منزلها وتعود فى فترات مختلفة من اليوم ، احيانا ظهرا ، واحيانا مساء ، واحيانا تخرج ليلا ولا تعود الا صباحا ، مما لم أستطع له تفسيرا . غير انى علمت فيما بعد انها تعمل ممرضـــة فى مستشفى . امها قالت متبسطة فى الحديث معى : لست أخشى عليها لا من المرضى ولا من الأصحاء اطباء كانوا أم ممرضين . فهى ــ مثل المرحوم أبيها ــ عواطفها هادئة ؛ اقصد جامدة خامدة . تصور انها اجتازت مرحلة المراهقة كأنها جبل من الثلج . زوجها سيطمئن على شرفه تماما دون ادنى مجهود من جانبــه هىء .. هىء . هىء .. زينب ورثت أيضا شكلها ــ كما ورثت طباعها ــ عن المرحوم والدها . منذ عشر سنوات مات وترك لى البنت وهذه العمارة نصيبى فى الميراث والدنيـــا .

تصرفات البنت المتحفظة بدت لى كأنها احتجاج صامت على مرح الأم وانطلاقهـــا ، لكن الانسان المستأنس فيها يتحول الى حيوان شرس اذا سمعت كلمة سوء عن أمها . سمعت صوتها يعلو أول مرة مع احدى الساكنات وأنا أصعد الســلم فى طريقى الى غرفتى فلم أصــدق ما سمعت وما رأيت . حين علمت السبب تحققت مخـــاوفى . كانت تدافع عن سمعة امهـــا ، وتدافع ــ ويا للمفاجأة ــ عن سمعتى . سمعتها تلوك اسمى لأول مرة على لسانها فبدا كأنه اسمى وليس اسمى : موجود عبد الموجود .

اذن بدأوا يتقولون ، ولعلهم يتنبأون ، فليس فى الأمر بعد شىء مما يظنون ، وأرجو الا يكون . على أية حال هـــذا ما كنت اتوقعه وما كنت اخشاه ، ولقد صح توقعى ووقع ما اخشاه . حذرتها فما استمعت لتحـــذير ، جرأتهـــا تخيفنى وتغرينى ، تقصينى وتدنينى . تهمة لها أساس وبلا أســـاس . زارتنى فى

غرفتى ، زيارةً بدت غير مقصـودةً ، وانا أعلم انها لا يمكن الا ان تكون مقصودة . كانت فى الفجر قبل أن يطرق السطح طارق . . لكن مالى اخلى نفسى من المسئولية وكأنى طوردت ووقعت دون ان أسعى الى ذلك سـعيا أخفى من سعيها وادق . فقد سبقتها ومررت بها أسألها عن رسـائل قد تكون وصـلت من البلد ، لكنى وجدت زينب بدلا منها . اجابتنى فى كلمـات مقتضبة ان شيئا لم يصل . غير انى عاودت الكرة حين حل أول الشهر ، لا لأدفع الايجار ـ فالنقود لم تصل بعد ـ بل لأعتذر لها عن عدم دفعه ، وانا ارجو دعوتها واخشاها . اخشى ما يتلو الدعوة من دعوات ، وما يتلو الدعوة من تقولات . وحين أعلنت لها أن عيون الناس مفتوحة ولا معنى من الصاق تهمة نحن منها براء كان جوابها ضحكة كأنما قلت نكتة .

يا لهيبة الجسد النسائى ، انا تلميذ قروى فى مدرسة البندر فى أول درس فى أول يوم . انا طالب قادم من الأقـاليم فى جامعة القاهرة فى اول لحظة فى اول يوم . على ان أعيش الاقدام والاحجام ، ان أتعلم وأن أعتاد : أن أكتسب شيئا وأن تظل كامنة فى أشياء ، كانت معلمتى قديرة خبيرة تستانس الحيوان البرى الوجل . اسمع طرقات على البـاب ، تفسـد متعتنا ، لا أجد الا الريح ، نواصل ما انقطع ، وانا منزلق فى الكهوف السحرية ، اخفى خوفى فى مصـدر خوفى .

البيت يطل على الساحة ، الساحة فيها مولد ، المولد فيه سبعون الف انسـان ، لكل انسـان سبعون الف يد ، بكل يد سبعون الف مداس ، بكل مداس سبعون الف شمعة . وهم يتمايلون وينشدون : عملنا المحظور ، وقع المقدور ، انت الغفور .

فى ليلة الزفاف نقلت كتبى من الغرفة العلوية الى شقة العروس ، واحتفظت باثاثى المزدوج الفائدة فى الغرفة . قدمت لعروسى بضع هدايا متواضعة : زجاجة عطر وثوب ومداس قطيفى احمر . المداس ارخصها وهو الذى نال ـ وبالدهشتى ـ اعجابا كبيرا . احتضنته وقبلته ، والآن ادركت اية نبوءة مشئومة كان يحملها اعجابك يا عروسى . اما والدى فقد خشيت أن أبلغه .

للغرفة باب ، للباب ثقب ، للثقب مفتاح . كانت حريصة تغلق الباب وراءها بالمفتاح ، وكنت أكثر حرصا فأبقى المفتاح فى الثقب يسده ويسد من ورائه عين زينب اذا أرادت تلصصا . أين المهرب من عيون الناس . أغلقنا عيون الغرباء لنفتح عيون زينب .

زينب تعودت أن تحمل معها نسخة من مفتاح البيت لاختلاف مواعيد عملها . بعد الزواج استمرت على ما تعودت عليه حتى لا نوقظ شكوكها وهى التى وصلتها همسات الناس . ترك المفتاح ، مفتاح باب البيت معها ، خط دفاعنا الأول ، ترك المفتاح ، مفتاح باب الغرفة فى ثقبه ، خط دفاعنا الثانى . نقط الضعف واضحة فى الدفاعين : من الأول تستطيع أن تتسلل ، من الثانى تستطيع أن تفجأ وتفجع .

المداس وجدناه عند باب الغرفة ، وعويل النساء وصراخ الأطفال فى أسفل الحارة . واللذة الآثمة تحشرجت ، والذعر .. اذن فقد ثقبت الباب بأذنيها ، رات بهما ما حجبناه عن عينيها . فى التحقيق تبين ان زينب القت بنفسها من فوق السور ، سور السطح ، السطح الذى به غرفتى ، حافية القدمين ، جاحظة

العينين . ولول الغرباء المزدحمون : هـذا من هول الصـدمة ، صدمة الوقوع من أعلى الى اسفل .

سر المداس لم يعرفه أحد غيرى ومديحة . حاولت أن اضعه فى قدمى عروسى وهى جثة نودعها القبر ، غير أن أمها ـ وقد برقت عيناها بلمعان مخيف ـ أبت الا أن تحتفظ به لنفسها . عندما اقبلت المعزيات مساء وجدنها تضم المداس الى صـدرها وتقبـله .

فى اليوم التالى طردتنى من شقتها . كنت أنوى الانسحاب الى غرفتى العلوية دون انتظار أية اشـارة منها . عنفها روعنى وحجتها ادهشتنى :

ـ زوجتك ماتت وبقاؤك فى شقتى خلوة محرمة .

حسبت اننى اتلكأ فصاحت :

ـ اخرج بالحسنى والا استدعيت الشرطة .

وكما انزلنى الخوف أصعدنى الخوف .

تعودت ان امزق اوراقى اولا باول ، خطـابات والدى ، صورة المرحومتين زينب ووالدتها مديحة ، مذكرات أساتذتى ، حتى كتبى الدراسـية والدفاتر التى اعد فيها دروسى لألقيهـا على طلبتى تخلصت منها ، فقد يكون فيها ما يديننى وانا لا ادرى . غير انى عثرت بمحض المصـادفة على محاولة شعرية فلسفية افلتت من التمزيق مع انها تستحق الدمار ، لأنى أولا لا اعرف شيئا عن أوزان الشـعر ، ولأنها ثانيـا لا تدل على اية موهبة . واعتقد انهـا لهذا السبب كانت المحـاولة الأولى والاخـيرة .

اما تاريخ كتابتها فلا أذكره . على اية حال سأمزقها بل ساحرقها لتلحق بما سبقها .

فى ليالى المولد خرجت مديحة منفوشة الشعر ، مرقعة الجلباب ، حافية القدمين . فى كل يد وضعت مداسا ، فى كل مداس وضعت شمعة ، بكل شمعة اشعلت شعلة . ومضت تهمهم بكلام لا هو بالهمس ولا هو بالصياح : عملنا الآثام وعينك لا تنام ، فانتقمت يارب الأنام شر انتقام . ثم تصرخ : رايتكم . . ضبطتكم . . انت وهو .

الغموض على شفا الوضوح ، السر يوشك أن يصبح فضيحة . كلما ولجت الحارة ، كلما صعدت العمارة ، قدمت قدما واخرت أخرى . انفض المولد والشيخة مديحة لا تزال تجوب الشوارع . فوق راسها صينية ، فى الصينية المداسان ، فى المداسين الشمعتان ، بالشمعتين شعلتان . والناس فريقان : فريق كلما راوها يتعجبون ويعجبون ، ويتهيبون ويتبركون . وفريق كلما راونى ــ وبدون أن يرونى ــ يتقولون ويتهامسون .

مخاوفى تركزت الآن فى المداسين ، فى لونهما الأحمر وملمسهما القطيفي وما تبقى فيهما من رائحة القدمين وأصابع القدمين . رأيتهما فى منامى يتحركان ــ كأن انسيا يضعهما فى قدميه ــ ويتجولان بحرية على جدران غرفتى ، وكلما بلغا سقفها سقطا فوق راسى فانفضهما بعيدا وانا انتفض خوفا ليعاودا رحلتهما . استيقظت مفزوعا لأكتشف ان البول احتبس فى مثانتى .

لو انتزعتهما لانتزعت سرى من هذه المراة المجنونة ، تهددنى كلماتها كل يوم بما يفضح دون أن يفصح . هممت أكثر من

مرة ـ عندما كان يتصادف لقاؤنا وأنا أخوض غبار الحارة صيفا وأتدحرج على زلقها شتاء ـ ان أهجم عليها لأنتزعهما منهـا ، لكنى كنت اخاف خوفى ، فيصبح الغموض واضحا والسر فاضحا . لو كانت تتركهما فى شقتهـا لحظـة لتسـللت اليها وسرقتهمـا لكنها ما كانت تخرج الا بهما ولا تعود الا بهما .

ذات مساء طرقت بابها ، عنـدما لمحتنى جحظت عيناها وصوتها كالفحيح : اياك أن تقترب . . انا اعرف لمـاذا جئت .

ثم اسرعت الى كنبتهـا الممتدة فى الصـالة حيث يرقـد المداسان ، واختطفتهما واحتضنتهما وأنا اتصنع الهدوء ، محاولا ان اجعلها تهدأ بدورها وهى تسمع اجابتى :

ـ جئت اعلن تنازلى عن نصيبى فى الميراث .

ـ كـذاب .

ـ واعلن انى عثرت على غرفة اخرى .

بوغتت لحظة ، ثم لوحت بالمداس وهى تقول :

ـ لن تهرب من عين الله .

أعادت المداس الى حضنها وهى تحرص على أن تظل المسافة ثابتة بينى وبينها على حين كنت اقوم بدراسة الموقف وأنا أواصل حـديثى :

ـ وجئت أسدد جزءا مما على من دين لك .

ـ ديونك كثيرة وانت مفلس .

مددت يدى بالنقود ، فمدت يدا تتناولها بهـا وتشـبثت الأخرى بفردتى المداس ، هـذه فرصتى ، هـذا المداس سرى

وعدوى ، خوفى وهمى ، انا الذى اشتريته وأنا الذى أهديتـه فهو منى والى . لمـاذا اذن يسـتولى عليـه غيرى يهـددنى به ويفضحنى .. دفعتنى فى صدرى بيد واستماتت بقبضتها الأخرى على المداسـين . طالمـا قبلت هاتين اليدين رخصتين بضتين طريتين ، والآن نبتت لاحداهما مخالب لبؤة تدافع عن شبلها ، والأخرى لمحت ظهرها قريبا من عينى نافر العروق كأنما أراه من خلال مجهر ، قريبا من فمى حتى أغرانى أن أعضـه بلَ أقضمه . لكن يبدو الا سبيل الى انتزاع كنزها المسحور من مجرد معركة محلية مع اليدين ولا سيما أن صراخها يوشـك أن يفسد خطتى . اضرب الرأس تتراخ اليدان . هل مضت ثانيـة ؟ هل مضت ثانيتان ؟ المداس فى يدى ، سرى معى . أقفلت بابها خلفى وهرولت الى غرفتى . كنت واثقا أن أحدا لم يرنى لا على السلم ولا على السطح . وها هو ذا المداس الملعون أمامى أتأمله جيدا لأستوثق من وجوده معى . لكننى اكتشفت ــ ويا لهول ما اكتشفت ــ أن وجوده كله لم يكن معى . كانت هناك قطعة صغيرة منه ــ من المداس الأيمن ومن الخلف من جهة الكعب على وجه التحديد قد انتزعت حديثا منه بلا رحمـة . لاشك أننى أرغمت على تركها ــ دون أن أتنبه ــ فى قبضتها وأنا أهرول خائفا فرحا من شقتها ، حاسبا أن انتصـارى عليها كان كاملا ، وأننى سلبتها نهائيا سلاحها ضدى . ولكن ها هى ذى ما تزال تحتفظ فى اغفاءتها بجزء من الكل الذى حسبته معى .

لمسته فبدا أقل نعومة ، فبعض وبره قد نحل ، شممته فاذا برائحته الآن رائحة شمع ذائب أو محترق مختلط بعبق بخور أو عطور . لم يكن هنـاك وقت للتردد أو الاختيار ، على الآن أن أتخلص من بقايا هـذا العدو الملعون قبل أن تستيقظ المجنونة

من نوبتها وتدهمنى مطالبة بما لا حق لها فيه . ولئن كان المداس فى يدها عدوا خطرا ؛ فهو الآن فى يدى عدو اخطر .

فى اثناء مرضى ظهرت فردتا المداس الحمراوان تطاردننى على جدران غرفتى من جديد . مرة فى الفجر واخرى قبل حلول المساء . وبرغم انى رأيتهما بوضوح شديد فى المرتين حتى انى تأكدت من القطعة المنزوعة من الفردة اليمنى من الخلف ومن جهة الكعب تماما ، الا اننى ادركت أن هذا قد يكون من تأثير الحمى ، مجرد هذيان ، وعلى أن أتشبث بواقع غرفتى : جدرانها وبلاطها وسقفها ، المنضدة والكنبة والمقعد وكوب الماء . فقد خشيت ان أفقد صلتى بهذا العالم فلا أعود اليه ابدا .

يومها اكتشفت أنى اخترت السرطان مرضا أخيف به نفسى وأخاف منه على أحبائى . وكان اختيارى لهذا المرض لميزات ينفرد بها من دون جميع الأمراض . فهو يكاد يكون الداء الوحيد الذى لم يكتشف له الطب سببا ولا علاجا حتى اليوم ، وهو يصيب جميع الأعمار ، ويتسلل الى الجسم فى أى مكان ؛ فكل الم ، بل مجرد اضطراب بلا الم ، قد يكون انذارا بطلائع هذا الداء الخبيث . اما آلامه – فى معظم حالاته – فهى أفظع الآلام وأهولها .

يومها تضاعف احساسى بوحدتى ، يومها اكتشفت اكتشافين: اولهما انى لا أهاب الموت ، وثانيهما أن عدم تهيب الموت لا يعنى – كما كنت اتصور – عدم تهيب ما قبل الموت . فلقد تضاعف خوفى من الألم ومن الحاجة ومن كرامتى أن تهان ، ولقد تماثلت يومها للشفاء سريعا الا أن شبح المرض لا يزال يرعبنى ، ويرعبنى منه ان يقودنى الى عالم الأوهام الهذيان .

يومها اكتشفت أن مخـاوفى امتدت لتشـمل كلّ جوانب حياتى : خوفى من ان يقعدنى مرض لا قيـام منه ، أن يموت والدى او والدتى ، أن يكتب عنى ناظرى أو مفتشى تقريرا سيئا .

بعد تماثلى للشفاء اكتشفت أن الوهم فى مخـاوفى تجاوز الواقع ؛ مرضت وشفيت ؛ تعرض والدى لحادث ثار فى البـلد ومنه نجا ، لم يسىء الى ناظر ولا مفتش ، ومنذ أطلق المحقق سراحى منذ مدة طويلة ، ما استراب فى انسان ولا استوقفنى ولا استجوبنى محقق . اذن فلأنفض الخوف ولأتحرك واثقـا مطمئنا ، يومها جرؤت وقمت بزيارة زميل فى بيته ، وتناولت عشائى فى ارقى مطاعم المدينـة ، وعند عودتى الى غرفتى جرؤت وفتحت نوافذها ونزعت المفتاح من ثقب الباب ، واستغرقت ـ لأول مرة منذ سـنوات طويلة ـ فى نوم عميق بلا أرق ولا قلق ، يداعبنى ضـوء القمر وينعشنى نسيم الليل .

غير أنه حدث بعد تماثلى للشفاء بحوالى أسبوع أن وصلتنى برقية تعلننى نبأ وفاة والدى فجـأة وبلا مقدمات ، لحظتهـا اصابنى ندم عميق ، ادركت أن خوفى عليه كان يحميه ، واننى آثرت طمأنينتى وتخليت عن حمايتـه ، فأتحت للموت فرصته الذهبية ، غافلنى واختطفه منى ، هكذا عوقبت على طمأنينتى ، يومها أدركت أن مكافأتى على خوفى الا يتحقق شىء مما أخـاف منه ؛ فاذا تحقق كان وقعه ابسط بكثير مما ضخمته التوقعـات والأوهـام .

من يومهـا اذا اطمأننت خفت واذا خفت اطمـأننت ، اذا اطمـأننت تشاءمت واذا خفت احتميت وحميت ، من يومهـا يقلقنى الا أجد ما يقلقنى .

عندما ضربتها على رأسها وقعت وسط الصالة ، عندما دخلت مع الشرطة كانت جثتها المتعفنة متكورة فوق الكنبة . النقود التي أخذتها منى ظهر الخميس لم تكن فى قبضتها ولا مبعثرة على الأرض . بعد أيام جاء تقرير الطبيب الشرعى يقرر أن الوفاة وقعت صباح الجمعة . من يومها وانا أتحرك ما بين وسط الصالة والكنبة ، وما بين ظهر الخميس وصباح الجمعة . هـذا مكاني وهذا زماني .

لو ارتاب المحقق فى كلماتى لحظة واحدة لسردت عليه كلّ شيء ، وتركته يحدد بنفسه ـ على ضوء ما أمده به من وقائع ـ مدى اتهامي ومدى براءتي ، لكني تركت كل شيء معلقا فوق رأسي ، لا انا برئ ولا انا مدان . وهكذا أصبح يخيفني ما يخفيني .

حين اختلف مع زميل او رئيس لا اجرؤ على ان ادع الخلاف يمتد الى نهايته فيصبح شجارا أو قطيعة ، فمن يدرينى ، لعله اطلع بطريقة ما على سرى المقيت ، فيهتك فى لحظة ما بناه جدار الخوف يوما بعد يوم ، ويهدم فوق رأسي ما حصنت به نفسي عشرات السنوات ، وينزع عنى وجهى المستعار الذى أفرزته كمحار التوقع .. كغطاء السلحفاة خلال تعاقب الليل والنهار ، وتوالى الثوانى والدقائق ، فيذيع اننى موضع شبهة لا شبهة فيها . لهذا ما البث أن أتراجع قبل أن أوقظ شكوكه فينبش ماضى ليصيبنى فى مقتل . ما ازال اذكر الرعب الذى انتابنى حين اختلفت مع زميل ذات يوم ، ثم علمت أن له قريبا كان يسكن فى حارة الشيخة مديحة ، فمع انه لم يشر أية اشارة فى اثناء خلافى معه الى قضيتى ، ومع اننى اصطلحت معه فى اليوم

التالي ، الا انني سعيت للنقل من تلك المدينـة في اليوم نفسـه الذي تم فيه الصلح ، ولم اهدأ حتى نجح مسعاي .

يومها أدركت مدى ما وصل اليه ازدواج شخصيتي بسبب قضيتي ، وهو ازدواج بدت طلائعـه السرطانيـة ذات لحظـة مجهولة من تاريخ حيـاتي ، لعـله يوم اخفيت نطقي الريفي عن زملائي القاهريين ، ولعله كان قد تمكن مني يوم هبطت من غرفتي الى شقة الشيخة مديحة ، ولاشـك انه كان قد استشرى يوم وقفت أمام المحقق فذكرت له نصف الوقائع واخفيت وانكرت نصفها الآخر ، وهانذا اليوم أجدني ضحيـة صراع مرير بين رأى لا افعله وفعل لا أراه ، وخجل أكثر مرارة لأني اظهر غير ما أبطن .

عندما زارتني احدى قريباتي ذات مساء ، وهي مطلقـة تأمل في الزواج مني (وكنت أفكر ـ قبل زواجها وطلاقها ـ في الزواج منها) كانت تكشف عن مفاتنها في دعوة سافرة لا غموض فيها حتى توهجت رغبتي ، غير اني قبل أن اقطع نهاية الشـوط اليها كان التوهج قد خمد وهي تنظر الي ـ كما كنت أنظر الى نفسي ـ في حيرة وتساؤل . فقد بدا لي أنه لا يشـغلني عنهـا شاغل . وانني سعيد بأن القى مثل هـذا الاهتمام والتقدير من انثى مشتهاة ، فلا أقل من أن أبادلها تقديرا بتقدير . أما هي فقد عالجت الموقف بلباقة فائقـة فلم تبد أنها كانت تتوقع أكثر من هذا التقارب العاطفي الذي بدا في الهمسات واللمسات ، غير اني حين خلوت الى نفسي ادركت أنه لابد وأن تكون مديحة وزينب ومداسهما والذين يصرخون ويهمسون ويشيرون والمحقق .. كل هؤلاء لابد انهم ترسبوا في الطبقات الجيولوجيـة من اعمـاقي يمارسون من هناك ـ ودون ملل ـ طقوس اخصـائي السحرية لأحرم من نشوة البذر وفرحة الحصاد ، فتأكد لدي ما سبق

أن ادركته : ان ما ارغب فيه لا احققه وما أحققه لا أرغب فيه؛ وبين الرغبة التي لا تتحقق والتحقق الذي لا ارغب فيه يسط وجودي.

أما أخوف ما اخافه فهو نجاحي أو تفوقي . في العام الماضي نجح جميع طلبتي في جميع السنوات التي أقوم بالتدريس فيها . ولقد سعدت لتلاميذي ولنفسي ، غير اني ما لبثت أن اكتشفت اني ارتكبت جريمة كبرى ، عدها زملائي اعتداء شخصيا عليهم ، أقرباؤهم الى قبل غربائهم عني . لعلهم خشوا أن يقبل على تلاميذهم يتلقون مني دروسا خاصة فأحرمهم من دخل اضافي لهم ، مع اني لا أعطي هذه الدروس الا لأسباب ملحة وبطريقة غير منتظمة ومجانا ؛ وكان هذا ايضا مما يثيرهم . ارسلوا شكاوى الى ناظر المدرسة ومدير المنطقة التعليمية ووزير التربية يتهمونني فيها بانني اعطيت لتلاميذي أسئلة الامتحان قبل الامتحان .وعندما حقق معي تبين اني لست واضع الامتحان ولا علم لي بأسئلته . غير أن ما كنت اخشاه حقا أن يحدق احدهم في كثافات ماضي فيكتشف تهمتي في قضيتي فيقضي على قضاء مبرما . من يومها تعلمت انني يجب ان اظل في الظل ، والا اكشف عن حماسي أو اخلاصي ما دمت لا أستطيع التخلي عنهما ، وان انه يجب أن يرسب من تلاميذي تلميذ أو تلميذان اذا أردت أن أكون بمنجاة . غير اني ادركت يومها أيضا ــ ولحزني الشديد ــ أن قضيتي ليست رهن ارادتي ، فقد ينجح كل تلاميذي على غير رغبتي ، فتبعث من جديد تهمتي . من يومها لم أعد اميز الخطأ من الصواب ، فقد ادركت أن غيري هو الذي يقرر لي ــ ودون ان استطيع التنبؤ أبدا ــ ما استحقه من ثواب أو عقاب .

فعندما سمح لى المحقق بالانصراف لم أصدقه ، كانت نظراته كلها ريبة .. سيوهمنى بالحرية ليحصل من تصرفاتى وحركاتى على ما يديننى ، ولكن فلأكن أحرص منه الف مرة ولا احقق له ما يريد .

بقايا المداس القيتها — فى ليل ذلك الخميس وبعد ان حشوته بالحجارة — فى قاع المجرى القريب . قد يطفو فى اية لحظة فيطفو اتهامى ، أو لعل صيادا ينتشله فيفتح محضر التحقيق من جديد لتثبت القرائن أن عنقى يستحق حبل المشنقة بغض النظر عن الحقيقة التى لا يعرفها أحد ولا حتى أنا .

ولقد حاولت أن أقتل هذه اللحظة من حياتى بمختلف الطرق ، لكننى اكتشفت اخيرا اننى لا أقتل الا نفسى . اكتشفت مثلا ان معارفى فى تلك اللحظة يكونون جزءا منى — جيرانا كانوا أو اصدقاء او أقرباء — مثل ابن عمى الذى كلف نفسه ووكل محاميا عنى فى اثناء التحقيق — فعزمت على تجنبهم نهائيا ، فيعدوننى ميتا أو أعدهم ميتين ، ولقد نجحت فيما بدات به لكنى فوجئت بما انتهيت اليه . فكلما تجنبت جارا أو قريبا او صديقا أحسست أن جزءا من وجودى تساقط ، حتى لا أكاد اتعرف اليوم على نفسى . معنى هذا أنى كلما حاولت الفرار فررت من نفسى دون أن أفر من مطاردى ، ودليلى على ذلك انى نجحت سنوات طويلة فى تجنب كل من شاهد أو سمع هذه القضية فى حياتى ، غير أنى قابلت منذ أيام — ويا للرعب — محققى القديم ، ويبدو أنه أصبح قاضيا كبيرا سمينا . كان يجلس بأناقته وعطره فى صالون القطار أمامى . عندما لمحنى صاح بفرحة : هل من جديد فى قضية الشيخة مديحة ؟ حاولت أن أتوهم وأوهم الآخرين ان الحديث ليس موجها الى . غير أن

نظراته كانت واضحة فاضحة لا سبيل الى الفرار منها . فى هذه اللحظة اكتشفت أن وجودى مسجل على وجهى برغم ما نبت لى من شارب وما ابيض من شعيرات وما ارتسم من تجاعيد . همست بايجاز شديد (تجنبا للفضيحة) : لا أعرف .

استطرد وكأنه يغنى :

ـ المهم الأدلة ، لا قيمة لما انكرته فى أثناء التحقيق ولا حتى بما يمكن أن تعترف به . الاعتراف قد يكون منتزعا ، وقد يكون بدافع التضحية انقاذا لشخص آخر . المتهم نفسه قد لا يستطيع أن يحدد بدقة ـ اذا اراد ـ ما ارتكبه وما لم يرتكبه . لهذا كان المحامى اهم من المتهم نفسه فى مصير أية قضية . المحامى يثبت أو ينفى الأدلة برغم أن المتهم هو شاهد نفسه الأول . المهم ...

فأكملت معه مرددا كأنما نحن فى جوقه :

ـ ... الأدلة .

جرؤت فسألته متخابثا :

ـ اذن فهم لا يزالون فى انتظار .. الأدلة .

اجابنى مستطردا غناءه :

ـ ملفك باق ، وأن تغير المحقق والقاضى .

فى انتظار أية اضافة ، مهما امتد الزمان ونأت المسافة .

كنت أعلم اجابته قبل أن ينطق بها ، فقط كنت كمن يريد أن يتأكد من شىء يعرفه ، ومع ذلك فان اجابته أرعبتنى ، لهذا ـ ولئلا يغنى من جديد ـ قررت الا اتقدم اليه بأى استفسار

آخر ، لكنه اصر على مواصلة استجوابي : والى أين باذن الله :
آثرت لحظة ان أخفى ذلك عنه فأخفى جزءا منى عنه ، لكننى
خشيت أن تكون محطته بعد محطتى فيكتشف كذبى مما يؤدى
بى الى التهلكة . لهذا لم يسعنى الا الاعتراف بحقيقة وجهتى .
بعد ذلك حاولت أن اتجنب الحديث معه غير انه كان يرعبنى من
حين لآخر بسؤال له علاقة ــ أو لا علاقة له ــ بقضيتى .

هجرت اصدقائى القدامى واستبدلت بهم صديقا واحدا
وحيدا يقف جدارا بينى وبين ماضى احتمى به واختفى فيه . غير
انى اكتشفت ذات يوم أنه يعرف محققى القديم ، فهو قريبه
وجاره ، وقد يذكر اسمى أمامه على لسانه عرضا كما ذكر
اسمه أمامى فيسرد عليه قصتى محطما ما حاولت أن احتمى
منه به ؛ وهكذا وقعت فيما حاولت الفرار منه ، فلولا صداقتى
له ما كان محتملا ان يفلت لسانه باسمى . من يومها أدركت
انه بقدر ما يتعدد اصدقائى تتعدد احتمالات اتهامى ، فلست
ادرى ايهم على صلة بمحققى القديم ، ولا أيهم موضع شبهة
قديمة ــ مثلى ــ أو حديثة ، فيعرضنى ــ كما اعرضه ــ لمزيد
من الشبهات . مما جعلنى أؤمن أن لا سبيل الى الخلاص من أن
حياتى معاناتى ، ومجرد وجودى جوهر مأساتى .

وكان اعظم ما اربكنى حين رأى صديقى أن يكرمنى فقررت
مقاطعته . فلقد دعانى ذات يوم الى وليمة فى بيته ، وخلال
حديثه فهمت أن محققى القديم من بين مدعويه . وبينما كنت
أرتجف هلعا كان صديقى لابد يظن أننى شديد الترحيب
بما يتيحه لى من فرصة للتعرف على رجال ذوى نفوذ ، والتمتع
بمشاهدة سيدات جميلات أنيقات ، وآنسات مرحات رشيقات ،
اسكر بعبقهن وانتشى بضحكاتهن . لهذا لم يفطن صديقى ــ

وما كان يمكن له أن يفطن أبداً ــ الى ما بدأ على وجهي من كآبة سحيقة لا قرار لعمقها . ولشـــدة اضطرابي لم تواتني لباقة أو شجاعة للاعتذار . غير اني في موعد الحفل قلت لنفسي لابد أنك الآن مريض لا تستطيع تلبية دعوة صـــديقك . وهكذا قبعت في غـــرفتي مصمما على أن اتجنب صـــديقي ما استطعت حتى لا يعرضني ــ عن طيب خاطر ــ لمـــآزق اشد خطورة . واذا كنت قد نجحت في الافلات هذه المرة فمن يدريني انني مستطيعه في المرة القادمة . ولابد أن صديقي لم يجد تفســـيرا لتصرفي مما أوقعه في الحيرة تماما وربما لزمن طويل .

ذات يوم كنت أشرح درسا في علم النفس عندما فاجـــأني طالب يسألني : الحنين الى رحم الأم أو الرغبـــة في العودة الى المرحلة الجنينية (الصفحة الحادية والستون من الكتاب المقرر) دفاع عن النفس أم قضـــاء عليها ؟ ولئن تعودت أن أرتاب فيما يلقيه على بعض الطلبـــة الخبثـــاء من أسئلة ، غير أن هـــذا السؤال ــ على غير العادة ــ أثار حزني العميق حتى كدت أبكي ولا سيما انني لم أكن قد هيأت نفسي للاجابة عليه .

عندما جاء مفتشي ليكتب عني تقريره كان يضحك في ثقة . أعدت عليه سؤال الطالب :

ــ الحنين الى رحم الأم ، دفـــاع عن النفس أم قضـــاء عليهـــا ؟

اكتسى وجهه بالكآبة فجأة وهمس :

ــ انظر يا ابني ، انه دفـــاع عن النفس ، ينتهي بالقضـــاء عليهـــا .

كان مفتشا متعاطفا متفهما ، يختلف عن بقيــة المفتشــنين والنظار الذين عملت معهم ، لعله يتكلم من تجربة عاشها وليس من سطور فى الكتــاب المقرر ، لهذا لم اهتم بما يكون قد كتبــه فى التقرير عنى .

والآن ها هو ذا الليل يقبل فاشــد رتاج نوافذى جيدا ، واســد ثقب بابى بمفتاحــه كمــا ســـددته قديمــا . وانــام القرفصاء كما ينام الجنين فى بطن أمه ، ويا رعبى من الليل ، ومن كآبة الليل ، ويا لهول الأرق والقلق فى غرفتى .

هى حصنى وهى مصيدتى ، أعرفها الآن بحواسى جميعها : الوان جدرانها ونوافذها وبلاطها ، مازال ثابتا منها وما تغير . اركانها العنكبوتية تجــاه السقف وأركانها الترابية تجاه الأرض . رائحتها عندما تظل مغلقة زمنا طويلا ، وعندما أطهو فيها طعامى ، وعندما افتح دورة المياه الملحقة بها . حتى جدرانها السفليــة اعرف مذاقها وملمسها : ملحية هشة بيضاء . ترق يوما بعد يوم حتى ليفزعنى أن أجدها ذات صباح قد تآكلت تماما ، فتنهــار كل خططى من اساسها . أما أصواتها فانى آلفها تماما : أصوات خفية حذرة ، يرعبنى منها أن تنبعث من أماكن مجهولة ، تطمئننى محاولة تحديدها ؛ لعلها فأر يقضم بقايا طعام فى صفيحة القمامة ، أو لعله صرصار يمرح ويلهو فى دورة المياه . وثمة أصــوات أخرى بعيدة أو قريبة ، فوقها أو تحتها ، تتضخم فى هداة الليل وظلمته، قطان يتناجيان أو يتشاحنان ، كلب ينبح ، قدم تدب ، أشــياء تتكسر . وكما ألفت غرفتى فهى لابد قد ألفتنى بدورها ... دقات قلبى حين تعلو حتى لتشبه دقات طبل وحين تخفت حتى لتوشــك أن تتوقف ، تنفسي حين يسرع وحين يبطىء ، وهى

شاهدى على ارقى وقلقى ، وعلى انى ادخلهـا عائدا من عملى فلا اغادرها الا صباح اليوم التالى ، وعلى انى لا ازور ولا ازار .

وهكذا ـ وفى سبيل الاحتفاظ بحريتى ـ صادرت حريتى ، فاعتقلت نفسى بنفسى : عسانى أوفر جهد اعتقـالى ، وشعارى بيدى افضل من أن يكون بيد غيرى بل بقبضته ولكمته .

ملاحظـة :

قرات بحكم دراستى ـ ومن باب الهواية أحيانا ـ بعض القصص . أما تعاملى مع الكتابة فمقصـور على ما كان يطلبـه منى الأساتذة ، وما كنت أكتبه من خطابات لوالدى رحمة الله عليه الآن . وفى مرحـلة الدراسـة الثانوية كنت أكتب موضـوعات انشائية مسجوعة فاحصـل على درجات طيبة . لا ازال اذكر أول موضوع انشائى من هـذا النوع ، كان فى وصف حريق ، وكانت بدايته على ما أذكر على النحو التالى :

« فى ليلة اشتد حرها ، وعدم نورها ، سمعت أصـوات استغاثة عالية من منازل دانية ، فخرجت وانا مذعور ، وليس معى نور ، لأعرف ما الحـادث وما سبب الكارث ، واذا شرارة نار ، قد اشتعلت فى احدى الديار ، فجعلته هو والأرض سواء ، بعد أن كان متصلا بعنان السماء .. » .

هذا الى جانب قصيدتى الوحيدة الناقصة الوزن والموهبة . تلك هى كل خبرتى بعالم الكتابة ، لهذا فانى وان كنت صاحب القصـة فلست كاتبها . كاتبها هو صاحب التوقيع فى نهاية هذه السطور ، فلست من الغباء بحيث أسجل على نفسى كلمات ـ وان كان يمكن ان تدل على براءتى فهى يمكن ان تدل على ادانتى .

لهذا اخفيت عمرى وعنوانى ، اما اسمى ومهنتى فقد زيفتهما .
تلك منافذ شخصيتى سددتها كما سددت الثقب بالمفتاح قديما .
لست هاوى قصص ولا طالب مجد ، كل ما من شأنه أن يعلن عنى اتوجس منه ؛ قد يكون قرينة ضدى تضاف الى سجلى . فى الحفلات المدرسية يذهلنى زملاء يتسابقون على استعراض ذواتهم خطابة أو اشرافا على نشاط تلاميذهم ، فأشير نحوهم مشفقا : ها هم يقدمون الدليل ضـــد انفسهم بأنفســـهم ؛ ها هم يدينون انفسهم بانفسهم . لهذا أتعمد الجلوس فى الصفوف الخلفيـــة ، وحين يأتى المصورون أحرص على أن أخفى وجهى خلف الجالس أو الجالسة أمامى ، حتى لا يسجل وجودى ويصبح دليلا ضدى يوما ما . غير انى حين اطلعت على احـــدى هـــذه الصـــور ، وجدتنى اخفيت وجهى بطريقة لا خفاء فيها ، بحيث ان كل من يراها يكتشف ما حاولت الا يكتشفه ، فأدركت أنه اذا كان وجهى يعرضنى للاتهام فان اخفاءه يعرضنى لاتهام أشد . لهذا اعتكفت بعيدا عن عيون الآخرين وآذانهم وانوفهم ، فمجرد وجودى فى مكان متسع مزدحم اعلان عن نفسى ، وما يتلو الاعلان من تعرض للشبهات ، لهـــذا يربكنى ويرهقنى أن أجلس فى مقهى أو ناد ، حيث العيون اللزجة ترصدنى وتتفحصنى ، تغزونى وتشلنى ، وحيث الآذان المتلكئة التى عساها تتصيد شبهة أو شبه شبهة ، وحيث هناك دائما من يتحسسنى ويتشممنى ، على حين أجد الآخرين يتحدثون ويزعقون ويلعبون ويصفقون ويقهقهون ويشربون ويأكلون ويقبلون وينصرفون ، وانا أتســـاءل ترى أيهم المتهمون وأيهم الشهود ؛ ايهم المدانون وأيهم القضـــاة والمحققون والمدعون ، وأيهم مثلى لا هم متهمون ولا أبرياء ولا مدانون . وهكذا أصبح النجاح والشهرة وكل ما يتوهم الناس انه يفرح الآخرين مصدر حزن لى وكآبة عميقين .

فى كل عام اقول هـذا آخر عيد ميلاد لك تحتفل به قبل ان تعدم الحيـاة بلا احتفال ولا طقوس . فى كل شـهر اقول هذا آخر مرتب تتسلمه قبل أن يسحق الرجل الذى أصبحته عقابا على المراهق الذى كنته . فى كل أسبوع أقول هذه آخر مرة تستحم فيها قبل أن تدان على ما جاهدت للتخلص منه ، فبدا لهم أنك أوغلت فيه . وفى كل يوم حين احلق شعر ذقنى أقول هـذا آخر صباح تشـهد فيه غرفتك قبل أن يقتحموا عليـك خلوتك . وفى كل عام ، وكل شهر ، وكل أسبوع وكل يوم أجدنى موجودا فأحمد الله لأننى اتنفس جدران غرفتى دون أن استطيع التنبؤ ابدا بمصيرى فى اللحظة التالية ، واللحظة التى بعد اللحظة التالية . وكلمـا احتفلت بعيد ميـلادى ، وتسلمت مرتبى ، واستحممت وحلقت اقول : ها انت ذا الآن قد اصبحت مهيـا لاستقبال اللحظة التى تأتى ولا تأتى لكنها ستأتى . وهكذا يجدد خوفى كله دورة زمنية شبابه لا يهدأ ولا يصدأ .

ولكن حتى اذا اسـتطعت ونجحت واحتفظت بخـلوتى فى غرفتى ، فانى ادرك جيدا ان وجودى الذى بدأ فى أول كلمـة فى أول سطر قد اشرف على نهايته لأصبح مجرد ذكرى تم التعرف عليها لبضـع لحظات ، كأنما فى اثناء وقوع زلزال أو غـارة جوية أو تحقيق فى جريمـة خطيرة ليضيع بعد فترة ـ قصرت أو طالت ـ فى زحام الأحياء والأموات .

ملاحظة بعد الملاحظة :

انا خائف اذن انا غير موجود .

يوليـو ١٩٦٩

نظرية الجلدة الفاسدة

المقدمة :

لم اتنبه الى وجوده الا حين تحرك القطار وانصرفت عن التطلع من نافذته لأراه جالسا أمامى على المقعد المقابل . ومنذ لمحت عيناى عينيه كان واضحا أنه يتلمس وسيلة للتحدث معى ، ولم اكن أقل منه رغبة . فقد ركبت بعد ظهر اليوم من محطة اسيوط ، وقرات الصحيفة اليومية ولم يبق أمامى الا أن احدق تارة فى الجالسين وتارة فى الحقول وأعمدة التليفون التى تهبط وترتفع وترتفع وتهبط وهى تركض الى الوراء . من محطة المنيا ركب ، وما أن تنبهت اليه حتى حيانى فى ألفة ، ثم استعار صحيفتى ، ثم سألنى عن الوقت ليضبط ساعته .. الى أن وجدت صوته يعلو ووجهى يقترب من وجهه محاولين التغلب معا على ضجيج القطار . حينا أفلح فأميز صوته ، وحينا يختلط صوتانا بضجيج القطار فلا أعرف هل هو صوته أم صوتى الذى أسمع .

... هل تعرف نظرية الجلدة الفاسدة ؟ أنا أقرأ كثيرا فى الأدب وفى العلوم الطبيعية وأحب أن اطعم هذا بذاك . تقول

انك تحب القراءة ايضا ؟ هذه مجاملة كريمـة منك يا سـيدى . نظرية الجلد الفاسدة هى أن تقام أجهزة تكلف آلاف الجنيهات لسحب المياه وترسيبها وترشيحها وتعقيمها ومد آلاف الأمتـار من الأنابيب لتصل أخيرا الى منزلك ، ولكن جلدة صغيرة فاسـدة فى صنبور بيتك تعـكر عليك طمانينتك وتجعل من تلك الميـاه المرشحة المعقمة تهديدا لك . انت لا تفهمنى يا سيدى ، هـذا ظاهر فى عينيك . خذ مثلا ما وقع فى قريتنا ...

... فى قريتنا مثلك يا رفيق جلستى فى رحلتى ، واضح من ملابسك ـ ثم من حديثـك ـ أنك لا بالقروى ولا بالمدنى . تجاوزت القرية دون أن تصل الى المدينة . فها أنت ذا ترتدى جلبابا فوقه معطف . فى معصمك ساعة. لك شارب خفيف. عارى الراس وان كان يغطيها شعر اختلط اسوده بأبيضه ، يشى بانك تجاوزت الخمسين . لو قابلتك منذ عشرين عاما لكان على راسك طربوش بلا شك فمكانه ما يزال محفوظا . فى عينيك دهشة . بك بساطة القروى وجراة ابن المدينة .

البرهـــان :

... فى قريتنا مثلا دخلت الكهرباء ومياه الشرب النقية ، وبها وحدة مجمعة فيها مدرسـة ومستشفى ومشرف اجتماعى ومرشد زراعى ، ولكن ... وابتلع لعابه وابتسم .

... يبدو أن فى قريتنا جلدة فاسدة . ليس يكفى أن نقيم بناء ونحضر أطباء ومدرسـين ، لابد أن تكون الجلدة جيـدة وصالحة الاستعمال . سأقص عليك قصة مدرستنا ، بل خـذ الكهرباء أولا على سبيل المثال .. ركبت الأسلاك والمصابيح فى طرقات قريتنا وبعض منازلها ، وتشاجر الناس كل منهم يريد

مصباحا من مصابيح الطريق أمام بيته ، فهـذا دليل من احدث طراز على الجاه والنفوذ . هذا جميل ، نعم جميل ، لكن ـ والى ان تصل كهرباء السد ـ وضع مولد كهربائى مؤقت له طاقـة محدودة .. هل تفهم جيدا فى الكهرباء ؟ انا قرات عنها الكثير فيما قرات من علوم طبيعيـة حتى كونت نظريـاتى الكهربيـة الخاصة .. المهم انه حدد عدد المصابيح فى كل بيت ، غير أن أهالى قريتنا ـ لا سيما القادرين الذين استطاعوا ادخال الكهربـاء فى بيوتهم ـ لا يعبأون بالتعليمات ولا يصدقونها . تلك هى الجلدة الفاسدة يا سيدى . ما ان يقـام فرح أو مأتم حتى يضـاء أكثر من مصباح لم يسمح به ، وماذا تكون النتيجة ؟ يحترق المولد ويعم الظلام قريتنا ، ولا يتم اصـلاح العطل الا بعد أسابيع . فالاصلاح غالبا ما يحتاج الى عامل فنى أو قطع غيـار ، هـذا وذاك لا يتوافران الا فى المركز ، والنيـل بيننا وبين المركز .. فقريتنا على الضفة الشرقية والمركز على الضفة الغربية . وهكذا تضاء قريتنا أسبوعا لتظلم أسابيع .. تصور .

خذ أيضا مسألة المياه النقية .. ما رايك فى أن القليلين هم الذين يستخدمونها حتى اليوم مع أنها من طلمبات بجوار بيوت القرية مباشرة ؟ أما الأكثرية فما تزال تفضـل ملء الجرار من النيل حيث شاطىء رملى يحتاج خوضه الى ربع أو ثلث الساعة على الأقل ، تصـور .. أما انا فقد أكتشفت حلا وسطا ، ليس بين الأقلية والأكثرية فى القرية بل بين الأقلية والأكثرية فى بيتى ، أعنى بينى وبين زوجتى ، هاهاها .. المـاء النقى للغسـيل والأستحمام ، أما ماء النيل فللشرب ، نعم للشرب لأن السيدة زوجتى تصر على أن ماء الطلمبة غير سائغ ، أما ماء النيل فهو بخيره .. تصور .. خذ أيضا مدرستنا أقصد أولا مستشفانا .

جذبت محاضرة الرجل أسماع بعض الجالسين وان كانوا لا يتابعون الحديث بانتظام بل ينتبهون الى فقرات منه ثم يبدو أنهم ينشغلون بأحاديث جانبية أو بالانطواء على أنفسهم . كانت الى جانبنا سيدة ميؤس منها أن تنضم الى جمهوره ، مشغولة بطفلها ، يرضع حينا ، يبكى حينا ، تغير ملابسه الداخلية حينا ثالثة . ربما قد ناله شبه ارتياح حين غادرت القطار فى محطة مغاغة ليحل محلها شاب ــ لعله طالب جامعى ــ لا يشغله عن الاصغاء شاغل .

خذ أيضا مستشفانا .. لكم فرح بها أهل قريتنا لأنها ستوفر عليهم مشوار المركز وعبور النيل بمرضاهم اذا سمحت حالتهم ، أما اذا لم تسمح فأمرهم الى الله والى حلاق الصحة .

فى أول الأمر أتانا طبيب فى حوالى الأربعين ، قال عنه أهل قريتنا انه لابد وأن يكون فى الأصل ممرضا ثم دخل كلية الطب على كبر .. سكن المركز ، مشغول بأسرته هناك . يأتينا ساعة واحدة فى الصباح .. ليته كان يأتى كل يوم هذه الساعة ، يومان فقط أو ثلاثة أسبوعيا . ليته كان يأتى هذه الساعة بانتظام فى الأيام التى يشرفنا فيها بزيارته .. مرة فى العاشرة وأخرى فى الحادية عشرة وأحيانا فى الثانية بعد الظهر ، تصور .. على المرضى أن ينتظروا وهم وحظهم . المفروض أن يكون هناك طبيبان فى الوحدة ، لكن يبدو انه لايمكن الا اقناع طبيب واحد فى وقت واحد بالعمل فى قريتنا . المهم شكاه الأهالى الى رؤسائه دون جدوى ، حتى كانت ليلة لدغت فيها حشرة مجهولة يقال انها « الدفانة » ، هل تعرفها ، لا ليست عقربا ولا ثعبانا ، أنا لم أرها انما وصفوها أمامى فاذا هى أشبه بالسحلية . يقال انها اذا أحست بالخطر دفنت نفسها فى الأرض فلا يظهر لها أثر ..

المهم أنها لدغت ابن الشيخ عبد الحفيظ ، شيخ من شيوخ قريتنا له مكانته ونفوذه ، فأسرع به أبوه الى الوحـدة حيث قـامت الحكيمة الموجودة باسعافه وحقنه حقنة مضادة لسم العقرب ، غير أن الشاب فاضت روحه بعد ساعات قبيل الفجر ، وقيل لو كان الطبيب موجودا فربما تم انقاذ الشاب ، وقد لايكون هذا صحيحا والله اعلم . المهم ان ضجة الأهـالى وصلت هـذه المرة الي آذان المسئولين فنقلوا الطبيب ، الى أين ؟ الى قرية اخرى ، وربما الى ترقية .

جاءنا طبيب آخر ، بخـلاف سلفه تماما . شاب صفي متحمس للمهنة : قرر أن يقيم فى الوحدة رغم انقطاع الكهرباء معظم الأيام ، ورغم كثرة البعوض الذى لم يألفـه ، لا يفارقها الا ظهر الخميس ليعود صباح السبت . كان مثاليا ـ أو هكذا كان على الأقل فى نظرى ـ حتى أنه كان يرفض أن يقبل قرشا واحدا ، ولو استدعى للكشـف على حالات فى بيوت القرية . كان منظما فى عمله فثمة ساعة للمرضى من السيدات والأطفال ، واخرى للرجال ، وثالثـة لحقن المرضى بالبلهارسـيا بالطرطير وهكذا .. فساعاته فى النهار الواحد صـورة مصغرة لأقسـام المستشفى الكبير بالمركز .. لكن طبقا لنظرية العبد لله ، نظرية الجلدة الفاسدة يا سيدى ، بدأ الناس يهمسون أولا ثم تحول الهمس الى أصـوات مرتفعة : ان الطبيب لا يبيت فى الوحـدة حبا فى عيون الأهـالى ، بل حبا فى عيون الحكيمة ، وهذا مما تأباه عليهم رجولتهم ، وكرامتهم وشهامتهم .. اسمها عايدة ، كانت حلوة حقا ، أهـلا للحب حقـا .. انا لم اكن أصغى الى هـذه التقولات ، كان مصـدرها الرئيسى عبده افنـدى أمين المخزن ومحمود أفندي مساعد المعمل ، أما العاملات بالمستشفى كالمرضة

ومساعدات المولدات ، فلم أسمع أنهن تفوهن بشيء . وهذا هو سر شكى . لقد درست علم النفس قبل ان أهجر المدرسة الثانوية او تهجرنى ، ثم واصلت قراءته بعد ذلك حتى كونت لى نظريات مدونة فى كراسات قد أطلعك يوما ما ، اهمها النظرية الكهربية الجنسية .. كل رجل عندما ينظر الى انثى تخرج من عينيه أشعة كهرطيسية اى كهربية مغناطيسية ، تخترق ملابسها وتنجلب الى جسدها فتجذبها الى الرجل . هذا هو تفسير الجاذبية الجنسية ، وتتناسب درجة توصيل هذه الكهرطيسية تناسبا طرديا مع جمال المراة وخفة دمها ، كلما كانت أجمل أو أخف دما كانت موصلا جيدا ، وتتناسب تناسبا عكسيا مع عمرها ، كلما تقدمت فى السن اصبحت اردأ توصيلا .. هل تعرف انى من خلال أدق العلاقات بين الرجل والمراة توصلت الى نظرية فى الخير المطلق ؟ فالخير المطلق هو ما تقوم به من عمل بسعادة تساوى تماما سعادة من يتلقى هذا العمل ، هو العمل الذى فيه تؤكد ذاتك وتؤكد غيرك فى الوقت نفسه ، فتصبح سعادتك وسعادة غيرك فعلا واحدا ، بحيث لا تدرى هل انت تحقق رغبتك أم رغبة غيرك فلا تكون هناك سوى رغبة واحدة تتحقق . اذا حدث هذا بين الفرد والفرد كان هو الخير المطلق ، فاذا حدث بين الفرد والجماعة ، كما فى حالة الفنان أو العالم الذى يسعد بعمله وفى الوقت نفسه يسعد الآخرين ويفيدهم فهوما وراء المطلق ، أما اذا حدث بين جماعة وجماعة كأن يكون بين دولة واخرى فهو مطلق المطلق . هذه مصطلحاتى انا ، لن تجدها فى اية كتب .. لاتؤاخذنى فلست استطيع اغفال هذا التشابه - اقصد الاتصال الوثيق - بين النشوة الحسية والنشوة النفسجتماعية . هذا مصطلحى انا ايضا ، يجوز انك قرأته من قبل ، لابد أن يكون ذلك فى لغة أجنبية ثم ترجمته

لنفسك ، اما انا فلا اذكر انني عثرت به فيما قرأت . المهم انني اطلعت على اكثر من نظرية لمن يسمونهم علماء الأخلاق ، دائما كنت احس أن هناك شيئا ناقصا فيما يقولون ، أتعرف لماذا ؟ لأنهم لم يفطنوا الى قانوني أنا ، والا لأراحوا واستراحوا ، ولما وجد الخلف منهم ما ينقد به السلف .. نعم نعم .. التضحية لون من الوان الخير لكنها ليست الخير المطلق يا سيدى، التضحية ان تتألم في سبيل سعادة غيرك ، هذه درجة اقل من درجات الخير ، لماذا لا يسعد الطرفان اذا لم تكن هناك ضرورة للتضحية ؟ أما الشر فهو أن يشقيك عملك ويشقى غيرك بهذا العمل ، أقصد هذه درجة من درجات الشر ، أما أقصى درجاته فهو ان يشقى غيرك لتسعد أنت كما يحدث عندما يسعد المعتدى ـ فردا أو دولة ـ على اشلاء ضحيته ، لا يدرى أنه قد وضع بذلك اسس الشر الذى سينقلب عليه يوما ليلتهمه كما التهم هو به غيره . هذا قانون أزلى أبدى ان لم يتحقق في حياة الطغاة ـ أفرادا أو دولا ـ تحقق في حياة من يتلوهم من الأبناء والأجيال . هل تعرف أننى طبعت نظريتى هذه في كتيب منذ حوالى عشرين عاما ؛ وهنا في صحيفة اليوم ـ وعلى صفحتها الأولى ـ يقولون ان العلماء وضعوا جهازاً دقيقا في عين الأرنب الذكر ، فوجدوا أن ضغطه يرتفع كلما نظر الى احدى اناثه . لم يذكروا تعليلا لهذه الظاهرة ، أما انا فقد عرفتها وعللتها منذ عشرين عاما في كتيبى : انها الأشعة الكهرطيسية التى تخرج من عينى الذكر ارنبا كان أو انسانا . لقد ارسلت نسخة منه الى اسماعيل صدقى رئيس الوزراء في ذلك الوقت ، سأرسل اليك نسخة لو تفضلت باعطائى عنوانك . هل ترانى استطردت ؟ لاتؤاخذنى ، هذه احدى عاداتى السيئة .. المهم أننى أدركت ـ ولعلك توافقنى على ذلك ـ أن بعض الأهالى عبروا عن رغبتهم في

الحكيمة من خلال اتهامهم الموجه للطبيب . فاذا اعتبرنا العاملات الأخريات فى المستشفى لا ينتمين الى جنس النساء أو ـ طبقا لنظريتى ـ رديئات التوصيل ، كانت عايدة هى السيدة الوحيدة فى قريتنا التى تختلف عن نسائنا فيما ترتديه وفيما تكشف عنه وتخفيه ، وفى صلتها ـ بحكم عملها ـ بالرجال من أهل قريتنا : الشباب المحروم من المرأة ، والأزواج المحرومين ـ أمثالى ـ من غير زوجاتهم ها ها ها .. هىء هىء هىء .. المهم انهالت الشكاوى مرة أخرى على المسئولين فى المركز والمحافظة . والنتيجة نقل الحكيمة ونقل الطبيب لتحرم القرية شهورا من اى علاج صحى حتى يتم تعيين طبيب آخر وحكيمة جديدة ، أنت تعرف أحيانا ما تبطىء الأمور .

هدات عجلات القطار فهدات حماسة الحديث كأنما لتظل النسبة محفوظة بينهما .. بينما العرق ينضح على جبهته .. يبدو أننا اشرفنا على محطة سيقطع فيها حديثنا ذهاب الناس ومجيئهم ، وصيحات الباعة والمودعين والمسافرين . فآثر أن يتوقف عن الحديث حتى توقفت عجلات القطار تماما .. بعض الجالسين اطل من نافذة القطار يشترون طعاما أو شرابا فحجبوا ما بيننا .. نظرتى الآن اليك يا مبدد وحشتى ومؤنس وحدتى فى سفرتى قد تغيرت . لم اعد احس أنك تلقى على محاضرة بقدر ما أحس انك تروى قصصا ، ربما على طريقة ألف ليلة وليلة، قصة وراء اخرى ، كأنما لديك منها فيض لا ينتهى . فلما دوى صوت الجرس وتحرك القطار ، انجاب حجاب الناس عن اعيننا وانخفضت أصواتهم ليرتفع دوى العجلات من جديد ، بينما أصبح الطالب المجاور الآن أكثر انتباها .

... فمنذ حوالى عام وفد علينا الدكتور شنيطة . ليس

هو أسمه ، اظن انه اسم ابيه أو أسرته ، أسمه هو فؤاد ، لكننا نفضل أن نلقبه بالدكتور شنيطة ، اسم تسمعه مرة فلا تنساه .
لم يهمل قريتنا كأول طبيب جاءها ولا هو تفانى فى خدمتها كما فعل سلفه . سكن المركز ليقتل ليله بملاهى ما قبل الزواج . ابن عمدتنا لعب معه وشرب اكثر من مرة فى اندية المركز الخاصة. فى كل صباح يعبر النيل الى قريتنا حيث يقضى فيها ساعات العمل ليعبر النيل مرة اخرى عائدا الى المركز . فى هذه الساعات التى يقضيها فى قريتنا كأنما آل على نفسه أن ينتقم لزميليه المطرودين ، لا لحسابهما ، بل لحسابه ، ذلك أنه أحال الوحدة الحكومية الى عيادة خاصة له . الكشف بثلاثين قرشا ، وفى المنازل بجنيه كامل . الأدوية المجانيــة تباع . كل تحليــل له تسعيرته . العمليات الجراحية بالمقاولة . السرير فى المستشفى بنصف جنيه فى اليوم . وكان لمساعد المعمل ومعاون الصحــة والكاتب وامين المخزن والمرضــة ايضا نصيب من الغنائم : الغيار بثمن والحقنة فى العضل لها ثمن وفى الوريد لها ثمن . تقول كيف رضيت قريتنا بذلك ؟ أقول بل ان القرية هى التى طلبت ذلك ، بل أجبرت طبيبها عليه .. تصــور .. نظرية الجلدة الفاســدة التى لا تخيب أبدا يا سيدى .

فعندما وفــد الدكتور شنيطة ، كان يقبل عليــه مرضانا فيكشف عليهم مجانا ، ثم اتضح أنه لا يصف لهم ـ او لاكثرهم ـ أية ادوية ، فاذا ســئل عن سبب ذلك ، اجاب بأن الدواء غير موجود بصيدلية المستشفى ، اذن فلتصف يا دكتور الدواء المطلوب ليشتريه المريض أو اهله من صيدلية أخرى ، لكن لا ، هــذا خارج عن نطاق عملى .. لكن سلفيك لم يفعلا هذا .. انهمــا اذن لم ينفذا التعليمات والا فلماذا نقلا ؟؟ وهكذا اصبح لا جدوى

من الكشف عند الدكتور شنيطة . فلما استدعى مرة للكشف على زوجة ميهوب عبد الباسط فى البيت اعلن ان هذا ايضا خارج عن نطاق عمله فى المستشفى وعلى المريض ان يأتيه الى مكان عمله ، تصور .. ولما كانت زوجة ميهوب يهددها نزيف خطير استعطفه الرجل وقبل يديه ، ثم قدميه ، واستعان عليه بوجهاء القرية .. شيوخها وفقيهها بل وعمدتها . وأخيرا أعلن محمود مساعد المعمل ان الدكتور شنيطة قبل أن يقوم بهذا الكشف الخارج عن حدود عمله فى مقابل جنيه واحد . اما انا فقد ادركت اللعبة ، الم اقل لك اننى درست علم النفس ولى نظريات فيه ؟ .. فبعد هذه المقدمة وهذا التمنع كان هذا تفضلا وتنازلا منه .. غير أن المفاجاة الثانية حدثت بعد توقيع الكشف ، فقد وصف الدكتور شنيطة للمريضة أدوية غير متوفرة فى صيدلية مستشفانا ، اليس هو الآن خارج حدود عمله ؟ المهم كانت هذه هى البداية ، ثم اصبحت أمرا مالوفا ، حتى أن بعض القادرين من اهل قريتنا ممن كانت حالة مرضاهم تسمح بالذهاب الى المستشفى قد استدعوه للكشف على هؤلاء المرضى فى منازلهم ودفع الجنيه لمجرد أن يصف الدواء الملائم ، وأخيرا تنبهت القرية الى أن ذلك سيكلفها كثيرا ، فلماذا لا يتم الاتفاق مع الدكتور شنيطة على ان يكون الكشف فى المستشفى فى مقابل مبلغ اقل مادام المريض يريد وصف الدواء الضرورى بغير اشتراط وجوده بصيدلية المستشفى ؟ ولقد اخطأ ميهوب حين تطوع بعرض هذا الرأى على الدكتور مباشرة ، لأن الرجل ثار فى وجهه واتهمه بقلة الأدب ، فرأى عقلاء القوم أن يوسطوا محمود مساعد المعمل ، ورأت نساء القرية أن يوسطن الحكيمة والممرضة كذلك .

ومع أن أحدا لم يتفق مع الدكتور شنيطة نفسه ، ومع أنه لم يتسلم مليما واحدا فى يده حتى هذه اللحظة ـ فالأتعاب يتسلمها

مخمود ـ الا ان الاتفاق تم بطريقة شبه تلقائيــة على فئات الأجور المختلفــة .

فى هــذه الأثنــاء حدث تطور غــير ملحوظ .. الظــلام ينتشر من حولنا على الحقول وعلى تلال المقطم وراء الحقول حتى لكأننا مسافرون نحو الليل ، نسمة خفيفة هبت لتلطف من حرارة الجو وتمسح العرق عن وجه محدثى ، وقد أخذت بقاياه تبرق على بشرته فى ضــوء المصــابيح الكهربيــة الخافتــه من سقف القطار .. وشخير أحد الجالسين ارتفع حتى أيقظته طرقــات المحصل فانقطع الشخير لحظة ليعود من جديد .. وأهل القرية قد اكتشفوا شيئا فشيئا أن مساعد المعمل على اســتعداد لأن يوفر عليهم مشقة عبور النيل لشراء هذه الأدوية التى يصفهــا الطبيب ولا تتوفر فى صيدلية مستشفانا . ورحب الأهــالى بذلك طبعا ، وبدأ مرضانا يشترون من محمود ما يصفه لهم الدكتور شنيطة من أدوية ، ثم اكتشفوا أن بعضها أدوية مما كانت تعطى لهم بالمجان من صيدلية المستشفى من قبل ، وقيل ان أدويــة المستشفى نفدت وان هــذه أدوية مماثلة واختلط الأمر على الناس ، ولم يعودوا يهتمون بمحاكمــة الطبيب أو مساعديه ، حتى أفقر الفقراء كان لا يذهب الى الدكتور شنيطة الا بالثلاثين قرشا فى جيبه ، فد أصبح منطق أهل القرية انهم « يكسرون عينه » بهذه القروش . وقد أرسلنا ـ انا وبعض من ثار على هذا الوضع ـ نشكوه الى رؤسائه بالمحافظة ، فقوبلنا من أهل القرية بالاستنكار والتأنيب ، غير أن هــذا لم يستطع أن يخيفنى . لا يخدعك مظهرى فقد كنت وقتها لا أخاف أحدا . صدقنى . ولمــا عبر المحققون النيل تمسكت بأقوالى ولم أعدل عن حرف منها بينما تراجع البعض وتناقض الشهود ، فحفظت الشكوى باعتبارها كيدية .. آه .. نسيت أن أذكر أن الدكتور شنيطة

كان حريصا على معالجة وجهاء القوم وأسرهم ـ وعلى رأسهم عمدتنا ـ بلا مقابل ، ومن يومها سارت الأمور على ما يرام .

والآن استطيع أن اقص عليك قصة مدرستنا .. اغفر لى ثرثرتى ، لا احب أن اضايقك ، لن اذكر الا قصة اخيرة عنها وقعت فى العام الماضى ، والا فكيف تقطع الوقت ، لعله هو الذى يقطعنا .. هىء هىء هىء .. المهم ان فى قريتنا مدرسة ابتدائية فقط ، هذا طبيعى ، وان كان يقال انه ربما بعد ثلاث سنوات أو اربع سيفتتح بها فصل اعدادى والله أعلم . المهم ان مدرسيها ومدرساتها العشرة يسكنون المركز جميعا .. تصور .. أما ناظرها فهو من احدى قرى الغرب .. هيئة التدريس كلها اذن تعبر النيل صباحا الى قريتنا وتعود فتغادرها ظهرا ، الولد منصور فراش المدرسة هو الوحيد من أهالى القرية ، يفتح أبواب المدرسة صباحا ويأتيها بعض الأطفال ليلعبوا فى فنائها حتى العاشرة وأحيانا الحادية عشر صباحا تصور .. عندئذ فقط يبدأ مدرسو المدرسة ومدرساتها فى التوافد ، بعضهم يأتى وبعضهم لا يأتى ، وان كان الحق يقال ان ناظرهم أقلهم تغيبا ؛ هكذا تسير المدرسة بالبركة .. اما جانب المفتشين فلا خطر منه ، فسيادة المفتش لا يستطيع ان يفد الى قريتنا الا بعد الاعلان عن مجيئه حتى تدبر له هيئة التديس من يرسل له من الأهالى ركوبة على « البحر » بدلا من أن يخوض رمال الشاطىء لمدة ربع أو ثلث الساعة . أما المدرسات فلا مانع لمن يحضر منهن أن يتركن الأطفال يلعبون واحيانا يتشاجرون الى درجة التضارب وهن منشغلات بالثرثرة أو اشغال التريكو . بالاختصار مدرستنا ـ على رأى المثل ـ مولد وصاحبه غائب . الجلدة الفاسدة مرة اخرى يا سيدى . لا غرابة اذن أن ينفض اكثر الأطفال عن المدرسة ،

فأهلوهم وزراعاتهم أولى بهم . أما الحريص على تعليم طفله فيرسله الى المركز ليتعلم فى احدى مدارسه الابتدائية اذا كان له اخ فى المدرسة الاعدادية أو الثانوية هنـاك ، حيث تستأجر كل مجموعة من طلبة قريتنا شقة يتقاسمون غرفهـا كما يتقاسمون طعامهم ، يعودون كل أسبوع عابرين الى قريتنا ليأخذوا زادهم من الطعام ، ورؤية أهليهم واقاربهم واحبابهم . أما الحـل الآخر فهو ان يترك الطفل لذكائه يتكفل به فى تلك المدرسة مع الاستعانة من حين لآخر بالمدرس الخصوصى الوحيد فى قريتنا . وفى العام المـاضى استطاع ستة من الأطفال أن يواصلوا دراساتهم حتى السنة السادسة الابتدائية ، لا تحسب أنى أقصد بالمواصلة النجاح من سنة دراسية الى أخرى ، فما أسهل النجاح فى امتحانات النقل فى مدرستنا ، فنتيجتها دائما مائة فى المـائة ، انما أقصد بالمواصلة عـدم التفات الأطفـال أو أهلهم الى مغريـات اللعب أو المعاونة فى العمل وهجر الدراسـة الى الأبد . ولقد أدرك اهالى هؤلاء الأطفال ان نجـاح أبنائهم فى امتحانات القبول أمر مشكوك فيه ، فلجنـة الامتحـان لا تعقد بالقريـة بل فى المركز والمراقبون والمصححون غرباء عن أولادهم ، هنـاك لا مجـاملة ولا تسـاهل ولا حرص على أن تكون النتيجـة مائة فى المـائة فما عساهم فاعلون ؟ ليس أمامهم يا سيدى الا طريق واحد سلكه غيرهم أو سلكوه من قبل مع أطفالهم الآخرين .

فصالح احد المتعلمين القلائل المقيمين فى القرية ، كل من يتم تعليمه فى قريتنا يهجرها الى العاصمة أو الاسكندرية أو على الأقل الى المركز على الشاطىء الآخر . فقريتنا خيرها لغيرها . وقد يزور هؤلاء المتعلمون قريتهم فى أول عهدهم بالوظيفة ، يأتون أولا فرادى ، ثم يصطحبون زوجاتهم المدنيات بينما المربيـات

يحملن أطفالهن الرضع ، غير أن الزيارات ما تلبث أن تتباعد بتأثير الزوجات .. فاذا مات الآباء ، انقطعت زيارة الأبناء فيما عدا قلة تظل على اخلاصها لقريتنا . اما صالح فرغم أنه حصل على الكفاءة منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وحين كان فى العشرين من عمره ، الا انه لم يهجر قريته وان هجر مهنة الفلاحة . تزوج ابنة عمه دون أن ينجب منها . هى ترى هذا سوء حظ ويراه حسن حظ . المهم انه عمل بمدرسة صغيرة فى قرية مجاورة ، كان هو مدرسها الوحيد ، فاذا عاد منها ظهرا أنفق بقية يومه فى كتابة عرائض الفلاحين وشكاواهم كما كان ينفق جانبا من الليل فى جلساته المفضلة مع العمدة ومشايخ القرية وحلاق الصحة يتحدثون فى السياسة وغير السياسة . أما الجانب الأكبر من الليل فينفقه فى قراءة كتب السحر ومخاطبة الأرواح وعلم النفس والنظريات العلمية . ومن هنا كان أصدق أصدقائى ، بل لعله صديقى الوحيد فى قريتنا ، لا سيما منذ بترت ساقه اليمنى على اثر مرض أصابها .

فلما افتتحت الحكومة مدرستها اغلقت مدرسة القرية المجاورة كما اغلق كتاب قريتنا ، ومع ذلك لم يهجر صالح مهنة التدريس التى عشقها وعشقته . حاول اولا أن يلتحق مدرسا بالمدرسة الجديدة .. فقيل له أمامك عقبتان : عمرك وساقك ، مع أنه كان سيصبح المدرس الوحيد من قريتنا ، فلا يقف النيل حجة معه فى التأخير حضورا والتبكير انصرافا . فلما حيل بينه وبين رغبته جعل منه الأهالى مدرسا خصوصيا لأطفالهم لاسيما اذا كانوا فى صف القبول للاعدادى . وهذا ما تعلمه أهالى الأطفال الستة . اتفقوا معه أن يتولى تدريس أبنائهم جميع المواد المقررة . فكنت تراه عصر كل يوم وهو يعرج بساقه

الخشبية بين بيوت هؤلاء الأطفال .. نصف ساعة مع كل طفل يوميا ما عدا الخميس والجمعة . أما تحصيل الأجر فقد تكفلت به زوجته ؛ تمر على بيوت الأطفال يوم السوق من كل أسبوع لتجمع بعض البيض أو الزبد أو كيزان الذرة أجرا على مجهود زوجها .. هل تصدق أن شخصية هذه المراة الهمتنى احدى نظرياتى الهامة ؟ من خلالها اكتشفت أن الشخصية القوية هى ببساطة الشخصية التى لا ترى الا وجهة نظرها . أما الشخصية التى تقيم وزنا لوجهات النظر الأخرى فهى تدفع هزيمتها ثمنا لانصاف الآخرين .. انها تقيم فى داخلها عيونا للخصم . وأول ما ينطبق ذلك على صالح وزوجته فيما يقوم بينهما من خلاف ، هى لا ترى الا وجهة نظرها وهو يرى وجهة نظره ووجهة نظرها . وماذا تكون النتيجة ؟ هى تقنعه وهو لا يقنعها ، هى دائما على صواب وهو دائما على خطأ ، وهى الضحية فى النهاية، تصور .. أهالى بعض الأطفال الذين يقوم صالح بتدريسهم فقراء يتحرج من تحصيل أجر منهم ، أما هى فتصر على أن تأخذ ما تسميه « حقهما » والا فكيف يعيشان ولماذا يصر هؤلاء على تعليم أطفالهم . تصرفاتها تحرج صالح وتعجبه فى الوقت نفسه . لهذا ترك لها مهمة تحصيل هذا « الحق » حتى يريح ويستريح واعتادته القرية . ذاكرته مشغولة بدراساته وتدريسه ، أما هى فذاكرتها متفرغة لما يسميه تفاهات الحياة وتسميه هى ضروراتها . وتستغل هى تلك الذاكرة حتى فيما ينشب بينهما عراك ، فتتذكر اهاناته لها وتفحمه بذكر تفصيلات ووقائع حتى ولو كان قد مضى عليها عشرون عاما ، بينما يحاول هو عبثا أن يتذكر شيئا مما بدر من جانبها ولو كان منذ ساعات ، مما يضعف موقفه تماما ويجعل لها السيطرة فى المعركة ولحجتها التفوق . يصفونه فى القرية بأنه طيب . لاحظت أن ذلك لم يحدث

له ، أو ربما لم يتطور ويتضخم ، الا بعد أن بترت ساقه . لعله يراعى ظروف غيره لأنه فى حاجة الى من يراعى ظروفه . ولعل الطيبة يا سيدى تعبير مهذب عن الضعف . أما هو فيصف زوجته بانها قادرة ، ويزعجه أن تبدأ به حتى لتدين تصرفاته ، فاذا وقع منها التصرف نفسه بررته . يقول انها شخصية مصمته لا تنفذ اليها وجهات نظر الآخرين . هى تبدأ المعركة دائما ، فاذا ارتفع صوته محتجا مدافعا عاقبته بالصمت ، أو بتعبير أبسط خاصمته . انها تدرك شهيته للكلام ــ أو على حد تعبيرها ــ نهمه للثرثرة ، فتعاقبه بحرمانه من حاجة ضرورية له ضرورة الشراب والطعام . بل انه يحس فعلا احساس المحروم من الطعام فيتحمل الصمت يوما أو يومين ، غير أنه ما يلبث أن يحس جوعا حقيقيا للكلام معها ، لا يغنيه عن ذلك ما يثرثر به أمام الناس ، فهو لا يستطيع أن يقول لهم كل شىء ، ولا أن يفضى اليهم بهمومه وأسراره . وهكذا يشعر بالوحشة والوحدة .. هل تعرف انى قسمت حاجات الناس الى ثلاثة أنواع : حاجات ضرورية لوجود الانسان لا يصحب تحقيقها متعة له كالتنفس ــ الا اذا كان يستنشق عطرا . وحاجات غير ضرورية لوجوده يصحب تحقيقها متعة ــ وأى متعة ــ كغريزة الجنس ، فهى ليست ضرورية لوجوده كفرد على الأقل . وحاجات ضرورية لوجود الانسان ويصحب اشباعها متعة فى الوقت نفسه كالطعام . وحاجة صالح الى الكلام كانت من هذا النوع الثالث . لا تقل انها ليست حاجة ضرورية ، فقد لا تكون كذلك بالنسبة لك أو لغيرك ، ولكن ليس بالنسبة لصالح أبدا .. لهذا فانه يجد نفسه مدفوعا الى تحطيم جدران الصمت التى أقامتها زوجته بينهما ، فيتحايل على ذلك مرة بعد أخرى مدركا من خلال قراءاته ــ وربما من خلال تجاربه معها ــ أنها لابد وأن تكون هى

الأخرى قد تعذبت بما وقعت عليه من عقاب . وأخيرا يحدث فى احدى الليـالى دائمـا أن يجدا نفسيهما يتقاربان ويتهامسـان ويتلامسـان ؛ وقد جاع كل منهما الى الكلام وغير الكلام ، وان خفتت الشحنة الكهربيـة الجنسية ـ طبعا بسبب تقدم العمر طبقا لنظريتى ، وربما بسبب معيشتهما معا وجها لوجه يوما بعد يوم ـ فاستحال ما بينهما الى علاقة لا هى بالألفة الخالصة ولا هى بالجنس المتقد ، بل هى عاطفة بين بين .. ومن يدرى فلعله لولا الصـوم الذى تصطنعه زوجته من حين لآخر ما أمكن ان يشحن من جديد ما يعمل الزمن على تفريغه بينهما .. هل تعرف أنى قسمت العمر الانسانى الى أربع مراحل ، كل مرحلة منها عشرون عاما : المرحلة الأولى استكشاف الانسـان لعالميه الخارجى والداخلى ومحاولة الوصول الى معادلة توازن بينهما ، فهى مرحلة الاكتساب والاختبار والانفعال ومعاناة الفرحة بعد الحصول والصدمة بعد الفشل . تليها مرحلة الخروج من سديمية الطفولة الى معالم الشخصية الواضحة ومحاولة الوقوف على أرض ثابتة ، فتتبلور للانسـان اهتماماته ويصبح له عمله وبيته وزوجه وابناؤه واصدقاؤه ، وزملاؤه ومعارفه ؛ بالاختصـار يتحدد مكانه من العالم . أما العشرون الثالثة فتنكسر فيها حـدة الانفعالات وتهدأ العواطف . الانسـان فى هـذه المرحلة اكثر تقبلا للواقع واكثر ادراكا الى أن تقدم العالم يسير مزدوجا فى الخير والشر على السـواء ، وتصبح هذه السنوات العشرون سجينة السنوات السابقة ، فلا فكاك مما تحدد للانسان ومما حدده لنفسه من قبل من عادات واهتمامات وعلاقات . فاذا كانت العشرون الرابعـة اصبح الانسان اكثر تفكيرا فى الموت ، حينا يتقبله ويرحب به بل ويطلبه ، وحينا يخاف منه ويقاومه بل ويعاديه ، ولعل تقبله

له ليس الا محـاولة للتغلب على خوفه منه . فهو يرى بعينيه مكونات شخصيته تموت شيئا فشيئا : تقاليد جيله وأبناء جيله : اصـدقاؤه واقاربه ومعارفه ، حتى عاداته واهتماماته يمنعها أطباؤه عنه ، أما عمله فيسلب منه لينضم الى متحف ذكرياته .. طبعا فى قريتنا تختصر هـذه المراحل كل منها وربما الى النصف ، كما أنها لا تنطبق على البعض أو على الأقل فى لحظات من حياتهم ، فأنا مثلا وان كنت فى أواخر العشرين الثالثة الا انني أحس أنني ما ازال فى العشرين الثانية ، بل احيانا ما أحس أنني فى العشرين الأولى ...

اسمح لى بأن أهمس لك بسر ما باح به صـالح لأحد من قبل : فى بداية زواجه كان يمارس الحب يوميا الا اذا حال بينه وبين ذلك حائل ، كأن يكون على سفر أو مرض أو ترغمه هى على الصوم .. الى آخر هذه الأسباب التى لابد تعرفها ، نعم نعم كل يوم ، تصـور . قوة متدفقة عارمة رعناء يتباهى بها أمام زوجته وتؤكد لها فحولته . فلما أتخمه الشبع ودب فيه الوهن تقلصت رغبته ـ لا سيما منذ بترت ساقه ـ فأصبح فى حاجة الى ما يغريه ويثير شهيته ، وكان ذلك يحدث فى ليلة الجمعـة من كل أسبوع حين يستحم فيحس بانتعاش غير عادى كأنما عاد اليه شبابه من جديد ، وكانت زوجتـه تخرج أيضـا من حمامها الأسـبوعى ليكتشف أن أنوثتها الغاربة قد استعادت اشراقها ، فزالت عن بشرتها طلائع ذلك الملمس الخشن المنتشر فى خفية وتلكؤ هنا وهناك بحيث يكاد يلمس ولا يلمس وهو يزحف ويتسلل مع الزمن يوما بعد يوم ، فاذا بجسدها قد أصبح اكثر ليونة وبشرتها أكثر نعومة وقد تضـوعت منها رائحة ندية دافئة توقظ أحاسيسه وتنتشى

بها عواطفـه ، أما الآن .. بينى وبينك الليلة الأولى لا تعدلها ليلة اخرى ، فيها لذة الاكتشـاف ونشوة الحصول والدهشة والمفاجأة وامتحان الحلم أمام الواقع ، وهو ما لا يتكرر ـ ولا يمكن ان يتكرر ـ فى أية ليلة اخرى . لهذا انا افهم زير النساء وادرك موقفه وان لم أكنه ولن اكونه ، انه يريد أن يجعل كل لياليه ليلة أولى ، لا يريد أن يتزحزح عن لحظة الاكتشـاف والحصـول ، انه يسأم التكرار ولا يطيق الألفـة ، تعلقه باحـدى النسـاء لا يحصنه ـ كما يحصن غيره ـ ضد الأخريات .. المهم اظنك تعرف الآن لمـاذا أدركت انا من خلال هذه المرأة أنه ليس هناك حق أو باطل منفصـل عن شخصية صاحبه ، بل هنـاك رأى يصدر عن شخصية قوية فيكون هو الحق ، ورأى يصدر عن شخصية ضعيفة فيكون هو الباطل . بينى وبينك زوجها صالح يحسدها على ذلك ويتمنى لو كان مثلها ، وهذا ـ فى رأيى ـ هو ضعفه الحقيقى .. بل هو يخشى ـ ولا يريد ـ أن يكون لنقده المستمر لتصرفات زوجته اثره عليها فتصبح مثله ، والا فكيف يهمل تحصيل أجره ما لم تهتم هى بتحصيله له ، وكيف ينصرف الى « ضرورات » حياته ما لم تنصرف هى الى « تفاهاتها » ؟ ولقد استوعب هـذا جيدا من تجربة سابقة له ، فصالح يعلم أن القلق من طبيعته ، ولعل أكبر قلقه أن الدنيـا ستنهد اذا لم يسر كل شىء فيها بنظام ودقة ، بينهما الهدوء ـ بل البرود ـ من طبيعة زوجته ، أقصد انه كان من طبيعتها . فكان كلمـا انتابته الأوهام سخرت منه ، ولا اقول طمأنتـه . وكان هـذا مما يثيره بالاضافة الى ما يقلقه ، فيتهمها بانها لا تشاركه همومه ، بل تضطره أحيانا الى محـاولة اخفاء وساوسه عنها . ثم يثبت أن وسوسته لم تكن الا وهما اكل من أعصابه وأن طمأنينتها تقوم على احساس أكثر واقعية . وهكذا تعود كلما اجتاحته نوبة قلق

ان ينظر فى عينى زوجته ، فاذا تلمس فيهما عدم الاكتراث أدرك ان وساوسه ليست الا مجرد توتر نفسى ولا علاقة لها بالواقع . غير أنه بدأ يلاحظ أخيرا ـ وبمزيد من الأسف ـ ان عدوى قلقه أخذت تتسرب شيئا فشيئا الى زوجته حتى أصبح يقلقها ما يقلقه ، مما جعله يفقد ـ بل يفقدان معا ـ قدرة التمييز بين الوهم والواقع . من يومها ادرك انه لا يمكن ان يستمر أسلوب حياته ما لم تستمر هى ايضا فى أسلوب حياتها . ولئن كان فى لحظات ثورته عليها يتمنى موتها أو موته ، فانه فى ساعات صفائه يزعجه هذا الخاطر أيما ازعاج ، فهما كأى زوجين ناجحين ـ ولا أقول سعيدين ـ كفردتى الحذاء يختلفان ويتكاملان . لا تؤاخذنى فى هذا التشبيه . هل تعرف انه اذا لم يتحقق هذا الاختلاف المتكامل بين الزوجين فانه يحدث أحد أمرين : اما أن يقع الفراق والطلاق ، واما أن يحدث العكس فيبهت الزوجان أحدهما على الآخر بحيث يتقاربان لا فى الطباع والعادات فقط بل فى الشكل أيضا ، نعم نعم صدقنى فان وجه كل منهما بل ربما معالم جسمه كذلك تبهت على الآخر . هل ترانى استطردت كعادتى .. المهم انه قبل الامتحان بيوم شوهد صالح وهو يصطحب الأطفال الستة ويعبر بهم النيل الى المركز حيث أشرف على تدبير مكان يبيتون فيه خلال يومى الامتحان ، واستعاد معهم ليلتها مواد اليوم التالى حتى تثاءب الأطفال فتثاءب معهم. وفى الصباح صحبهم الى لجنة الامتحان يطمئنهم ويبث الثقة فى نفوسهم وبين كل مادة وأخرى يراجع معهم موضوعات المادة التالية. وفى اليوم التالى فعل ما فعله فى اليوم السابق ، حتى اذا ما انتهى الامتحان استعاد اجاباتهم ليطمئن الى نتيجتهم ، فلما قفل معهم عائدا الى القرية كان مطمئنا الى نتيجة تلاميذه متنبئا لأهلهم بالنجاح جميعا . فلما أعلنت النتيجة صدق ما تنبأ به بل فاقت

النتيجة تنبؤاته ، كان أحد الأطفال الستة أول منطقته التعليمية كلها ؛ تصــور .. بذلك كانت مدرســة قريتنــا اولى مدارس المنطقة : نتيجتها مائة فى المــائة واحد طلبتها الأول على تلاميــذ المنطقة كلها . وذهب صالح الى تلاميذه يهنئهم فيهنئونه ويقدمون له الشربات ، اما زوجته فلا تقنع الا بما هو أكثر من الشربات .

وفى مثل هذا اليوم من الأسبوع المــاضى احتفلت المحافظة بعيدها السنوى ، قدمت فيه المنطقة التعليميــة جوائز لهيئــات التدريس بمدارسها المتفوقة وفى مقدمتهــا طبعا مدرستنا . دعى ناظر المدرسة ومدرسو السنة السادسة الابتدائية ومدرساتها ، وحصل كل مدرس ومدرسة على مكافاة قدرها خمسة جنيهات ، اما الناظر فمنح شهادة تقدير .

وحاول صالح ان يحضر الحفل فمنعوه بدعوى أنه لا يحمل بطاقــة دعوة ، كان يريد اســتغلال المناســبة لمقابلة المســئولين بالمحافظة ويجدد محاولة تعيينه بالمدرســة ، أما هم فخشوا أن يزل لسانه ويفضحهم .. آه . .نسيت أن اخبرك يا ســيدى أن الأهالى كانوا قد قدموا شكاوى ـ كعادتهم ـ فى ناظر المدرسة ومدرســيها ، وكان المحققون قــد سبق أن رأوا حفظ هــذه الشكاوى . أما الآن فقد تأكد انها شكاوى كيدية وربما وجب معاقبة مقدميها . كما بدأ التفكير فى افتتاح فصل اعدادى ولولا قلة الأطفال لنفذ الاقتراح . ولقد أبى ناظر المدرســة الا أن يعلق شهادة التقدير على الحائط خلفه فى غرفة مـ .. كتـ .. بة .. بالـ .. مد .. رسة .

تباعدت كلمات الرجل بعد أن كانت تتزاحم على شفتيه تزاحم العرق على جبيهته وعلى شعيرات شاربه ، ثم انخفضت

حتى تلاشت .. عجلات القطار هدأت من جديد كأنما توشك أن تقف على محطة ، وأبصارنا اتجهت من خلال النافذة لتدرك انه ليس ثمة محطة مقبلة .. يبدو انه عطل فى الطريق ، وأن هناك من يصلح العطل . كانت هناك اضواء كهربية قوية فبدا من خلالها العمال وقد وقفوا فى شبه صف منتظم تعلو أصواتهم من حين لآخر بغناء غير واضح ليهووا بمطارقهم على قضبان الحديد .. حتى عبرنا منطقة العطل ليستأنف القطار سرعته ويستأنف الرجل حديثه .

لا تصدق انه يمكن أن تكون الجلدة جيدة فى معمل لأبحاث الفضاء ، فاسدة فى مخزن للمكانس والجرادل . فلكى يصل علماء دولة الى القمر أو الى الزهرة أو المريخ لابد ان يكون هناك موظفون قابعون فى أحد المخازن على بعد مئات الأميال من العاصمة لا تنقص عهدتهم ـ عن اهمال أو سرقة ـ مكنسة أو جردل ، فهؤلاء أخوة أولئك وآباؤهم وابناؤهم .

سألته : ومتى يتحقق لنا ذلك ؟

فاجأنى بقوله : عندما نكف عن اخراج افرازاتنا ـ علنا وفى الأماكن العامة ـ من فتحاتنا بجميع انواعها . أيدهشك هذا القول لأنه يصدر عن ريفى مثلى أم لأنه يربط مرة أخرى بين أمرين تبدو العلاقة بينهما بعيدة فى ظاهرها وثيقة فى حقيقتها .

قلت مبتسما:

ـ هل هذه أيضا احدى نظرياتك ؟

أجاب ضاحكا :

ـ ولم لا ، فلنتفق على تسميتها « النظرية الكلية » أى أن الدولة كل لا يتجزأ ، لايمكن أن يختل تصرف دون أن يعنى ذلك

اختلال بقية التصرفات . أو ما رأيك فى أن نطلق عليها اسم « النظرية الوبائية » ، فالخلل هنا كالوباء سريع العدوى سريع الانتشار ؛ فضلا عن أن هذا الأسم يحمل صفة الشر الذى بدل عليه ، بينما تسميتها « النظرية الكلينة » لا يحمل الا صفة محايدة .

ثم كف عن الكلام ـ من تلقاء نفسه لأول مرة ـ وبدأ انه يفكر باحثا عن شيء ، حتى اذا ما وجده صاح فجأة :

ـ لكن لا ، الاسم الأول افضل لأن حياده يجعل النظرية تنطبق فى حالتى انتشار الجلدة الفاسدة والجلدة الجيدة أيضا . لاحظ أننى أدقق فى اختيار عناوين نظرياتى .

تدخل الطالب المجاور لأول وآخر مرة فى الحديث قائلا : لعل المسألة مسألة زمن ، لابد من الوقت ليقتنع الناس حتى بما فى صالحهم ، لابد من الوقت حتى تظهر النتيجة .

النتيجـــة :

ـ النتيجة يا ابنى الا يكون التعليم مجرد تلقين معلومات ، الطفل يتعلم من تصرفات أستاذه أكثر مما يتعلم من اقواله . هذا الكلام لابد اننا نعرفه من قبل جميعا . فاذا كانت الجلدة فاسدة فى المدرسة أصاب الرشح الأجيال التالية ، بل سارت الأمور الى أسوأ ، ولن يصبح الزمن يا ابنى معنا بل ضـدنا . ننقرض كما انقرض من قبلنا الهنود الحمر ، ومن قبل قبلنا قوم عاد وثمود . لقد قرات فى كل العلوم ، لكن هل تعرف ما اهمها ، انه التاريخ . يجوز انك تخالفنى ، لكن هـذا هو ما انتهيت اليه من راى ،

لو أننا وعيناه جيداً لتجنبنا كثيراً مما نقع فيه من أخطاء . صحيح أن التاريخ لا يكرر نفسه ، لكن صحيح أيضا انه يكررها . من هنا تأتى أهميته . انه يكرر نفسه فى الخطوط العريضة العامة ولا يكررها فى التفاصيل والجزئيات . ومن عنصر التكرار فى التاريخ تجىء الاستفادة منه ، ومن عنصر عدم التكرار يمكن تجنب النتائج بتجنب المقدمات . معظم من عملوا فى وحدة قريتنا نشأوا بلاشك فى مدارس من نوع المدرسة فى قريتنا . المدرسة التى تعلمت فيها أثناء طفولتى لم تكن تعرف التهاون ، المدرسون لا يتهاونون مع انفسهم ولا مع طلبتهم .

قاطعته ضاحكا :

ـ ولعل السبب انهم لا يحاولون تطبيق نظريتك فى الخير المطلق ، فهناك دائما طرف يحاول أن يستفيد على حساب الطرف الآخر ، لا يدرى انه يدمر نفسه من خلال تدميره الآخرين .

تهلل وجه الرجل قائلا :

ـ لعلك أدركت الآن نظرية الجلدة الفاسدة يا سيدى ، المهم ..

انطفأت مصابيح عربتنا .. هل تسمعنى ؟ بعض الناس يكون أفضل اصغاء اذا تعطلت حواسه الأخرى وركز انتباهه فى أذنيه .. انا لا أسمع جيدا ان لم أر محدثى ! .. حتى الراديو لا أسمعه جيدا ان لم أره أمامى . السمع عندى مرتبط بالبصر .. يبدو أننا على مشارف القاهرة .. أضواؤها البعيدة بدأت تعلن عنها فى عتمة الليل ، وصوت الرجل يعلو واضحا متميزا :

ـ أنا الأن مسافر لمقابلة المسئولين فى القاهرة لتعيينى بالمدرسة . انهم تلاميذى اصبحوا الآن من كبار الموظفين . احدهم فى وزارة التربية بالذات . توفى والده منذ أكثر من عشر سنوات ، لم يعد يزور قريتنا . عمه جارنا . معى خطاب منه . خطاب عادى فيه تحية وسلام . قلت اوصله باليد بدلا من ارساله بالبريد . ليس خطاب توصية لا لا ، انه لاشك يذكرنى ، التلميذ يذكر استاذه دائما ، اما الأستاذ .. تقول ان اسمك ايضا صالح ؟ هذا تشابه غريب ، أقول تشابه ولا اقول صدفة ، فهو ـ بلا شك ـ تدبير مقصود ممن أوجدنى وأوجدك .

عاد النور الى العربة ، وعندما لمحنى أتفرس فى قدميه كأنما لأعرف أين ساقه الصناعية علق قائلا :

ـ قبلها لم اكن اخشى شيئا ، اما منذ بترت هذه ، فقد بت اخاف شيئين : البحر والنساء .

سألته مداعبا لأبدد ما اصابنى من دهشة ووجوم : لم تكن تخشى كل النساء ؟

فهم ما ارمى اليه فقال : تقصد زوجتى ، هذه شذوذ عن القاعدة ، والخوف هنا من نوع آخر يا سيدى ، تصور لم أكن أفهم معنى قولهم ان المرأة مصدر الهام حتى الهمتنى زوجتى نظريتى عن قوة الشخصية وضعفها .

وضحك صالح ضحكته المجلجلة من اعماق قلبه .

وعندما بدأت انفض عنى غبار السفر ، وأعد حقائبى تأهبا لمغادرة القطار فى محطة الجيزة قال لى ضاحكا : لم أحدثك بعد يا أستاذ صالح عن المشرف الاجتماعى والمرشد الزراعى .

أجبته بذورى ضاحكا : عندما نتقابل فى قطار مرة أخرى..

فلما أصبحت على الرصيف ودعته من النافـذة فودعنى بعينيه المدهوشتين ، حتى اذا ما اختفى القطـار تماما ، كان دوى العجلات ما يزال يطن فى اذنى : تصور .. المهم ، تصور .. المهم ، المهم .. تصـــور .. حتى تلاشى فى ضجـة المدينـة وزحامهـا .

الظفـر واللحـم

دقت اجراس الكنيسة دقاتها الحزينات المتفرقات ، كأنها خطوات مجهدات ، وامتلأ بهو المكان بعشرات الرجال والنساء : كان الوجوم يسود الرجال ، أما النساء فكن متشحات بالسواد دامعات .. ما بين قريبات وجارات وصديقات منذ عشرات الأعوام ، بينما كان الأرغن يعزف لحنه الجنائزى .

وكان الجو حارا ، وتكاثف الأنفاس قد زاد من حرارة الجو حتى سال العرق على كثير من الوجوه ، ورائحة الزحمة البشرية تملأ الأنوف ، بينما كانت قطع الزجاج الملون بالنوافذ الحقيقية والوهمية وصور الملائكة والقديسين فى قبة الكنيسة وعلى جدرانها قد ضاعفت من رهبة المكان وقداسته ، وظل الموت يمر به .

كانت الفقيدة فى التاسعة والأربعين ، مريضة منذ سنوات بالضغط والسكر .. ولما كانت قد عاشت بضع سنين بهذه الامراض ، فقد توقع لها كل معارفها انه يمكن لها أن تعيش عشرات السنوات الأخريات . لكن حدث فجأة ـ ومنذ أربعة أيام ـ أن كانت تجلس على الكنبة فى بهو بيتها ، عندما وقعت

مغشيا عليها . وكانت تسكن شقة بالدور الثالث من عمارة صغيرة بحى الدقى مكونة من اربعة ادوار بكل دور شقتان ، وفى الحال أسرعت خادمتها فرحانة باستدعاء الجـارة التى تسكن الشقة المقابلة ريثما تبلغ ابنيها الوحيدين .. أبلغت ميـلاد تليفونيا ، فهو يعمل طبيبا بيطريا بالمدينة نفسها ، وتطوع احد الجيران ـ وغالبا كان زوج الجارة ـ فأبرق لشفيق حيث يشرف على أرض يزرعها باحدى قرى المنيا .

وسرعان ما أقبل ميلاد ومعه زوجه واولاده وبناته .. وقد ظن أول الأمر أن أمه ماتت وهمت زوجه ـ وهى ابنة أخيهـا أيضا ـ بالبكاء والصياح ، ثم تبين أن الحياة ما تزال تدب فيها ، فعدلت عما همت به . وحاول ميلاد ان يقوم بالاسعافات الأوليـة لأمه ، فلما فشل أسرع مضطربا يستدعى اخصائيا وهو يطمئن نفسه : لعلها حالة اغماء بسبب ازدياد السكر فى دمها .

اما شفيق فقد وصل وحده فى منتصف الليل ، وبمجرد مجيئه اندفع نحو امه يقبلها ، عسى أن توقظها قبلاته . وقد ترك اخوه له الغرفة عند دخوله ، فاتجه نحو فرحانة يطلب منهـا تفاصيل ما وقع . وفى اليوم التالى ارسـل يستدعى زوجـه وأولاده .

وهكذا نقلت السيدة أم ميلاد الى المستشفى ، حيث أمضت هناك أربعة أيام ، لم تنطق خلالها بكلمة ، وان كان يبدو أنهـا تعانى عذابا اليما . لعله مجرد وهم بدا لأحبائهـا والمشفقين من موتها ، ولعلها كانت تريد أن تفضى لابنيها بشىء عن نزاعهما قبل أن تسلم الروح ، ولعله كان فعلا ألمـا بدنيـا . وكانت أحيانا ما تفتح فمها ، فيبدو كأنمـا هى تلهث من الظمـأ فيبللون طرف

لسانها . وكلما حركت جفنا أو أصبعا ظنوا أن الحياة دبت من جديد ، فيدب فيهم بدورهم أمل عريض ، ويهل الجميع نحوها عساهم يتلقون همسة أو اشـارة وهم على اهبة لتاويلها واذاعتها غير ان الجفن أو الأصبع ما يلبث أن يرتخى فيخبو الأمل ، حتى ساءت حالتها وارتفعت حرارتها أول من امس .. ويبدو انها ظلت تعانى حالة النزع ثلاث ساعات ، من منتصف نهار امس حتى الثالثة بعد الظهر ، عندما وقع زلزال خفيف استمر ثانيتين قالت عنه صحف اليوم التالى ان مركزه يقع على بعد سبعمائة وخمسين ميلا الى الشمال الشرقى للقاهرة . وقد بدا ساعتها كأنما الفقيدة تريد ان تصرخ ، غير انها ما لبثت أن نكست راسها واسلمت الروح .

واتجهت ابصار المعزين الى النعش ، يدخل من باب الكنيسة محمولا على اكتاف شباب الأسرة ، وقد احمرت عيونهم وتورمت اجفانهم . وكأن الجهد يبدو عليهم كأنما الجثة زادت ثقلا بعد ما غادرتها الروح . وظل النعش يتحرك على نغم الأرغن الحزين ، حتى وصل به حاملوه الى مذبح الكنيسة حيث كان القس واقفا فى استقباله . وارتفعت نهنهات من ابنها شفيق بينما سـالت دموع ميلاد على خديه فى غزارة وصمت .

كان ميلاد وشفيق أخوين ، وحتى ستة أعوام مضت كانا أيضا صديقين ، فعمرهما متقارب .. ميـلاد اكبر من شفيق بسنتين ، وشكلهما متقارب ، ما تكاد ترى احدهما حتى تعرف انه لابد وأن يكون اخ لآخر ، وفى أول معرفتك بهما كان يختلط عليك الأمر ، فلا تعرف أيهما ميلاد وأيهما شفيق ، نفس الوجه الأسمر والأنف المستطيل الى الأمام قليلا ، والجسم المتوسط والشعر الخشن الأسود الغزير .

وفى طفولتهما كان الوالد ـ بوجه خاص ـ يطالب ميلاد بأن يكون اكثر نضجا وتساهلا وتحكما فى أعصابه باعتباره الأخ الأكبر ، ولكن الطفل كان لا يحس الا أن اخاه يتمتع ـ بحكم صغر السن ، الذى لا يريد أن يدركه ـ بما لا يتمتع هو به ، فهو منافسه الخطير فى طعامه ولعبه وفى اهتمام والديه الذى كان يستأثر به وحده : وكثيرا ما تسلل اليه خفية ليعضه أو يقرصه أو يخطف ما بيديه ليأكله او يحطمه . ويسمع امه او ابوه صرخة اخيه الفزعة فيهرول ليكشف سبب الضجة ، فان كانت امه صرخت فيه حتى ليحس انها ستحرمه حنانها الى الأبد فيأتيها باكيا طالبا منها الصفح ، واذا كان أبوه ضربه حتى يعد ــ وكثيرا ما وعد ــ بالا يؤذى أخاه مرة أخرى .

وميلاد ما يزال يذكر انه ضرب اخاه مرة ــ فى هذه السن المبكرة ــ بمفتاح على راسه ، وكان نائما مريضا قد أرهقته حرارة الحمى ، فاستيقظ فزعا باكيا ، وليلتها ضربه أبوه علقة ما يزال يذكر بسببها هذا الحادث .

وكبر الاخوان قليلا ، وأدرك ميلاد الدور الذى يطلب منه أبواه ان يؤديه ،وحاول جاهدا ان يرضيهما حتى ينسجم مع بيئته الصغيرة التى يعيش فيها ، فتعلم كيف يعيش فى سلام مع اخيه ، وكيف يقوم بدور الأخ الأكبر على خير وجه ، كما لاحظ انهم لم يعودوا يعاملون شفيق بنفس التدليل الذى كانوا يعاملونه به فى صغره ، مما خفف ما كان يعانيه من ضغط .

وذهب الاخوان معا الى المدرسة الابتدائية فالثانوية ، ولقد حدث يوما ــ أثناء الدراسة الثانوية ــ ان ذهبا فى رحلة مدرسية . وكان ميلاد يعد نفسه مسئولا عن أخيه ، ويبدو أن

اخاه اختلف مع بعض زملائه فهموا بضربه بعيدا عن أعين المشرف فتصدى لهم ميلاد ليتلقى الركل والصفع بدلا من أخيه ، لكنه استطاع فى النهاية ان يتغلب عليهم ويلقنهم درسا لا ينسونه ، ولعل ذلك راجع الى انهم كانوا فى عمر اخيه الأصغر اكثر مما يرجع الى قوة بدنية يمتاز بها ميلاد . الا انه بعد أن نفض غبار المعركة عن ملابسه واختلى بأخيه عنفه على اثارته للمشاكل وما عرضه له من أذى وهدده بابلاغ أبيه .

وكان الوالدان يحرصان فى تلك السن على أن يبثا فيهما الروح الدينية ، فكانت الأم بقدوتها تبث فيهما الدين من ناحيته العاطفية ، والأب يبثه فيهما من ناحيته الفكرية بما يثيره من مناقشات وما يقرأه لهما كل صباح من فصول الكتاب المقدس .

ثم افترقا فى مرحلة الدراسة الجامعية ، فدرس ميلاد الطب البيطرى ؛ ودرس شفيق فى كلية الزراعة . ولم تكن دراسة عن اختيار ، كان يريد أن يكون طبيبا يعالج الآدميين لكن مجموع درجاته لم يصل به الا الى مرتبة معالجة الحيوان . أما شفيق فدخل كلية الزراعة عن رغبة ، وكان مجموع درجاته يسمح له بدخول كليات أخرى ، غير انه آثر هذه الدراسة لأن المرحوم والده كان يمتلك تسعين فدانا ومطحنا للغلال باحدى قرى المنيا ، وكان يأمل ان يشرف أحد ولديه على زراعتها بنفسه بعد موته على نحو ما كان يفعل هو نفسه ، حتى نجح فى اغراء ابنه الأصغر .

وعلى الرغم من اختلاف الدراسة فقد ظلت الصداقة قوية بين الشقيقين ؛ وكان شفيق لا يجد ما يمنعه من ارتداء قميص أو بدلة أخيه اذا وجد ثيابه غير معدة للارتداء ، وكان هذا مجالا جديدا لخلط الناس بينهما فى تلك الأيام . أما ميلاد ـ وهو اكثر

دقة وتنظيما ـ فكان يغضب عندما يكتشف ذلك ، لكنه غضب ما يلبث أن ينتهى بضحكات الأخوين .

كذلك كانـا يتبادلان أسرارهمـا .. خطاياهمـا الصغيرة ومغامراتهما العاطفية .. وعندما فكرا فى الزواج لم تكن المرأة سببا فى أية فرقة بينهمـا ؛ بل على العكس من ذلك ، أكـدت أخوتهما وصداقتهما ؛ فعندما فكر ميلاد أن يخطب ابنة خاله صوفى فكر شفيق أن يخطب اختها عايدة بعده بعدة أسـابيع . وبعدها بأشهر قلائل تزوج الاخوان من الأختين فى يوم واحد ، وقام بمراسم الزواج نفس القس فى نفس الكنيسـة التى يودعان فيها أمهما الآن .

وكان القس يقرأ الآن آيات من الكتاب المقـدس ويقول : عريانا خرجت من بطن أمي عريانا أعود الى هنـاك . الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركا .. بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الأرض التى أخذت منها ، لأنك تراب والى تراب تعـود .

ولقد حدث منذ ست سنوات أن جاء جمهور مماثل الى هذا المكان نفسه ليشيع المرحوم والدهما ، وكان قد مات بعد مرض قصير ، ولمـا يمض على زواج ابنيه شهور . وبعدها بأيام دب خلاف بين الشقيقين . بدأ حول الميراث ، ولم يكن نصيب كل من الابنين موضـع النزاع بل كان سبب النزاع هو نصيب شفيق نظير اشرافه على زراعة الأرض . وكان يقوم بهذا العمل فى حياة والده ، ومع والده . وكان ميـلاد يكتفى بدخـله الطيب كطبيب بيطرى . فهو موظف حكومى فى الصـباح يكشـف على مئات البهائم قبل الذبح كل يوم ، اما بعد الظهر فقد افتتح عيادة فى

حى مترف ياتيه اهله بكلابهم وقططهم ونسانيسهم وعصافيرهم الرقيقة الملونة ليشفيها ويشفى اصحابها مما الم بهم من كرب .

ومنذ ستة اعوام مات والده ؛ فوجد ان من حقه أن يأخذ نصيبه مما تغله الأرض ، وكان شفيق يريد نصيبا اكبر ، فهى مصدر رزقه . ولم يكن يعارض فى المبدأ .. كانت التفاصيل هى موضع النزاع .

فى ذلك الوقت كان شكلاهما قد أخذا يختلفان ، ربما بسبب زواجهما وتقدم السن ، وربما استتبع ذلك ما حدث بينهما من شقاق . فالصلع اخذ يزحف على مقدمة راس ميلاد ، كما أنه اصبح اكثر نحافة مثل المرحوم أبيه ووضع نظارات على عينيه فبدا مظهره اكثر وقارا . أما شفيق فقد أنبت له شاربا خفيفا ، ومال نحو السمنة كالمرحومة جدته لأمه فبدا أقصر من اخيه ، كما اصبح كثير التدخين بحيث اسودت أسنانه وما بين سبابة يده اليمنى وأوسطها . حتى طباعهما اختلفت فبدا ميلاد أكثر برودا وأقل انفعالا ، بينما بدا شفيق عاطفيا خياليا سريع الثورة سريع الهدوء .

وهكذا تسلل الشقاق الى قلب الشقيقين .. وكان محصورا فى مسألة الأرض ، ثم أخذ يتسع حتى شمل عدم استلطاف كل منهما للآخر وما ينتمى الى هذا الآخر من زوج وأبناء وتصرفات .

وكان شفيق قد تعود أن يزور أمه مع أسرته عند انتهاء كل موسم فيأتى اليها من الصعيد محملا بالطيور والبيض والجبن والزبد ــ الذى تحوله الى سمن بمساعدة زوجه ــ وكميات وافرة من خبز الصعيد . وتستمر الزيارة اسبوعين أو ثلاثة . وعند

انتهائها يدعوها لتمضى بضعة أيام عنده « لتغيير الهواء ولأن جو الريف صحى » على حد تعبيره .

اما ميـلاد فكانت زياراته اكثر واقصر ، لا يدخل عليهـا الا محملا بالفاكهة واللحم أو السـمك . وفى كل مناسبة يقدم لها هدية مناسبة .

ومع ذلك فقد أصبحت الأم تخشى هذه الزيارات وتكرهها ، فقد كان لا يحلو لابنيها النزاع ولا تتاح لهما فرصته الا كلمـا جمعهما بيت المرحوم والدهما وأمام والدتهما :

ـ قلت اريد ايراد المطحن و ١٥٪ من صافى ثمن المحصول .

ـ غير نصيبك طبعا .

ـ طبعا غير نصيبى .

ـ يا سـلام .. هل تسمعين ، اهـذا ما انتهينا اليه بعد جلسة امس ؟

ـ الى متى تعذباننى بنزاعكما ، كانت أسرتنا مثلا فأصبحت امثولة .

وكانت جلسة أمس قد طالت حتى الواحدة بعد منتصف الليل ، وحضرها أقرباء واصدقاء حاولوا عبثا تسوية النزاع ، بينما ارهقت قوى الأم وأعصابها لمـا تبذله من مجهود جسمى ونفسى. كانت تأمل ان يظل النزاع محصورا داخل اسرتها الصغيرة ، لكن سرعان ما تحول الى فضيحة علنية يتدخل فيها الاغراب ، ويرون من حقهم أن يدلوا فيها بآرائهم .

ويعلو صوت شفيق بعض الشيء :

ـ جلسة أمس لم يكن فيها الا أصدقاؤك (فأصدقاؤه في الريف) وطبعا كانوا الى جانبك .

ـ اذن ما الذى تريده ؟

ـ مادمت ترفض نصيبي نظير الاشراف على الأرض ، اذن اجر لى نصيبك أو بعه .

ـ حتى تفرض على الايجار أو الثمن الذى تريده ، سأؤجرها او ابيعها لمن أشاء ، بالثمن الذى أشاء .

ـ اسمع .. هذه الأرض ارض أبى ، ولن أسمح لمخلوق غيرى ان يؤجرها أو يشتريها .

ـ هل تهدد باستخدام القوة ؟

ـ بل سأستخدم القوة .

ـ هل يعجبك هذا الكلام يا أمى ؟

ـ لا يعجبنى كلامك ولا كلامه ..

كان شفيق يدهش لاجوبته الرصاصية أول الأمر وهو يخاطب أخاه الأكبر بهذا اللون من التحدى حتى لكأنها لا تخرج من فمه ، غير أنه ما لبث ان اعتاد هذه المواقف ، واشاع فى قريته ان كل من يجرؤ على استئجار أو شراء نصيب أخيه فلن يستمتع بصفقته الا فى الآخرة . وكان الناس أحكم من أن يتدخلوا فى نزاع بين شقيقين فآثروا السلامة ، ولم يجد ميلاد أحدا يجرؤ على ايجار أو شراء أرضه .

وتعلو الأصوات حتى تبلغ مسامع الجيران .

ـ اذن سالجأ الى القضاء .

ـ بل الى جهنم اذا اردت .

ـ انت طويل اللسان .

ـ اخرس .. انت ما عدت اخى .

ـ سأقتلك .. ساضربك بالرصاص .

ـ احب أن ارى شجاعتك .

ويفيقان على دموع الأم وهى تتساقط ، فيخجل شفيق ، ويصمت ميلاد .. وينقطع الصياح فجاة .. ويتساءل الجيران اذا لم تكن المعركة قد تحولت الى تشابك بالأيدى .. والواقع أن كلا منهما كان يبذل جهدا عنيفا فى سبيل كبح جماح رغبته فى تحطيم الآخر . غير إنه حدث ذات مرة تطور جديد ، فقد صاح شفيق كعادته :

ـ سأقتلك .. ساضربك بالرصاص .

ـ يا آكل الأموال .. انت أجبن من ان تقتل دجاجة .

ـ أحسن لك الا تثيرنى .. لا تتحدانى .

ـ ها ها .. قديمة .. العب غيرها .

ـ انت اذن تجبرنى .. تضطرنى .

ـ ها ها ها .

ثم دوى صوت طلق نارى .

كان شفيق يريد ولا يريد أن يقتل أخاه ، لهذا فانه اصابه ولم يقتله .. وكان على مسافة قريبة منه بحيث يستطيع أن يصيبه فى مقتل اذا اراد ؛ والواقع أن شفيق لم يكن جبانا كما عيره أخوه ؛ لكنه كان ـ وهو فى قمة غضبه ـ يحب أخاه ويحب امه ؛ ولا يريد أن يتعذب ويعذب أمه بقتل اخيه . وكثيرا ما كان يود لو عاد الى أخيه وعاد اليه اخوه ، ولكنه كلما انتابه هذا الاحساس قاومه ، فأظهر عداء أكثر وكراهية أكثر ؛ كأنما يحسب هذه العواطف مظهرا من مظاهر التراجع والضعف يجب أن يتغلب عليها ، ومع هذا فهى سرعان ما تطفو من جديد ، فيشعر كأنه منفى من أرضه ؛ محروم من بعضه ، يتمنى لو لم يكن ميلاد اخاه ، أذن لقضى عليه .. ليس بهذه الطريقة العلنية التى تحمل فى بذورها رغبة فى أن يقبض المجتمع عليه ويقتص فورا منه ، بل يدبر للقضاء عليه خطة محكمة متقنة تحقق هدفه ولا تكشف عنه .. فقتل الغريب جريمة يحاسبه المجتمع عليها اذ اكتشفها ، اما قتل أخيه فهو خطيئة تحاسبه نفسه عليها حتى وان لم يكتشفها المجتمع .

لهذا أصابت الرصاصة كتف اخيه ومزقت قطعة منه ، ووقع ميلاد على الأرض وهو يضع يده اليمنى على كتفه الأيسر كأنما ليمنع تدفق الدم والألم ؛ بينما اندفعت الأم تصرخ وقد حسبت انها فقدت ابنيها فأصبحت أم قاتل وقتيل . أما فرحانة فكانت أعلى صوتا وصراخا بحيث تجمهر الجيران على الشقة ثم ما لبثوا أن اقتحموا بابها .

وبسبب دموع الأم وتوسلاتها وعذاباتها ، وصف الحادث فى التحقيق بطريقة اخرى .. فقد انطلقت الرصاصة خطأ من شفيق وهو ينظف مسدسه فاصابت اخاه .. وفى اليوم التالى

ظهرت أعراض المرض على الأم .. فلما ذهبت الى الطبيب أعلن انها مصابة بارتفاع شديد فى ضغط الدم .

وهكذا عرفت الامراض طريقها الى الأم المعذبة . قال لها ابنها الطبيب : تجنبى الانفعالات يا أمى حتى لا يرتفع الضغط ، ثم ما يلبث بدوره أن يكون سببا لانفعالها . ثم أصيبت بالسكر فاصبحت فى حاجة اكثر الى هدوء لا وجود له . ثم احتل البياض شعر رأسها .

كانت تقول ان الشيطان انتصر على السلام الذى كان يسود أسرتها ، واحست انها لم تفقد زوجها ، بل فقدت الوحدة التى كانت تجمع شمل أسرتها .. لجأت الى زوجتى ابنيها صوفى وعايدة ، فهما أختان وهما بنات أخيها ، فما راعها الا انها وجدت كل زوجة تتعصب لزوجها ؛ وكانت الخصومة قد بلغت بين الشقيقين حدا بحيث اذا التقيا فى الطريق تجنب كل منهما الآخر وكأنه لا يعرفه ، وبحيث حرض كل منهما زوجه وأولاده على تجنب الأخرى واولادها . وهكذا كان على السيدة أم ميلاد ان تشرب من كأس الخل والمر وهى ترى أعضاء جسدها يثور احدها على الآخر .

وكانت احيانا ما تحاول ان تجس النبض لتتبين مدى استعداد احدهما للصفح أو التضحية ، فتبدأ حديثها كأنما بطريقة غير مباشرة :

ــ اخوك لم يرسل لى خطابا منذ زمن بعيد ، الا تعرف اخباره ؟

ــ وهل أنا حارس له ؟

ـ هذا الكلام عيب .. المسيح قال أحبوا أعداءكم ، وهـذا اخـوك .

ـ وهل قال المسيح احبوا الشياطين ؟

ـ بل الشيطان هو الذى أفسد ما بينكما .. اسمع انك لا تحبني .

ـ بل احبك .. أنت تعرفين هذا .

ـ قلت انك لا تحبنى .. انت واخوك تعذبانني ، تعذبانني وتدفعانني الى القبر .

ـ لا تتحدثى عن القبر .. أنت ما تزالين صغيرة .

ـ لكنكما شيبتمانى .

ثم تغير نغمة صوتها وهى تحاول التأثير عليه ، وان كانت تحس ان كلماتها تنزلق عليه فلا تنفذ الى قلبه :

ـ ليست لدى الا امنية واحدة ، أن أراكما تصطلحان قبل أن أموت .

لكنها ماتت ، وها هى ذى فى الصـندوق الخشبى الثقيل يتحرك خارجا من الكنيسة وقد عاد الأرغن يعزف لحنه الجنائزى وجمهور المعزين يندفع خارجا من هـذا الجو المقبض الحار .. لتهب فى وجوههم سخونـة تندلع من الأرض والسـماء كأنمـا الشمس تريد أن تنفذ الى العظام .

وكانت تقف فى الخارج عربة ذات ستة جياد غطيت ظهورها بأقمشة بنية داكنة لتبدو أكثر وقارا فوقتهـا لفحات الشمس النارية ، والى جانبها ثمانية سائسين كأنما كانوا خدما فى قصور

المماليك ، فلما انقرض أسيادهم أقبلوا يعملون خدما لملاك الموت ، وسار الموكب الى المقبرة ــ وهى غير بعيدة ــ فى مقدمتهم ميلاد يسير فى خطوات متئدة وعلى بعد قليل منه سار شفيق مستندا الى ذراع صديق له :

كان ميلاد يفكر فى نزاعه مع أخيه .. وعظة القس ما تزال بقاياها فى نفسه .. ورغبة أمه ان يصطلحا قبل أن تموت .. ماذا يقول عنهما الناس الآن .. لابد انهم يتوقعون شيئا .. وكلمات أبيه يوم زواجه هو واخوه : انتما اليوم أصدقائى واخوتى .. هل يتفاهم مع اخيه بشأن تكاليف الجنازة .

أما شفيق فكان أكثر انفعالا وأكثر انهيارا ، يحس انحلالا فى جميع قواه الجسدية والفكرية ، وقد ألحت عليه صورة آخر مرة زار فيها أمه قبل مرضها الأخير .. كانت الخادم قد فتحت له وأبلغته ان أمه فى غرفة نومها ، وكان الباب مغلقا وان سمع بداخله صوتا كأن شخصا يحادث آخر ، فلما أنصت تبين ان أمه تصلى وهى تبكى طالبة من الله أن يهدى ابنيها ويوفق بينهما : ويومها تأثر وتعهد أمام نفسه أن يتفاهم مع أخيه فى أول لقاء له ، لكن هذا اللقاء لم يتم الا امام جسد أمه الموشك على الموت . لماذا لم يتعهد بذلك أمام أمه يومها أو يرسل خطابا بهذا المعنى الى أخيه .. لم يخطر بباله انها أقرب ما تكون الى الموت .

ومن أعلى العربة أطل ملاكان وديعان خاشعان لهما هيئة طفلين لكل منهما جناحان ، وميلاد ما يزال يسير فى خطواته المتئدة ، وشفيق قد أصبح أكثر اقترابا منه وقد انفصل عن صديقه واسترخت ذراعه الى جانبه .

* * *

وفى منتصف الليل كان آخر المعزين قــد غادر السرادق ، فبدا فسيحا مهجورا كئيبا ساطعا بعشرات المصـــابيح ، تناثرت على أرضه أعقاب السجائر وآثار الأقدام . وكان ميلاد وشفيق واسرتاهما قد صعدوا الى شقة المرحومة والدتهما . وكان على شفيق ان يبقى أسبوعا على الأقل بالقاهرة مع اسرته قبل ان يعود الى أرضـــه بالمنيا . أما ميلاد فلم يكن له فى مثل هــذه الساعة المتاخرة أن يعود الى منزله ، لا سيما وان اطفــاله قد استغرقوا فى سبات عميق ، بعد ما أرهقهم ما بذلوه من مجهود فى مثل هــذا اليوم القائظ ، وعندما دخل ميــلاد ليطل عليهم فيقرر بقاءه او ذهابه وجدهم قد ناموا ــ بعرض السرير ــ الى جانب أولاد اخيه على احد السريرين الموجودين بغرفة النوم . لم يكن هناك مفر اذن ان تنام الاختان على السرير الآخر ، وان ينام هو واخوه على الكنبتين الموجودتين بالصالة .

وكانت الصالة متوسطة الاتساع ، بها كنبتان واربعــة مقاعد من طراز فخم قديم وسجادة يبدو أنها ثمينــة لكن عمرها اليوم لا يقل عن اربعين عاما . وعلى الجدران علقت أربع صـــور ، على كل حائط صورة . أما أقدمها فكانت صورة ذات اطار خشبى بنى ضخم محفورة فيه نقوش زخرفية ، التقطت حين كان ميلاد وشفيق فى مرحلة الدراســة الجامعية . وكان الوالدان فى مقدمة الصورة ، يجلسان على مقعدين وهما يبتسمان ، ومن خلفهمــا وقف ابناهما وقد وضـــع كل منهما يده على كتف الآخر فى ود أخوى . أما الصــورة الثانية فكانت ذات اطار ذهبى ، التقطت ليلة زفاف الشقيقين فبدا الأربعة فى ثياب العرس وهم يقفون هذه الوقفة التقليدية أمام عدســة المصور . والصورة الثالثــة ، وكانت اكبر الصور حجما ، لرب الأسرة ابراهيم افندي . والواقع

انها لم تلتقط على هـذا النحو ، انما هو تكبير لاحدى صـورة مع الأسرة اجرى بعد وفاته تخليدا لذكراه . اما الصـورة الرابعة فكانت صورة بالألوان لمولد المسيح تعلن للداخلين عقيـدة سكان هـذا البيت .

وفى الخارج كانت أنوار المدينة تتناثر وتتباعد وظلمـة الليل وقتامته تتكاثف وتتضاعف ، ونسمة هواء رحيمة تهب فى رقـة ، فقد انزاح كابوس القيظ الذى جثم على المدينة طوال النهار ، وتسللت مكانه برودة لطيفة ناعمة منعشة .

وكانت فرحانة هى وحدها التى تتجول الآن فى البيت تعد طعام العشاء .

وفرحانة شهدت فى طفولتها مولد ميلاد ومولد شـفيق ، كما شهدت فيما بعد أفراح هذه الأسرة وأزماتها ومآتمها ، انفعالها على وجهها وبجسمها . يوم زواج ميلاد وشفيق كانت أولى المزغردات ، ويوم المعركة التى لا تنسى كانت أكثر الناس جزعـا وأعـلاهم صراخا ، وهى عند الموت تتصـدر النادبـات . كانت فرحانة شاهدا على هذه الأسرة .

وكانت الآن قد أعدت طعـام العشاء ، وتحـاول أن تقنع الشقيقين بالجلوس الى المـائدة ، فلم يتناولا طعاما بصفة منتظمة منذ عصر أمس ، وكانت لا تعرف على وجه يقينى سبب انصرافهما عن الطعام ، أتراه حزنهما أم هو رغبتهما عن الجلوس الى مائدة واحدة . فهى لم تشهدهما يسترسلان فى حـديث ما ، مجرد كلمات مقتضبة يتبادلانها من حين لآخر لتصريف شأن من شئون الجنازة أو المعزين . أما الزوجتان فقد بدأ التفـاهم بينهما منذ

وقع حادث الاغماء ، مقتضبا سريعا اول الأمر ثم استطال شيئا فشيئا ، وكأنما وجودهما فى هذه الشقة وهو مكان أوضح حدودا من الكنيسة والمقبرة والسرادق قد أملى عليهما هذا التفاهم ، تدفعهما اليه رغبة دفينة فى وضع حد لهذا الخلاف الذى دمر علاقتهما وسمم عواطف أطفالهما . وكان اجتماعهما معا ـ ولو على حساب لحظات النزع ـ وسيلتهما الى ذلك .. فأكلا وشربا وأكل وشرب اطفالهما ، وتحدثا وتهامسا ولعب ونام أطفالهما معا .

كان ميلاد واقفا كأنما يتأمل تفاصيل الصالة .. عبرت عيناه على الكنبة والكراسى .. السجادة ذات الألوان الحائلة .. الطعام الذى لم يمسه أحد .. وكأنما الجميع يتهيبون اللحظة .. الخبز واطباق السلطة .. الحساء .. الشوك والملاعق والسكاكين .. وكميات كبيرة من اللحم .. هل هو عشاء أسرة حزينة أم وليمة .. واستفسر ميلاد كأنما ليقطع هذا الصمت :

ـ ما كل هذا اللحم يا فرحانة ؟

ـ هذا خروف صغير ذبحته قبل أن تخرج الخشبة صباح اليوم يا سيدى .

ثم مضت تثرثر لتقطع هذا الصمت الذى اتصل :

ـ فى بلدنا عادة يا سيدى أن تذبح ذبيحة .. دجاجة كانت أو خروفا . ونجعل الخشبة تمر فوقها .

ـ ولم ؟

ـ فدية عن الميت يا سيدى .. الف رحمة عليها .. تفضل كل يا سيدى .

كانت أزحم أيام العام بالعمل لديه هى أيام عيد الأضحى ، فقد كان عدد البهائم ـ لا سيما الخراف ـ يتضاعف ، وهو يراها

تقبل على المذبح مستسلمة لمصيرها ، ومن حين لآخر كان ميلاد يشهد تمرد حيوان على مصيره . والحت عليه صورة ثور فتى ضخم اقبل على المذبح ذات يوم فأهاجه لون الدم المسفوك على ما يبدو ؛ فقطع القيد المشدود اليه واندفع يجرى فى وحشية حتى شق طريقه خارج المذبح مما تطلب الاستعانة بالشرطة ، فما هى دقائق حتى عاد مشدودا الى قيد جديد . غير انه كان ما يزال يحتفظ بكبريائه وتمرده ، وبدا له أن لهذا الثور مهابة وجلاله ، وانه لو تقدم به الزمان بضعة آلاف من الأعوام لاختير الها من بين فصيلته ، ولما قدمه قربانا الا رئيس الكهنة فى حفل دينى رهيب . ولم يشهد ميلاد ـ على كثرة ما شهد ـ حيوانا تعذب كما تعذب هذا الثور عند ذبحه . فما أن مسه السكين حتى هب واقفا على قوائمه ، والدم يتدفق أحمر قانيا حتى لكأنه لن ينقطع عن التدفق ، وسار يترنح بضع خطوات ، حتى بث الذعر فى جزاريه ، فأفسحوا له المكان وتحفزوا للقائه من جديد ، غير أن قواه ما لبثت أن خارت ، ووقع على الأرض فتجمع عليه اكثر من جزار يجهزون عليه ، ومع ذلك ظلت قوائمه تتحرك حركات تشنجيه وهو يكنس الأرض بذيله ، وعضلات بطنه ترتفع وتنخفض بسرعة ، بينما مقلتاه تحدقان فى ضراعة الى جزاريه ، وقد فتح فاه وتدلى لسانه وهو يلهث كأنما بسبب ظمأ مخيف ، أو كأنما هو فى نهاية سباق طويل عنيف ، ثم خار خوارا اقرب الى الأنين اهتزت له أرجاء المكان .. حتى استرخى ولفظ أنفاسه ...

وامس ماتت وأندته .

أما شفيق فكان يقف الآن يدخن سيجارته ـ ربما الأربعين أو الخمسين هذا اليوم فسجائره اختلطت بسجائر الآخرين ـ

وكان ينظر الى الظلمة الخارجية من نافذة أمامه فتلفحه نسمة منداة برطوبة الليل . وحفيف الأشجار التى تتناثر فى حى الدقى يذكره بوشوشة الحقول قبيل الحصاد ، واخوه واقف فى الركن الآخر من الصالة منحن الى زوجته التى اقبلت كانما هو مشغول بحديث هام يسره اليها .. كيف هو منظر اللحم عند كتفه الآن .. هل هو مشوه يحمل حتى الموت بصمة نزاعهما ؟ وتساءل للمرة الألف عما اذا لم يكن هـذا النزاع هو الذى عجل بموتها ، ورفع بصره .. فلمح صورة أبيه ... وتذكر ما قصه عليه عشرات المرات عن ابراهيم وكيف أراد الله ان يمتحنه فأمره أن يضحى بابنه ، فاطاع أمره ، وصعد على الجبل حيث ربط ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد يده وأخذ السكين ليذبحه ، فناداه ملاك الرب قائلا : لا تمد يدك الى الغلام ، فرفع أبراهيم عينيه ونظر واذا بكبش وراءه فى الغابة ، فأخذه واصعده محرقة فدية عن ابنيه .

والتقت عيناه ببقية الصور المعلقة .. تأملها صورة صورة ، واحس انه يرتد الى طفولته .. فى حاجة الى الحنان والطمأنينة ، فقد أمه .. ليس له فى العالم الآن الا اخوه .. والقى بقية السيجارة الى النافذة ، جمرة نار غرقت فى الظلمة .. ونفسه تفيض .. تفيض بعاطفة .. عاطفة جرح يريد أن يلتئم .. انه يريد أن يعبر المسافة .. أن يعبر الهوة .. أن يحطم السور الذى ينتصب شامخا بينهما .. يريد الخلاص ...

عندئذ هبت نسمة طرية هزت المصباح الكهربائى المعلق ، فرقص النور ، واتجه الشقيقان نحو المائدة ، واقبلت الاختان.. وجلسوا جميعهم فى صمت ياكلون .

ديسمبر ١٩٦١

الحـــــذاء

ليس يدري مأمون الى أى حـد هو يشـابه النـاس فى مشاعرهم .. وهل تراهم يتعلقون مثله بألم قد يطول ، أو تراهم ينسون .. وفى كل فجر يجددون حياتهم ويمضون ! انه ليلقاهم فى الطرق والترامات والسيارات فيجدهم يتحدثون ويبسمون ، وينظر الى نفسه فاذا هو كذلك يتحدث ويبسم ، فيتساءل عما اذا لم يكن وراء أحاديثهم وبسماتهم ثمة مرارة تهجع فى ركن قصى من قلوبهم ، كلمـا أقبل الليل وخلوا الى أنفسهم تداعى نشاط النهار الذى كان يستمد تماسكه من وجود الناس معا ، وفتحت امامهم ثغرة يطلون منها على ما انزى فى أعماقهم ؛ فبدت أمامهم مدينة يعرفون جيدا طرقها ومسالكها ، أزقتهـا المتربة المهمـلة وقصورها الفخمة المشيدة .. فيتمشون بين قصورها وابهائها وهم يغلقون أجفانهم وينطوون على أنفسهم .. حتى اذا انبلج الصبح عادوا يرتدون ثيابهم ويرتدون معها أحاديثهم وبسماتهم .

ولشد ما طرب حين نقل ذات يوم الى ديوان بوزارة المـالية ليعمل بين بضعة مكاتب تضم خليطا من الكهول والشباب ، ذلك

ان روح الفكاهة كانت تسيطر عليهم جميعا ، وعملهم ــ الذى يبدو انه من أهم اعمال الدولة وأخطرها ــ لم يمنعهم من أن يتلهوا ساخرين بسرد آخر علاقاتهم النسائيــة على أعضــاء مجتمعهم الصغير . فهو يتسمع أحاديثهم ويلتقط معانيها وتورياتها اثناء تحركه بينهم ، يحمل اليهم القهوة او ينقل الأوراق بينهم .

ولقد كان خجلا ان يصغى الى مثل هذه الأحاديث فى اول الأمر ، فالناس علموه أن يصمت عن هذه الأمور أمام الغرباء على الأقل ، لكنه ما لبث أن أحب هــذا النوع من الصراحة والوضوح والتهكم ، ومع ذلك فأحيانا ما كانت تساوره ريبة عما اذا لم تكن هذه الأحاديث والضحكات والنكات تخفى وراءها شيئا مريرا وفظيعا حقا قابعا فى كل نفس من نفوسهم .

ذلك ان لكل انسان ــ مثلما له ولك ولى ــ سر كبير ، شائع فى الروح ، منساب فى حنايا النفس صامت مسيطر ممزق ونحن به معتزون ، لأنه وجودنا الحقيقى المستقل ، فكل ما نبوح به للآخرين لا يعود ملكنا الخاص بل يصبح خيوطا عنكبوتية تربطنــا بهم ، اما البله فهو بسر ، أما الجنون فهو سر ، وهو يحس فى نفسه ذلك المكان الابله ، ذلك الجنون المرير المغلق على نفسه ، يحدث الآخرين عنه ، لكنه يهذى به ولا يبوح ، لأنه لا منطق له ولا مدلول ، وأيام العمر تنزلق وهــذا السر ينساب بينها خيطا رقيقا مرهفا لينسج حياة كاملة تشارك فى تراث جندى مجهول .

انه يعمل ويحصــل على أجر ، ويبسم فيبسمون ، ويغضب فيعبسون ، فكل ما هو عار أمام الناس يلقى جزاءه ، أما هــذا السر فهو دائما مكان ابله ، هو جنون مرير وهو وحده وجوده الحقيقى الخاص . وهو شديد الشبه بذلك الألم فى قدميــه ،

انه وثيق الصلة بذلك الحذاء العتيق الضيق الذى لا تكاد تتمتع فيه قدماه الضخمتان بحرية ، هو وثيق الصـلة بذلك العرق والعفن واللزوجة التى يحسها فى قدميه كلما خطا خطوة أو حاول ان يقفز قفزة .

ويوم اضرب الطلبة وسارت المظاهرات وهتفت الجمـاهير وقتل ثلاثة منهم فى الميدان الكبير كان قد أصلح حـذاءه للمرة الخامسة ، ثم مضى يحمل الأوراق ويرفع الأقـداح ، وسمعهم يتحدثون ويتفكهون ، وهو يصعد ويهبط ويصعد ، شاعرا ان العمل المنوط به مرهق وعبث ، وان قدراته تؤهله لوضع آخر لا يستطيع أن يدركه ادراكا واضحا ، لكنه يستشعره كلما وجد انه لايزال فى الثانية والعشرين ، وانه قادر على أن يشتهى كل امرأة ، وان قوة جبارة مدمرة تكمن فى دمائه وجسده وتمتد الى أطرافه . كان يبحث عن أشياء يتحداها ، لكن رقة الناس وظرفهم وتجاهلهم المؤدب لطاقاته وأحلامه لم تكن الا لتطمس كل تفتح يضطرم فى أعماقه ، فيحس بلون من الشيخوخـة يغمره حتى ينزعج ويزداد انزعاجا كلما أدرك انه ربط الى عجلة لا فكاك له منها ، وكل عام يمر بل كل يوم وكل لحظة يحياها تزيده ارتباطا بهذه العجلة ، وتفقده كل امل فى التحرك والصعود ، فهو يزداد تقيدا بهذا النوع من العمل ويزداد غربة عن كل مقدرة أخرى .

ويوم هدد المهندسون بالاضراب كان ذاهبا بصلحـه للمرة السادسة .

ويوم اضرب عمال التلغراف ــ وهو لم يستعمل التلغراف فى حياته ــ كان قد أصلحه للمرة السابعة وقد بدأ يخاف نفسه ، ويخشى ما يزدحم فيها من قوى الكآبة والشهوة ، بدأ يحس انه

مدفوع نحو جريمة ، جريمة فظيعة ومجهولة ، لا يعرف اين تقع ولا متى تقع ، لكنه يملك اسبابها فى بدنه وشعوره ، وكلما تقدمت به الأيام اصبح أكثر اقترابا منها ، فكل دقيقة وكل لحظة يحياها تدفعه دفعا نحوها . واذا لم يستطع التحرك فى وضح النهار فليتحرك اذن تحت ستار الظلمة ويضرب فى العماء المتسع الكبير ، ربما سيمر مخمورا ذات ليلة عند منعطف الطريق الى منزله ، ليضرب رأس الشرطى الواقف هناك أبدا كأنه فكرة مجنونة تعاوده ولا تريد الابتعاد عنه ، أو ربما سيمر ذات ليلة تخفى منها قمرها ليسرق شيئا مما ينشره هؤلاء القوم فى شرفتهم المنخفضة كل مساء ، أو لعله سيكتشف ثأرا قديما أو يبرز له عدو أو غريم .

واغتيل احد الكبراء ، وانتشر وباء فى المدينة ، واصلح حذاءه للمرة التاسعة ، وجريمته التى يخشاها قد أخذت تتحدد فيما يبدو له . فقد اصبح يخشى اشد الخشية أن يرتكب ذات يوم فضيحة اخلاقية ، لأن ثياب النساء أخذت تفقد من ذهنه حقيقتها ووجودها فوق أجسادهن .. فهو فى حلم يقظته ما يلبث ان يجرد المرأة الواقفة امامه او الجالسة الى جانبه ، وهو ينظر فى عينيها ، ينظر اليهما فى احتياج مرير ، ولا يتبقى بينه وبين الفعل الا رعشة مجنونة حمقاء . ثم يلمح حذاءه العتيق الضخم ممتدا أمامه كأنه تحذير أو نذير فيتضاءل وينتابه مزيج من الخجل والحياء والخوف ، الخوف دائما من شيء فظيع ومجهول ، ولا يلبث أن يتحرك فى شبه معجزة بعيدا عنها كأنه شيخ مسن تأنفه العذارى . ومع ذلك فقد كان يتلمس وسط هذا الخليط الحى القاسي — وفى عينى جارته خضراء — خيطا مرهفا من طلائع خلاص سعيد يستشعره ولا يكاد يتبينه ، كأنه شعاع ناعم من النور ضل عنه وسط هذه الظلمة .

ثم انتشر الوبـاء الأصفر ، واضرب المدرســون والطلبـة والطالبـات ، ومرضت أمــه ، وأغلقت الجامعــات وحوصرت ، وصودرت الاجتماعات وصودرت الصحف والصحف والصحف ، وانتحر أخوه ، وهو ذاهب يصلح حذاءه للمرة العاشرة .

وكان عليه أن يسير ويسير فى طرقات المدينـة وازقتهـا ، مشتعلا مع القيظ مختنقا فى ملابسه ، مجنونا مع السر الكبير الشائع فى كل مكان .. سار بحذائه فى الشوارع المتسعة الكبيرة، وفى الأزقة الرطبة المختنقة ، على الأرض المحترقة فى وهج الشمس، وفى الوحل المزدحم عند المنعطفات والزوايا .. داس به القاذورات وأعقاب السجائر والحشرات الهائمة المطمئنة ، وصعد به الدرج والترامات والسيارات ، ورأى ـ وهو يضغط قدميه ـ الفتيات والنساء والنساء والفتيات ، ثم ركل به كلبـا وكلبـا ثم الطوب والطوب المنتشر فى كل مكان وعلى كل أرض .

وكان قد بدأ يشرف على تبين عاطفته نحو خضراء ، وبدأ يحس بحاجته الى حذاء جديد عندما رأى شهوته هنا يمازجهـا شىء غامض وجميل وسعيد ، عندما أدرك انه أحب امرأة بالذات، قد استنشق عطرها العنيف وغرق فى عينيهـا الواسعتين ولمح خطوط جسدها المنحنية خلف ثوبها الأحمر .. فمضى يتعرف من خلف واجهات المحـال على عالم الأحذيـة بانواعها واحجامها ، شاهد الأحذية البيضاء والصفراء ، والبيضاء والحمراء ، والحمراء والسوداء ، أحذية الأطفال واحذية الكبار ، أحذية الصيف واحذية الشتاء ، أحذية السيدات لأقدام السيدات واحذية الرجال لأقدام الرجال ، كلها مزركشة وجديدة ومتينة وكثيرة خلف الزجـاج ، الزجاج والبللور والحرمان ، ثم الحفـاة والحفـاة لا عدد لهم ولا حصر ، يدوسون فى وحل الشتاء وقيظ الصيف وهم يمضون

ويمضون نحو غايات مجهولة وحاجات مسلوبة ومآرب لا تبتدىء ولا تنتهى .

وفجاءة احترقت القاهرة ، وخلت الطرق من الترامات والسيارات ، وانتشرت الخوذات النحاسية والأزرار الصفراء والوهج والحرمان والمدافع والبنادق والشحاذون والضيق والعصى ، وهو ذاهب يصلح حذاءه للمرة الحادية عشرة .

وكان الاسكافى رجلا فى الخامسة والخمسين ، فى لحيته ـ النامية قليلا ـ شعرات سوداء وأخرى بيضاء ، أمضى فى انحناءته هذه أربعين عاما ، منذ كان صبيا فى الخامسة عشرة وهو ينظف الأحذية ، ثم يرقعها الى الأبد ، ولم يكن قد سئم الترقيع يوما ، فهو يكتسب منه اكثر مما يكتسب من احذية جديدة ، فهذه الحرب وهذا الغلاء والضنك الذى يحيا فيه هؤلاء لا يجعلهم يفكرون فى عمل أحذية جديدة . بل دائما يريدون أن يرقعوا القديم ، أن يصلحوه عساه يستمر شهرا أو شهرين ، ثم يعودون من جديد ليضع رقعة هنا أو رقعة هناك ، وما كان فى مقدور الاسكافى ان يسأم الترقيع ما دام الناس قد أجبروه على أن يكون هذا هو عمل حياته ، وهم يرقعون كل شىء . . أحذيتهم وملابسهم ونظام حياتهم عسى أن يظل كل شىء كما هو حتى اللحظة المقبلة ، مدركا أن كل فتق يأتونه به هو تضخم لرتق قديم ، وكل رتق جديد هو طلائع فتق أخطر مقبل ، لكن الأمر الخطير هو ان حذاء مأمون قد بلى تماما وتمزق بحيث لم يعد يحتمل الرتق ولا الترقيع وقد أشرف على نهايته هذا الجهد المستمر اليائس للوصول الى خير ما يمكن أن يكون بحذائه هذا .

وكان دكانه لايزال كما هو مضطربا تشيع فيه الفوضى ، وتنتشر فيه أحذية الناس ونعالهم وقباقيبهم والمسامير ورائحة

الجلد المنقوع فى المـاء ، وغلالة من التراب تستر هـذه الفوضى جميعها وتشيع بينها نوعا من الترابط والتآزر المفجع الكئيب .. والاسكافى يطرق شيئا بين يديه ، ثم ينظر نحو مأمون فى اهمال . وآلمـه أن يرى الاسكافى يحتقره ، وحز فى نفسه أن يحييه فلا يرد عليه ، بل يزعق فى الصبى يريد المخرز ، وتلفت ثم تردد ثم جلس على المقعد الوحيـد المنخفض المتكسر بالمكان ، وثمـة عجز ثقيل يسيطر عليه ، وقوى الواقع تسلبه كل حق فى التكلم أو الاحتجاج.

وقلبه بين يديه فى استنكار : ثم رفض فرجاه ، لكنه رفض فألح عليه ، ثم زعق الواحـد فزعق الآخر ، وهز الاسكافى يديه ومد مأمون عينيه ثم رجاه ورجاه فقلبه وقلبه :

ـ لا فـائدة .

ـ بل ارجـوك .

ـ قد لا يجـدى .

ـ بل ابذل جهدك .

ـ ابذل جهـدى ؟

ـ آخـر مـرة .

ـ آخـر مـرة .

ـ نعم آخر مرة .

ورآه يدق مسمارا ويغرز مخرزه ثم يلتقط الابرة وينـادى الصبى ويوقد المصباح ويدق مسمارا ويغرز مخرزه ويغرز ابرته ويبصق ويتنـاول خيطا ثم خيطا ثم يقطع بسكينته قطعة من

الجلد فقطعة اخرى فثالثة فرابعة ، ويتناول مسمارا ثم مطرقة ، ثم يعود يلقى هـذا يمينا وتلك أمامه ، وينهض وينحنى ويجلس ويتمخط ويزعق ثم يبسم ويعطيه الحذاء . واختلفا على الأجر وعبس الواحد وعبس الآخر ، ثم قدم مامون سيجارة واشعل له الاسكافى سيجارته وابتسما وخرج .

وفى كل مرة كان مامون يسترد حذاءه وقد اصبح اكثر غربة عنه ، كان يراه قد ازداد هرما وازداد تساندا فى غير فائدة . الا انه فى هـذه المرة لم يره قد تغير الى هذا الحد فحسب بل احسه غريبا عنه عندما عاد يضغط فيه قدميـه ، فقد عبثت به يد الاسكافى حتى أصبح اكثر ضيقا عن ذى قبل ، وكأنما قدماه اللتان تمتعا ببعض حريتهمـا أثناء هـذه اللحظات قد ازدادتا تضخما ، تضخما ملحوظا وحقيقيا وموجودا .

فى ذلك اليوم أخذت تتضح له هذه المعركة الخفية التى كانت قائمة منذ زمن بعيد بين قدميه والحذاء ، فأحيانا ما كان يحس بالحذاء بعض الضيق وبعض الألم ، غير انه قبل أن يشتد الألم ويحس بالضيق واللزوجة والعرق يجد ما ينقذه فيركب الترام أو يكون قد وصل الى حيث يريد . أما فى هذا اليوم .. عندما كانت القاهرة تحترق ، والخوذات النحاسـية والأزرار الصفراء فى كل مكان فقد كان عليه أن يسير ، أن يجابه الحقيقة التى طالمـا اخفاها عن نفسـه فى ساعات النهار وساعات الليل .. كان عليـه ان يتتبع الألم وهو ينمو شيئا فشيئا ، والحذاء وهو يضـيق شيئا فشيئا ، وقدماه تتضخمان وتتضحمان ...

ولقد بدأ الألم اولا فى الأصابع الأمامية ، لم يكن من الممكن أن يتعرف علي واحد منها يتركز فيه الألم ويشيع منه ، فقد كان

منتشرا فيها جميعا .. ثم انتقل فجاة الى عقب القدم اليسرى حيث كأنما ثمة تسلخ أخذ يشبيع وينتشر فى خفة أولا ثم اصبح فظيعا ومخيفا ، وتقلصت عضــلات وجهه ، وكأنما قدماه تشويان الآن من كل مكان : من الأصــابع ومن العقب ، ومن الجوانب ومن اسفل ومن فوق ، واخذ يعرج قليلا ، وهو يواصــل سيره ، يواصله بلا انقطاع حتى لا يعانى الا أقل وقت ممكن من الألم ، وكلما اقترب من المنزل أحس ان المسافة لن تنتهى لن تنتهى .. والألم يزداد ويزداد كأنه دعابة سمجة لا تحتمل .

وكان النهار قد أشرف على الزوال حين وجد نفسه نفسه فجاة فى المنزل ، فخلع سريعا حذاءه وخلع جوربيه وتأمل جوربيه وتأمل قدميه . أما حذاؤه فكان الآن متماسكا متساندا ، متربا قبيحا ، أما جورباه فالقاهما بعيدا فوق الأرض ، فرقدا هنــاك كأنهما كائنان اسودان متعفنان ، والخروق فيهما كأنها احتجاجات قديمة مهملة ، أما قدماه فقد اخذت أصابعهما تتحرك جميعها محتكة ببعضها كأنها تتهامس فيما بينهما بشكوى غريبة مؤلمــة ، وهى تنفض عنها العرق المتصــاعد كرائحة الخل نحو عالم خفى غير مرئى . كانت لقدميه جغرافية مستقلة بهما شاذة وغريبــة وأصابع كل منهما كأنها أطراف كثيرة مبعثرة لمسخ مشوه وقدماه ضخمتان تستلقيان منهكتين على أرض الغرفــة الكبيرة المتسعة تتنسمان الحريــة والهواء الرطب . كان ثمة شــعيرات وثمــة تسلخات فوق الأصابع وثمة الم شائع ثم احمرار مخيف فى عقب القدم اليسرى لا يكاد يلمسه حتى يحس بلذة مرهقــة فى الضغط عليها ، فأخذ يتحسس قدميه فى رفق وحنان ، ويمر بأنامله عليهما وهو يتأمل ما صارتا اليه .

ثم تلفت نحو الفراش واخذ يزحف ببطء وانقباض .. وثمة صوت يدعوه الى الطعام وهو يزحف ويتسلل ويزحف ، ونفسه تنطوى على نفسه ، وتماسك النهار يتداعى وحشد من المشاعر يتزاحم ، وثمة مدينة يسودها الحريق ، وطلقات البنادق بين حين وآخر ، والعصى والخوذات والمدافع والازرار ، واقداح القهوة واوراق الموظفين تصعد وتهبط ، وتهبط وتصعد ، واللزوجة ، واخوه انتحر ، والعفن والاضراب وامه تموت والأزقة فى الحروب فى الوحل فى الفتيات فى النساء ، وعينان خضراوان والشعر الناعم ليلة الزفاف وآخر مرة نعم آخر مرة ، ومدينته ذات الأزقة والمرايا والبللور وما خلف الزجاج وبقايا اطرافه ، ووضوح نبضاته والسديم المزدحم بالصخور ذات العروق القاتمة الزرقاء ، واجفانه تنغلق تنغلق .. والظلام يرخى سدوله ويزحف ويتسرب وينتشر ، وثمة حدث خطير وعظيم ينتظره ولا يخشاه .

ابريل ١٩٥١

شـــربات

فى الصباح الباكر خرجت شربات فى ثوبها الجديد وشبشبها الجديد لتشترى الخبز والفول ، لكنهــا لم تعد . وعندما يئس سيدها كمال خرج قلقا يبحث ويسأل لعلها ضلت طريق العودة ، فعمرها صــغير لا يتجــاوز العاشرة ، وهى حديثـــة العهــد بشوارع الحى .

وفى الرابعة بعد الظهر ـ ورغم شدة القيظ ـ كان الأستاذ كمال فى طريقــه الى أبيها . والأستاذ كمــال مدرس فى حوالى الأربعين من عمره ، زحف الصلع على نصف رأسه فتركها تتوهج فى القيظ ، وهو طيب القلب ، وطيبته تتيح لطلبته أن يقرفوه ، ولزوجته ـ التى ورثت بضعة فدادين عن والدها ـ أن تقرفه ، ولا يتبقى أمامه الا خدم منزله ليقرفهم بدوره ، فيتخلى عن طيبته لحظات حين يضربهم بسبب وأحيانا بلا سبب .

كان يعرف العنوان وان لم يكن قد ذهب اليه من قبل .. وكان يعرف من شربات أنها تسكن مع أسرتها فى غرفة فوق سطح منزل مكون من طابقين بجواره حقول واسعة ، وكان طول الطريق

وكثرة المواصــلات (من مصر الجديدة الى أمبابة) قد أقلقاه بشأن مصير البنت ، صحيح أنها كانت تبكى أمس وتوسلت ان تعود الى بيتها ؛ لكن هل يمكن لمثلها أن تقطع بمفردها هذا الطريق وهي التى لم تسلكه الا يوم مجيئها مع ابيها ؟ ..

وفتح ابوها الباب ؛ وفوجىء الأستاذ كمال بالبنت أمامه : بجسدها الضئيل ، وبشرتها القمحية القــاربة الى الشحوب وشعرها الخشن القصير ، وقد ارتسم على وجهها رعب هائل لدى مرآه . كانت ما تزال ترتدى فستانها وشبشبها الجديدين . كيف وصلت هــذه الشيطانة الصغيرة الى هــذا المكان البعيد .. هو نفســه كاد ييأس من العثور عليه .. لولا اهميــة المسألة التى جاء من أجلها لعاد قبل أن يصل .. سأل أكثر من شخص ، واتجه عكس الطريق المقصود ، وابتل منديله بالعرق وما يزال على وجهه عرق جديد يحتاج الى منديل جديد .. لابد وانها عرفت بيتها بحاســة كحاسة الشم لدى الكلاب .. المهم أن عبئا ثقيلا قد انزاح عنه الآن ، فقد اخلى نفسه من مسئوليتها ، وبقيت أمامه المهمة الأخرى ، مهمة ارجاعها كما أوصته والحت عليــه زوجه (ان كان الأمر بيــده فهو لا يريد خــدما ولا مشــاكل الخــدم ولا قرفهم) .

كانت الغرفة تعبق بخليط من رائحة العرق والجبن القديم : على الأرض مرتبــة ينام عليها طفلان ، وفى زاوية سلتان وموقد بترولى ، وفى زاوية أخرى صندوق خشبى كبير ، وثمة حبل بين حائطين علقت عليه مجموعة من الملابس ، وقــلة وضعت على قاعدة النافذة الوحيدة بالغرفة ، وبجوار الباب كنبة عليها كيزان وعلب ورنيش فارغة وبعض قطع الزلط .

واعتذر عليوة للبيه ، فالمكان لا يليق بالمقام ، ثم اعتذر مرة أخرى بما سببته له هذه البنت الملعونة من تعب : « كنت ناوى أرجع لك بيها يا سعادة البيه ساعة دخولك على » . ذلك أن شربات لم تصل الا منذ قليل ، أحضرها رجل أسمر طويل ، يقول انه يعمل بوابا .. أصله ابن حلال .. قابلها فى الطريق وهى تبكى .. « واديته الحلاوة ، خمسة صاغ يا سعادة البيه وحياتك .. » .

كان عليوه فى الثلاثين ، وان كان يبدو فى الأربعين ، نحيل الجسم كابنته ، قصير القامة ، أسمر الوجه ، خشن الذقن ، عصبى المزاج ، ذراعه اليمنى محروقة مشلولة ، أما ذراعه اليسرى فما تزال ذات كف ضخم .

وهبط ليطلب فنجانى قهوة من المقهى القريب ، وعاد يحمل معه مقعدا للبيه ، وقدم سيجارة ، واعتذر الأستاذ كمال ، وشربات واقفة ترتعد كأنها عارية فى عز البرد ، تود لو تستطيع أن تختفى لولا أن البيت ليس الا هذه الحجرة الواحدة .

والتفت اليها سيدها متلطفا (وان كان قد ضربها أمس ضربا عنيفا) وسألها : انت هربت ليه يا شربات ؟ فحدقت نحوه بعيون مستعطفة دون أن تجيب .. بل انها حاولت أن تجيب لكن صوتها لم يخرج ، فصرخ فيها أبوها : جاوبى على البيه يابت الكلب . وخرج أخيرا صوتها هامسا مبحوحا : أصلى مش عاوزة اشتغل فى بيوت .

كان هذا أول عهدها بخدمة البيوت ، وعندما احضرها أبوها منذ أسبوع الى منزل الأستاذ كمال ثم تركها أدركت أنها

نخدمت ، اخبرها أنه سيأخذها الى بيت خالتها ، وظنت أنهـا ستلعب فيه كمـا كانت تلعب فى الشـــارع ــ بعد عودتهـا من المدرسة ــ امام بيت أبيها مع أختها حمدية وابنة عمها زينب . كانت لعبتهن المفضلة وضع أوراق الشجر فى كيزان من الصفيح ثم طهو هـذه الأوراق على نار وهمية ، فاذا تم الطهو وضعت الأوراق فى أطباق من علب الورنيش الفارغة .. وكانت أحيانا ما تغسل اوانى البيت الحقيقية القليلة أو تكنس الحجرة التى يعيشون فيها او تحمل أخاها الصغير جلال . لكنها عندما دخلت هذا المنزل الغريب احست أنه لايمكن أن يكون بيت خالتها ، فيه أكثر من حجرة ، وبه راديو وتليفون ، واشياء اخرى رأتهـا لأول مرة ولن تنساها كالثلاجة والسخان والعروسة الكبيرة التى تملكها ستها الصغيرة ، كلما حركتها فتحت عينيها ، ثم اغمضتهما وهى تخرج صوتا كالبكاء .

وزعق فيها أبوها : هو بكيفك يابت ؟ ثم انخفض صوته وصار اكثر حنانا وهو يقول : طيب انا دلوقت خالى شغل ، وانا آكل منين وانت تاكلى منين يا شربات ؟ ..

فقد كان عليوه يشتغل فرانا ، ثم انفجر الفرن ذات يوم وحرق الفرن وصاحب الفرن كما حرقت ذراع عليوة اليمنى بحيث اصبحت مشوهة عاجزة : الحمد لله اللى أبوك عاش ، ولا ياريته كان مات ؟ .

عندما احضرها الى بيت البيه ، لمح الاشمئزاز والتأفف على وجه الهانم ، ربما كان سببه ثوب شربات ، وربما كان حذاؤها ، لكن اكثر ما المـه هو ما بدأ من ان السيدة لا ترتاح الى رائحـة ما تفوح من ابنتـه ، فقد وضـعت اصـبعى يدهـا اليمنى ــ

أو اليسرى ـ على فتحتى أنفها لتعرب عن امتعاضها بطريقة ملحوظة كأنما هى من عجين وبنته من طين . وسمعها تعترض قائلة : دى صغيرة جدا ، كنا عاوزين بنت اكبر . وأجاب عليوة ـ كأنما يعرض أرغفته على زبون : لكن دى نبيهة تقدرى تعلميها كل حاجة يا ست هانم .

واجابت البنت فى اصرار : أنا مليش دعوة ، مش عاوزة اشتغل فى بيوت . وتلمست شعرها المقصوص كأنما تعبر عما أصابها من اهانة ومذلة .

فعندما تركها أبوها وهى تكاد تبكى ، اكتشفت سيدتها أنها ترتدى ثوبها الممزق على اللحم ، وأن شعرها القصير الخشن يموج بالحشرات ، وبعد ساعات قلائل كانت السيدة قد فصلت لها فستانا صغيرا من ثوب قديم لها ، كما دبرت لها شبشبا من حذاء سابق لابنتها ، وأحضرت لها بعض الملابس الداخلية لخادم سابقة (وكانت قد احتفظت بهذا جميعه لمثل هذه الظروف) ثم ادخلتها الحمام وأشرفت بنفسها على استحمامها واهتمت بغسل شعر راسها ثم امرتها أن تدهنه بالجاز ، ثم اخذت تمشطه لها ، وكلما فازت بحشرة أو حشرتين أصابها الغثيان (شىء يقلب المعدة) ثم لوحت بالمشط أمام وجه الصبية حتى لتكاد تدسه فى انفها وهى تصيح فى شبه انتصار : شوفى .. شوفى البلاوى اللى فى شعرك . ثم تعود تمشطه لها فى عصبية . فأخوف ما تخافه الهانم أن تتسلل هذه الحشرات اليها والى اطفالها .. ثم .. ثم حدثت المفاجأة التى أذلت الصبية وكسرت نفسها تماما ، فقد امسكت سيدتها بالمقص واخذت تقص شعرها ـ الذى يميزها عن الصبيان ـ حتى اتت على أكثر من نصفه ، فاصبح أقرب الى شعر الأولاد منه الى شعر البنات .

وأثارت اجابتها ثائرة والدها ، فقـام ينهال ضربا وركلا وشتما .. على شربات كبرى بناته واحبهن اليه ،: شربات التى تعود ـ وعودها ـ أن يعطيها قرشا من كل أجر يقبضـه ؛ والتى أرسلها الى المدرسـة لتعرف القراءة والكتابة ، فلا تصبح مثله اذا شلت يده انقطع عيشه .. لكن ما باليد حيلة (ولا قوة) وها هى ذى أمك لم تأت حتى الآن لأنها تكد بدورها ، تغسـل ملابس الناس فى بيوت الناس حتى تظلم الدنيا كل ليلة ؛ وأنـا قبضت من هـذا الرجل كل أجرك لمدة شهر مقدما وصرفته لآخر مليم ؛ فاذا لم تعودى معه فمن أين أرده له ، ماذا عسانا نفعل فى الشهر القادم والذى يليه ويليه ، ستعلمين عنده أو عند غيره .. وانا أبوك ، كيف تعصينني هل تحسبين أننى اعجز من ان اؤدبك بسبب ذراعى المشلولة ، ابدا ، ما تزال هناك ذراعى اليسرى سليمة قوية ، وما تزال هناك أقدامى بل واسنانى انهشك بها اذا أردت .

وهكذا كانت الضربة تأتى حيثما اتفق .. فى ظهرها .. فى وجهها .. فى صـدرها .. والبنت تبكى بكاء مكتوما أقرب ما يكون الى الأنين ؛ حتى شاهد كمال ـ وهو يحتسى القهوة ـ عليوه يجثم عليها ويضربها بملء كفه الغليظة ـ كأنما يستفيد بخبرته السابقة فى العجن ـ ثم ما لبث أن أمسك برقبتها حتى كاد يخمد أنفاسها ، وعندما تدخل الأستاذ كمال ليفض بينهما خيل اليه ان ذراع عليوه اليسرى أقوى من ذراعيه السليمتين معا ، وكان يقول فى نفسه : لعله يفهم ابنته خيرا مما أفهمها .. لعل هـذه طريقة مجدية فى اقناعها . ثم سألها بصـوت مسموع : تيجى معايا باه يا شربات ، بدل الضرب والبهـدلة دى : فأجابتـه فى صوتها الخائف المبحوح : اصل أنا .. انا مش عاوزة أشتغل فى بيوت .

أنت .. أنت نفسك تضربنى ، وستى الصغيرة نادية تضربنى .. هى تذهب كل يوم الى المدرسة ، نفسى أذهب مثلها لأحفظ القرآن وجدول الضرب ؛ ستى تضربنى كلما ارسلتنى الى السوق وغلطت فى الحساب .. هنا كنت انام من المغرب ، أما فى بيتكم فلا انام ، اصحو من الفجر ، وانا لم اشبع نوما ، وفى الليل أكون آخر من ينام .. شربات هاتى للبنت تشرب ، شربات اغسلى الأطباق ؛ شربات امسحى الأرض .. نظفى السفرة .. انزلى اشترى كراسة للولد .. انزلى هاتى شيكولاته .. هاتى رغيفين .. والدنيا ليل وانا اخاف من الليل ، اخاف عيون القطط فى الليل ؛ أخاف من الكلاب والعفاريت .. وستى الصغيرة تضربنى .. وفى آخر الليل يعطوننى الأكل .. عندك الجبن يا شربات والعسل والعيش .. لكنى اريد أن انام .. اتركونى أنام .. جوعى الى النوم أكثر من جوعى الى الأكل .. أنت نفسك تضربنى حتى لا انام واللقمة فى فمى .. وهنا آكل متى أريد وانام متى أريد .

وغاب والدها لحظة ثم عاد وبيده قطعة خشب مستطيلة ، واستأذن الأستاذ كمال دقائق ـ غالبا ليتفادى من رؤية منظر لا يحبه ـ ومضى يبحث عن أقرب تليفون ليتصل بزوجه ويبلغها أنباء الموقف ويستطلع رايها فيما يتخذه من خطوات . وجاءه صوت زوجه مستعطفا مصرا لبذل كل محاولة لارجاعها ، فالبنت ذكية ولديها استعداد للتعلم ؛ وما أقدرش أقوم بالبيت وحدى ، واجرتها رخيصة .. وفى أثناء عودته اشترى قطعة من الشيكولاته ، فلعل قليلا من الاغراء يجدى فيما لم يجد فيه الكثير من العنف والتهديد .

وعندما صعد الأستاذ كمال الى الغرفة المعتمة الآن ، لمح على الضــوء الخافت معركة لا تكافؤ فيها بين والد قد استحال الى وحش وطفلة تدافع عن نفسها فى صمت ، فلم تعد تصــدر منها أنة واحدة ، بينمــا اضطربت الغرفة المكتظة بما فيهــا ، فوقعت بعض الملابس التى كانت معلقة على الحبــل ، وانكفأت القلة على قاعدة النافذة ــ دون أن تنكسر ــ فاندلق منها المــاء .

وعندما افلح الأستاذ كمال فى التفرقة بينهما للمرة الثانية ــ وعوضه على الله فى البدلة المكوية ــ كان العرق ينضح من كل مكان فى وجــه عليوة الخشن الأســمر ، وكان الدم يسيل من البنت الصغيرة .. من فمها وأنفها ومن جرح فى فخذها ، وقد شحب وجهها وبدا عليه الهزال والاعياء .

وحاول الأستاذ كمال أن يلاطفها ويستدرجها فى الحــديث فقال لها وهو يربت على ظهرها : شوفى يا شربات ، كلّ واحد فى الدنيا لازم يشتغل علشان ياكل عيش ، وأنا باشتغل مدرس وأمك بتشتغل ، وأبوك كان بيشتغل وبكره يلاقى يشتغل .

وفوجىء بالبنت تجيبه : لكن ستى نادية بتروح المدرســة ، أنا عاوزه أروح المدرسة ، أنا كنت بروح المدرسة .

فأجابها قائلا : أنا باشتغل مدرس ، لو جيتى معايا أعلمك جدول الضرب وأحفظك القرآن . ثم قدم لها قطعة الشيكولاته ، لكنها رفضت أن تأخــذها ، وقالت فى صوتها الخافت : أصــل ماليش نفس . فقــال لها وهو ما يزال يربت على ظهرها : طيب يالله معايا ، وكفاية .. وقاطعه ابوها بقوله : ان ما رجعتيش مع

البيـه ، ما تفكريش انك تبيتى الليلة دى هنـا ، أبيتك تحت ترامواى ، فى ترعة .

ونظر كل منهما الى الآخر ليرى مدى وقع اغرائه أو تهديده واذا بها تردد ، ونظرة الرعب لا تفارقها : مش عـاوزة اشتغل فى بيوت .

* * *

فجاة برقت فى ذهن الأستاذ كمال محاولة أخيرة ، فاتجـه نحوها وهو يقول : مادام انت زعلانة ومش عاوزة تيجى معايا ، خـلاص على كيفك : بس الفسـتان ده والهدوم اللى تحتـه ، والشبشـب كمـان بتوعنـا ، اخلعيهم .. أنـا أعمـل ايه ببنت زيك .. ؟

وبدا على الصبية انها تعتقد ان سيدها غير جاد فيما يقول ، فلا يمكن له ان ينفذ ما يقول ، ولن يسمح لها أبوها ان تخـلع ملابسها وتقف عارية ، فليس لها غيار آخر غير ذاك الذى تركته بمنزل سيدتها ، لكنها وجدت أباها نفسه يتحمس للفكرة ويؤيدها ويهددها بها ، ورأت صلعة سيدها كمال تقترب منها ويده تمتد فعلا لتخلع ثيابها ، وهى تتراجع مذعورة الى الحـائط ، وقد احست بساقيها الرفيعتين تتعريان وتنكشفان للأنظار .

كانت قد مضت اكثر من سـاعتين .. والبنت قد تعبت اعصابها ، واعصابها يثيرها الغيظ والعرق ، والعرق يسيل على جسدها ، وجسدها مرهق .. سيعرونه تماما بعد لحظات ،

وصلعة سيدها تزداد اقترابا ، وكف ابيها الغليظة أكثر اقترابا ، والحبل انقطع تماما والملابس وقعت على الأرض والقلة وقعت فى الشباك ، وجدران الحجرة تقع عليها ؛ وامها لم تأت بعد .. لو اتت ستحميها من ابيها ومن سيدها ومن الهـانم ومن ستها الصغيرة . لكنها لا تأتى ؛ وسيعرونها .. وسيدتها بمصر الجديدة نقعت ثوبها فى الجـاز ثلاثة أيام .. والحشرات ماتت .. من شعرها ومن ثوبها : وغسلته كما غسلت شعرها ؛ ووضعته مع حذائها القديم فى صندوق مخصص لها ، لقد جف منذ ايام .. ولعابها جف .. أريد جرعة من القلة المنكفئة ، ودموعها تنحدر ، وهى تبكى مستعطفة لأول مرة وتقول : اروح معاك يا سـيدى ، اروح معـاك .

وكان هذا ايذانا بأن المهمة العسيرة قد كللت بالنجـاح . واخرج الأستاذ من جيبه خمسة وعشرين قرشا : حق الحلاوة اللى دفعتها للراجل اللى جابها . وابدى عليوة تمنعه أول الأمر ، ثم ما لبث ان دسها فى جيبه : « والشيكولاته دى لابنك جلال ».

وكان الليل قد هبط وحدة القيظ قد خفت عندما خرجت شربات مع سيدها ، وفى أثناء العودة كان الأستاذ كمال ـ مستعينا بخبرته كمدرس ـ يقص عليها قصصا عن بنات واولاد فى مثل سنها حاولوا الهرب من البيوت التى يخدمون فيها فلم يصـلوا ابدا الى اهلهم . فبنت داسـها ترام ، وولد ضحك عليـه رجل بشوارب كبيرة ، وقال له أنا اعرف مكان اهلك ، ثم اخذه وحبسه وضربه ، واخيرا الحقه بخدمة بيت آخر ليستولى على أجرته وهدده بذبحه ان هو ذكر الحقيقة لأحد (كيف عرف هو القصة اذن ؟) وهكذا مضى يخيفها بقصص من اختراعه وهو ينظر اليها

من حين لآخر ليرى مدى تأثيره عليها ، فلا يرى الا قامتها القصيرة ووجهها الأسمر الشاحب وقد جمد عن التعبير .

* * *

فى الصباح التالى خرجت شربات لتشترى الخبز والفول فلم تعد ، غير أنها فى هـــذه المرة كانت تنتعل حذاءها هى وترتدى ثوبها هى ولاشىء تحته ، ولاشىء غيرهما .

ديســمبر ١٩٦١

عمــلة زائفــة

ازدحم أتوبيس الصباح بالركاب ، وكان المحصل يمر بينهم حتى وقف أمام أحد الركاب ، وأخرج الحاج سيد محفظته المنتفخة بالأوراق ـ غير المــالية فى الغالب ـ وبحث فيها عن قرش فلم يجد ، فاضطر ان يخرج الجنيــه الذى معه ، ومد يده ليتناوله للمحصل ولكن المحصـــل لم يتحمس لأخذ الجنيه بل قال له فى تبرم : احنا لسه فى أول الوردية ، معاناش فكة .

وأحرج الراكب ، وتلفت كأنمــا يبحث بين الراكبين عمن يفك له الجنيه ، بينما استأنف المحصل حديثه ليقطع على الرجل تردده : معاك فكة ولا تنزل تاخد غيره ؟ كيف يركب (غيره) . وهذه فترة الصباح التى يزدحم فيها الركاب ؟ وكان الحــاج سيد تاجرا فى طريقه الى متجره حيث يبيع أصناف الخردوات ، ولا يستطيع أن يتأخر عن زبائنه .

ووقف الأتوبيس على المحطة التالية ، بينما مد راكب آخر يده الى المحصل ليناوله تذكرة ، وفجــأة دخل بائع ينادى على صحف الصباح ، ومع أن تاجر الخردوات لم يكن من هواة الصحف

الا انه فكر أن يشترى احداها أملا فى أن يجد فكة لدى البائع ويحل بذلك مشكلته ، وسرعان ما نادى على البائع وطلب منه احدى الصحف وباقى جنيه ، ووجد انها فرجت .. فقد أخرج البائع من احد جيوبه ورقة من ذات الخمسين قرشا واخرج من جيب آخر أربع قطع فضية من ذات القروش العشرة ، كما أعطاه بقية القروش العشرة الأخيرة . وسلم التاجر الجنيه الى البائع ثم انصرف يعيد عد الفكة ويفحص القطع الفضية ، بريبة التاجر الذى كثيرا ما يتعرض لأولاد الحرام .

وفجأة لمح قطعة تختلف عن الباقيات ، كان واضحا انها أخف من الأخريات . كما كانت معضوضة من طرفها الدائرى ، وأيقن الرجل انها مزيفة ، وتلفت ليعيد القطعة الى بائع الصحف ، لكنه لم يجده كانه فص ملح ذاب ، وبدلا منه وجد امامه المحصل ، فأخفى القروش الفكة بسرعة فى جيبه ومد يده نحوه يعطيه العملة المزيفة .

وأحس الحاج سيد انه يقوم بمغامرة صغيرة ، فقد يكتشف المحصل زيف القطعة ويردها اليه .. وفى هذه الحالة لن يحدث شىء خطير ، سيعطيه غيرها ويلعن بصوت مرتفع ابن الحرام الذى غشه واعطاها له . لكن الزحام كان قد اشتد على المحصل ولم تعد لديه فرصة ليفحص القطعة فقد أخذها منه ــ بنفس الحركة الآلية ــ ورمى بها فى قاع حقيبته المتسعة وأعطاه تذكرته وسلم له الباقى .

ورغم ذلك فان الحاج سيد لم يطمئن اطمئنانا تاما ، كان لديه احساس بالجريمة الصغيرة التى اقترفها ، وان كان يبرر فعلته بانه رد جريمة بجريمة . كان يحس ان المحصل

سيكشف القطعة المزيفة فى اية لحظــة ثم يفحص الركاب بعينيه كانما ليتذكر شيئا حتى تتسمر عيناه عليه ويردها له وهو يسب بدوره ـ وبصوت مرتفع ايضا ـ أولاد الحرام .

وفكر الحاج سيد ان يدعى ان هذه القطعة ليست قطعته ، وأن يتاهب لمعركة من أمثال هذه المعــارك التى تحدث فى السيارات العامة من حين لآخر والتى لم يكن الحــاج سيد طرفا فيها فى يوم من الأيــام .

ويبدو ان النقود تكاثرت لدى المحصل ؛ فقد احس الحاج سيد ان راكبا وراءه اعطى ورقة نقدية كبيرة للمحصل ، وأن المحصل يعد له الباقى ، ولاشك ان القطعة المزيفة ستكون من نصيب هذا الراكب وقد يفحصها ويكشف حقيقتها فيردها الى المحصل وهنا يتضح كل شيء .

واحس الحــاج سيد بظهره ـ لا بعينيه ـ بالراكب وهو يفحص النقود قطعة قطعة ومع ذلك فلم يحدث شيء .. اذن فما تزال القطعة الزائفة فى قاع حقيبة المحصل لتخرج فى ايــة لحظة معلنة اتهامها له .

وفكر الحاج سيد أن يغادر الأتوبيس ؛ فهذه أفضل وسيلة للقضاء على هــذه الوسوسة التى تقلقه .. ومع ذلك فان مشكلة الركوب فى أتوبيس مزدحم آخر تمنعه من تنفيذ فكرته . لهذا ظل فى مقعده وهو يتصنع قراءة الصحيفة التى اضطر الى شرائهــا منتظرا وقوع الكارثة فى أية لحظة .

واخيرا وصل الأتوبيس الى المحطة التى يقصــدها الحاج سيد ، فشق طريقه بين المزدحمين ونزل وهو لا يصــدق تخلصه

بهذه السرعة والمهارة من القطعة المزيفة (صحيح تاجر ابن تاجر) . ومع ذلك فعندما هبط وجد أنه تسرع فى مغادرة الاتوبيس وانه هبط فى محطة سابقة على محطته . وعلل ذلك بزحمة الأتوبيس بحيث تعذر عليه أن يتبين بالضبط المكان الذى كان يجب أن يهبط فيه .

أما العملة الزائفة فاستقرت طوال مدة « الوردية » فى حقيبة عباس المحصل وعندما ذهب فى آخر الوردية ليورد تحصيله ، اكتشف محصل الشركة زيف القطعة وردها الى عباس . وكان عباس قد سبق ان شرب مثل هذا المقلب ، ولكن فى مبالغ لا تزيد على الشلن ، أما قطعة قروش من ذات العشرة مرة واحدة فكانت مقلبا قاسيا عليه .. وكان عليه أن يدفع المبلغ من جيبه ، وان يتحمل هذه الغرامة نتيجة غفلته وعدم دقته ، فاستردها وهو يستعيذ بالله من أولاد الحرام ويسب زحمة العمل والشركة صاحبة العمل ؛ ثم خفف من وقع المسألة عليه حين أعلن فى نفسه انها محنة من الله عليه أن يتقبلها .

وكان من عادة عباس الا يجعل فى جيبه الخاص الا النقود الضرورية له ، يأخذها من زوجته . يوما بعد يوم لانه يخشى أن ينفق أى مبلغ يحمله فى جيبه ، مع انه لا يشترى شيئا خاصا أو لمزاجه ، فقد كان عباس رجلا يستحرم حتى مجرد تدخين السجائر ، فأولاده وبيته أولى بالنقود القليلة التى يحصل عليها . ومع ذلك فقد كانت النقود تتبخر من يده وهو يقول ان المنزل كالبلاعة أو الأرض الجافة تتشرب أى مبلغ . ولهذا لم يأخذ معه هذا الصباح الا ما يكفيه لشراء نصف كيلو من اللحم وكيلو من البلح فى طريق عودته الى بيته ، وقد وجد نفسه الآن مضطرا ان يؤجل ذلك كله .. وعندما وضع يده فى جيبه ليخرج

منديله ويجفف عرقه لمس القطعة المعونة الزائفة وهي ترقد في جيبه لتنتظر أن يتقرر مصيرها .

وقد فكر عباس لحظة أن يلقى بها في مكان لا تصل اليه يد حتى لا يغرى وجودها احدا على ارتكاب هذه الخطيئة الصغيرة ، خطيئة التخلص منها على حساب الغير . وكأنها في انتقالها من يد الى يد تدين أكبر عدد من الناس في المشاركة في تزييفها . ومضى عباس يبحث ـ وهو يقاوم نفسه ـ عن ذلك المكان الذى لا تصل اليه اليد .

ثم خطر له خاطر .. ان يحتفظ بها لطفله محمود كي يلعب بها ، فما أشد ولع محمود بقطع النقود ، ويمكن لأمه ان تعلقها له في رقبته كحلية يتزين بها .. وفجأة اقترب منه شحاذ يطلب احسانا ، واضاءت الفكرة في راس عباس .. وتفحص الشحاذ بعينيه وأحس الشحاذ بخبرته ان المحسن يتردد وانه في حاجة الى شيء من استدرار العطف كي يحسم المحسن امره ويهبه اكبر مبلغ ممكن .. فازداد صوته حشرجة وازداد مظهره ذلة وهو يخلع على محسنه ما يملؤه غرورا وعظمة ، ووجد عباس في هذا الشحاذ خلاصا له من ورطته فمد يده اليه بالقطعة كاملة ، وحملق الشحاذ لا يصدق عينيه ، بينما انفلت عباس مرتاح النفس فقد أراح واستراح .

وظن الشحاذ أولا ان المحصل ينذر نذرا فكان له نصيب فيه ، أو لعل هذا المحصل قد ارتكب اليوم خطيئة كبرى لا تكفر عنها الا عشرة قروش كاملة .. لكن تفكير الشحاذ ودهشته وفرحته لم تطل ، فما كادت الطريق تهدأ وما كاد يشح المحسنون حتى انزوى يعد حصيلة اليوم ، وكانت مجموعة

القروش والملاليم تتضاءل بجانب القطعة التى تحتل حيزا واضحا . لكنه عندما أخذ يقلبها بين يديه شعر بريبة فى ثقلها ، ثم لمح العضة على طرفها الدائرى فساوره الشك وان لم يتأكد من الخدعة تماما . فأسرع الى أقرب دكان للسجائر يشترى منه سجارتين ويطلب الباقى .

وكان قلب اسماعيل الشحاذ يخفق فى خفوت وهو يرى البائع يفحص القطعة النقدية ثم (يرنها) بطريقة آلية على البلاطة الرخامية الممتدة امامه فلا يسمع رنينا بل مجرد صوت مكتوم لا صدى له ، وتنبه اليها البائع ثم اخذ يقلبها فما لبث أن تكشف له الزيف وصعد ببصره فى عينى زبونه الدائم اسماعيل كأنما فى ارتياب وعتاب .

والواقع ان بائع السجائر قد ارتاب من أول الأمر فى المصدر الذى حصل منه اسماعيل على مثل هذه القطعة النقدية الكاملة ، فقلما أحضر له مثلها ، بل كان الأمر على عكس ذلك تماما ، فكثيرا ما كان تاجر السجائر يفك من اسماعيل القطع ذات العشر قروش وذات العشرين قرشا ليعطيه بدلا منها قروشا وملاليم تيسر له تعامله مع الزبائن ، بينما يتخفف اسماعيل من هذه الفكة الكثيرة التى يجمدها فى قطع كبيرة يسهل عليه اختزانها .

وحاول اسماعيل أن يدافع عن نفسه ، وأن يتظاهر بانه لم يكن لديه سابق علم بزيف القطعة بل انه حاول أن يقنعه بعدم زيفها وان يشككه فيما انتهى اليه من حكم عليها . (مالك بتبص لى كده ليه .. ما هى بترن زى الجنيه أهه) . ثم تناولها منه يتأملها كأنما فوجىء بما حدث . والبائع لا يحاول أن يدارى اتهامه لاسماعيل .

ولمعت فى ذهن البائع فكرة فاخذ يساوم اسماعيل قائلا : البريزة دى برانى ، لو عرفت اصرفها لك تدينى كام ؟ وبدات المساومة : وقال اسماعيل طامعا : تأخذ منها قرشين . ورفض البائع : فتنازل اسماعيل قائلا : طيب النص بالنص ، وانتهى الأمر بأن قبل اسماعيل أن يأخذ قرشين فقط ، فهما خير من لا شيء .

فى اليوم التالى مر السيد محمد كوسة الموظف بوزارة العدل على بائع السجائر واشترى منه علبة سجائر (هليوود) واعطاه جنيها ثم أخذ الباقى وخرج مهرولا ليودع ابنه المسافر الى اسوان لأول مرة ، ثم عرج على المحل الملاصق وهو محل الحاج سيد الخردوالى ليشترى هدية صغيرة لابنه تنفعه فى غربته . اشترى جوربين ومنديلين ، وأعطى الحاج سيد خمسين قرشا واخذ الباقى ثم هرول حتى لحق بابنه على رصيف المحطة حيث قدم له ـ فى محبة وفرح بالغين ـ هذه الهدية الصغيرة ثم قبله وصفر القطار واختفى الولد .

وفى الصباح اكتشف السيد محمد كوسة أن معه (بريزة برانى) ، وكان ذلك حين اخرج هذه القطعة ليعطيها للخادم الصغير ليشترى بها ما تحتاج اليه الأسرة من خبز لهذا النهار فانزلقت القطعة على بلاط الغرفة ولوحظ بوضوح صوتها المكتوم وهى تتدحرج ثم العضة الجانبية التى تفحصها وتبدل اليقين بالشك .

وتحمس السيد محمد كوسة للأمر وتحدث بصوت مرتفع عن خداع الناس وغشهم وفساد المجتمع كلما تقدم الزمن . وكان رجلا عمليا ، فاعمل ذهنه بسرعة محاولا أن يتتبع مصدر

هذه القطعة ، واين كان ذلك الرجل الذى جرؤ على أن يستلخمه واخذ يتراجع بذاكرته الى امس حتى وصل الى الحاج سيد ؛ وظهر الامتعاض على وجه السيد محمد وكان مصدر الامتعاض ان هذا التاجر يزعم انه حج ثلاث مرات ومع ذلك فانه يغش زبائنه ، وصمم أن يعطيه درسا لا ينساه .

وتهيأ السيد محمد للخروج الى عمله وقد وضع القطعة الزائفة فى مكان واضح من جيبه ثم اتجه الى دكان الحاج سيد .

وكان الحاج سيد قد فتح لتوه دكانه حين دخل عليه السيد محمد كوسة متجهم الوجه نافر الاعصاب لا سلام ولا تحية مما ادهش الحاج سيد وهو يقول (يا فتاح يا عليم) ، وسرعان ما اخرج السيد محمد القطعة المزيفة ووضعها على البنك أمام الحاج وهو يقول له : مش عيب تدينى البريزة آمبارح ، ده انت رجل شايب وحاج .

ودهش الحاج سيد ، واقسم يمينا انه يعطه أية قطعة معدنية بالأمس ، بل رد له بقية الخمسين قرشا ورقة واحدة من ذات القروش العشرة وبضعة قروش أخرى . وتهور كوسة قائلا :

وبتكذب كمان يا حاج ، عيب خليت آيه للناس التانيين .

وثار الحاج بدوره واقسم بالطلاق انه ليس صاحب هذه القطعة حتى اضطر كوسة أن يتراجع قليلا وأن يراجع نفسه لعله يكون مخطئا ويكون هناك مصدر آخر محتمل .

وفجاة تذكر الحاج شيئا ــ كان غامضا أول الأمر ــ فى زحمة الناس .. بل فى زحمة الأتوبيس .. وبائع الصحف

الهارب ، والمحصل ونزوله المتعجل .. ثم أنها نفس العضة الجانبية .

وفى نفس اللحظة تذكر السيد كوسة بائع السجائر ، فاعتذر للحاج عن اندفاعه وأخذ يخطو مهرولا نحو بائع السجائر . وعندما اصبح على بعد خطوات من دكان الخردوات بدأ الحاج سيد يناديه متوسلا ان يعود . وتوقف السيد كوسة قليلا ثم استدار راجعا وهو يعجب لهذا التحول الذى طرأ على الحاج فى صوته وفى تعبيرات وجهه .

وأخذ الحاج سيد يشرح فى كلمات سريعة ـ تقطعها قهقهة صغيرة من حين لآخر ـ قصته القديمة مع هذه القطعة النقدية .. بينما اخذ السيد كوسة يعتذر بكلمات رقيقة عن عنف كلماته : طيب يمكن دى مش نفس البريزة .. لا لا انا عارفها اهى نفس العضة . وانتهى الأمر الى تبادل كلمات الاعتذار الرقيقة ، بل اخذ كل منهما يصر على أن تظل القطعة معه . لكن الحاج سيد كان أكثر تصميما ، كما كان السيد محمد كوسة أقل ميلا الى التشبث برأيه ، ولهذا تركها للحاج سيد واخذ غيرها .

وفى اليوم التالى مر السيد كوسة على دكان الحاج سيد ، فوجده دق البريزة بمسمار كبير فى الجزء الخشبى من البنك الممتد فى المحل .. وعندما رآه الحاج يحملق فى البريزة شرح له الأمر قائلا : ده علشان الناس تأخذ بالها من الفلوس البرانى .

فابتسم السيد محمد كوسة ثم حمل ما اشتراه ومضي فى طريقه الي عمله بوزارة ... العدل .

السمسار

كان يسير فى شارع ٢٦ يوليو ، ازحم شوارع القاهرة ، وكان يرتدى بنطلونا أصفر يضيق عند القدمين وبه أكثر من بقعة ، وقميصا كان له لون ازرق فى يوم ما ، وينتعل شبشبا متآكلا يحدث فرقعة اثناء خطوه ، وهو يجول بعينيه فى الطريق يبحث وسط الزحمة عن شخص ما .

وكان اليوم من ايام الصيف القائظ ، فقد كشفت الفتيات عن أكبر جزء من أجسامهن البضة حتى استحال نداء الباعة المتجولين الى غزل ، فكلما مرت واحدة منهن صاح بائع اللعب مغنيا « العرايس .. العرايس .. » وصاح بائع العرقسوس « شربات يا شربات » .

اما هو فكان يسير وبيده ورقة من أوراق اليانصيب وكشف بالأرقام الرابحة ، وكان ـ كما يبدو من هيئته ـ لا يعرف القراءة ، ذلك المفتاح الذى يقال له به أنت اليوم محظوظ أو انك ككل يوم منحوس . لهذا كان عليه أن يستعين بفريق من هؤلاء الذين لا يتميزون عنه بملابسهم واهتماماتهم فحسب ، بل وبأنهم

يعيشون فى عالم القراءة ألذى خرم منه . ولم يكن يريد أن يسأل اى انسان ؛ فالنساء مثلا سينفرن منه ، وهناك من الرجال من هم أكثر انشغالا بأنفسهم من أن يجيبوا له طلبا ؛ لهذا كان عليه أن يتخير ضالته .

وفجاة استقر بصره على الأستاذ خليل ، والأستاذ خليل شاب قصير ممتلىء يرتدى بنطلونا أسمر وقميصا فضفاضا أبيض، يدخن سيجارة ويسير على مهل يحدق فى الرائحات والغاديات ، فقد تخرج من الجامعة حديثا وعين مدرسا باحدى مدارس القاهرة ؛ لم يقاس بعد أعباء الوظيفة ولا متاعب المسئولية ، يسير الآن فى هذا الطريق المزدحم قبل أن يبدأ ميعاد حصته ليستمتع بأول مرتب قبضه ، وتتبعه الرجل يريد أن تسنح الفرصة للتحدث معه ، وقد أتيحت له الفرصة أخيرا حين رآه يتجه نحو واجهة أحد المحال التجارية يصعد فيها البصر ، وعندما استقر نظر الأستاذ خليل علىحذاء اعجبه أحس بكتلة بشرية الى جانبه ، فالتفت فاذا به أمام شخص رث الهيئة يقترب منه وبيده ما يشبه ورقتين من أوراق اليانصيب ، فحدس أنه بائع يبغى التخلص منهما ، لكن الرجل ازداد اقترابا منه بغير أن يعلن عن بضاعته ، وعندما خطا الى جانبه تماما ساله قائلا : تسمح يا بك ؟ ومد اليه يده بالورقتين طالبا منه أن يكشف له عن رقمه ، وقد تطوع الأستاذ خليل للقيام بذلك العمل النبيل ، وأحس بانه يعرف شيئا لا يعرفه آخرون ــ ولعل هذا هو سبب وظيفته كمدرس ــ وجذب من سيجارته نفسا ثم نفخ الدخان أمامه وقرأ الورقة واخذ يقرأ ارقام الكشف ، وترك المئات فالآلاف فعشرات الآلاف ، ولم يكن الرقم من بينها ، وهم بأن يرد الورقة الى الرجل ويعلن له النتيجة المؤسفة ، لولا أن وقعت عيناه فجأة

على الرقم الأول ، وكان قد أهمل ملاحظتـــه تماماً ، بل انه فى الواقع لم يكشف الا على الأرقام التى تربح كل منها جنيها مصريا واحدا ؛ كأنمـــا هـــذا الرجـــل ـ بتلك الملابس وبجهله القراءة والكتابة ـ ليس له أن يربح الا جنيها واحدا اذا حق له الربح على الاطلاق ، ولكنه ها هو ذا يجد أن الرقم الأول يربح مائتى جنيه وهو نفس رقم ورقة اليانصيب ، لم يقرأ الرقم كاملا بل قارن بين ترتيب الأرقام منفردة فى كل من الكشـــف والورقة فوجدهـــا واحدة ؛ ونظر الى الرجل بفرح واخلاص يهنئه وقـــال للرجل بصداقة « مبروك يا عم ، كسبت البريمو ، ميتين جنيه » .

وكان الأستاذ خليل يحس ـ وهو يعلن هذا النبأ ـ بلون من الفخر ، ويتفرس فى الطريق حوله لعل احدا يشهد له هذا الموقف العظيم ، وكأنما هو الذى سيهب هذه الجنيهات ، وكان الرجل يقف الآن أمامه محدقا فيه ثم يصيح فى لهجـــة شـــبه آليه .. « انت متأكد يا أستاذ ، انت متأكد ، شكرا ، شكرا » ثم اختفى عنه وكأنما يعدو ، والأستاذ خليل ينظر ويتحسر لأنه لم يفكر فى الحصـــول على ثروة من هذا الطريق ، ثم ما لبث أن واصل سيره وهو يحلم بانه كسب مثل هذا المبلغ فاشترى لنفسه بذله وحذاء جديدين واستطاع ان يقضى ليلة حمراء مع احـــدى هؤلاء الفتيات اللائى يسرن أمامه ناعمات طريات شهيات ، لكنـــه ما لبث أن تذكر أن أمه واخوته أحوج ما يكونون الى مثل هـــذا المبلغ . وفجـــأة تذكر ان ميعاد حصته اقترب فمضى يبحث عن أقرب وسيلة للمواصلات تسلمه الى مدرسته .

أما الرجل فما لبث أن أبطأ عندما وجد أنه قد ابتعد ابتعادا كافيا عن هذا الأستاذ ، وعاد يتفرس فى وجوه القوم من جديد

وفى ازيائهم وحركاتهم ، وما لبث بصره أن وقع على رجل يوحى شعره الأشيب بأنه أكبر سنا من حقيقته .

وكان الدكتور رؤوف يسير وسط الزحمة لا يلتفت يمنه ولا يسرة ، يحاول أن يتفادى بقدر الامكان الاصطدام بالسائرين وهم يحدقون فى الواجهات أو فى الباعة المتجولين ؛ أو فى العابرين والعابرات ، فقد كان مشغولا عن ذلك جميعه بشىء واحد لا علاقة له بمهنته ، فقد اقبل ليغير قماشا كان قد اشتراه لزوجته امس لتفصله ثوبا فى عيد ميلادها ولكنها اعترضت على لونه ، فأقبل الآن فى وقت راحته ما بين عمله الحكومى وعيادته ، وقبل أن تقفل المحال ابوابها ظهرا عساه ينجح فى تغيير هديته ، وفجأة وجد نفسه أمام شخص رث الهيئة بيده ما يشبه بقايا أوراق اليانصيب ، وقد كان الدكتور رؤوف من مدمنى شراء هذه الأوراق فى يوم من الأيام لكنه أصبح الآن أكثر انشغالا من ان يهتم بها ، فحاول أن يتفاداه لكن الرجل أصر على اعتراض طريقه بكل جسمه وهو يمد يده بالورقتين ويصيح : تسمح تقرأ لى الورقة دى ؟ ولم يكن لدى الطبيب وقت ليضيعه ، لذلك أخذ الورقة والكشف فى عصبية من الرجل ونظر سريعا هنا ونظر سريعا هناك بغير أن يرى شيئا على وجه التمام ثم قال للرجل فيما يشبه اللهجة الآمرة « غير رابحة » وهم بان ينصرف لولا أن تشبث به الرجل مرة أخرى وقال « لكن شخصا آخر قال لى انها رابحة واحب أن اتأكد من كلامه »

ونظر الطبيب من جديد الى كشف الأرقام الرابحة يفحصها بعناية هذه المرة ، وما ان وقع بصره على الرقم الأول حتى صاح بغير أن يقصد .. « انت كسبت النمرة الأولى . ميتين جنيه مبروك » وهكذا تغير سلوك الطبيب نحو الرجل فبعد أن كان

يحس أنه بازاء متسول أو شخص أمى بدأ يحس أنه ازاء شخص يملك مائتين من الجنيهات ، ومعنى ذلك أن هـذا الرجل يستطيع أن يغير على الأقل من هيئته خلال يوم أو يومين ، ويرتدى مثله تماما ، ثم يتميز عليـه بألا يكون له زوجة مثل زوجه درية التى تنتقد كل ما يشتريه حتى لو كان هدية لها . وقال الرجل فى شبه فرح « اشكرك ، اشكرك » ثم اختفى عنه ، بينما كان الطبيب يفكر فى حظه السيىء مع ورق اليانصيب ، فمنذ عشرين عاما وهو يشترى منه بانتظام ، ولقد ربح فعلا فى أوائل حياته جنيها واحدا ويومها عاد الى عروسـه درية فانبته لأنه لم يشترك فى ياناصيب تكون جائزته الصغرى أكثر من جنيه واحد .

أما الرجل فقد راى أن يحاول مرة ثالثـة ، وقد عثر على ضالته أخيرا فى شخص فؤاد افندى السمسار ، وهو سمسار متخصص فى المنازل واراضى البناء ، يتوسط بين البائع والمشترى ويكسب من هـذا وذاك . وكان يجلس الآن فى مقهى بور فؤاد ساهما مهموما لأنه لم يستطع أن يقنع أحدهم بشراء منزل قديم بشبرا ، ولو كانت الصفقة قد تمت لربح من البائع والشارى مائتى جنيه على الأقل لكن الزبون اعتبر المبلغ مرتفعا جدا وعرض مبلغا لا يرضى فؤاد افندى ولا صاحب المنزل ، ولم تجد الحيل فى اقناع الرجل بان الصفقة رابحـة ولا نفعت طرق فؤاد افندى فى تعداد مزايا المنزل وفوائده ، والواقع أن فؤاد افندى كان فى حاجة الى هذه الجنيهات ليكمل بها مبلغـا يشترى به لحسابه الخاص منزلا جديدا أعجبه فى حى العباسية . وبينما هو مهموم يفكر فى ذلك جميعه اقبل عليه رجل ما شك لحظـة فى انه متسول جاء ليزيده تضايقا ، وساله المتسول اولا ان كان من الممكن أن يشرب كوب المـاء الموضـوع أمامه على المنضدة فسمح له فؤاد

افندى . وهو ما يزال يحسب ذلك حيلة تتلوها محـاولة ابتزاز قرش أو قرشين منه ، لكنهسمعه يسـأله فى أدب جم أن يكشف له عن رقمه وقدم له الرقم والكشف ؛ ولم يكن لفؤاد افندى خبرة بهذا اللون من المعاملات فوضـع نظارته وبذلك أخذ وجهه مظهرا أكثر جدية . ثم مضى يقرأ الأرقام الرابحة ؛ ووقعت عيناه اول ما وقعت على الرقم الأول وقارنه برقم الورقة ، وحسب انه مخطىء لكنـه عندما تحقق من الأمر وجد أنه الرقم الذى يربح حقا مائتى جنيه وهم أن يصارحه بالحقيقة ، ونظر الى قميصه الباهت وثيابه الممزقة وشبشبه وقال لنفسه « ماذا يفعل هـذا الرجل بكل هذه الجنيهات ، لقد فرجت فى وجهى انا » . وأراد ان يمهد الطريق امامه فسال الرجل فى تخابث « ألم يكشـف لك احد عن هذا الرقم ؟ وأجاب الرجل فى استنكار « أبدا » وسرعان ما أسعفت فؤاد افندى بديهته وتجمعت لديه كل قواه العملية حينما يحـاول أن يعقد احدى الصفقات ، وكأنما يحاول أن يعوض الفشل الذى اصابه منذ دقائق . فنظر الى الرجل بتمعن وقال له « اسمع يا رجل ، نمرتك رابحة ، تعرف كم ؟ » وكأنما بدت على الرجل علامات الغبطة وهو يسأل : كم يا سعادة البك ؟ ربنا يخليك . وقال السمسار « خمسة جنيهات » . وكان مستعدا للتراجع والتظاهر بانه كان يداعبـه لو تبين ان الرجل يشك فى قوله ، ولكن الرجل لم يظهر الا فرحه . فتشجع السمسار وواصـل خطته التى رتبها بسرعة فى عقله فقال له « انت تعرف من أين تصرفها ؟ » واجاب الرجل فى شبه بلاهة : والله ابدا ، لم يسبق لى هذا الحظ .

اذن ما رأيك فى أن تأخذ انت ثلاثة جنيهات ، ومصلحـة الضرائب ستاخذ خمسة وعشرين فى المسائة اى جنيها وربعا وتترك

لى انت خمسة وسبعين قرشا لأننى انا الذى أخبرتك أولا ثم لأنى سأتعب نفسى لصرفها .

ورأى فؤاد افندى أن الرجل يمسك بالورقة يريد أن يستعيدها فرأى أن يتساهل قليلا ويظل فى الوقت نفسه متمسكا بأخذ شىء من الجنيهات الخمسة حتى لا تنكشف حيلته .

وظلا يتساومان حتى اخرج فؤاد افندى ثلاثة جنيهات وأربعين قرشا واعطاها للرجل وهو لا يكاد يصدق انتصاره وربحه هذه الجنيهات كلها بمثل هذه السهولة التى لا يصادفها فى صفقاته كسمسار ، وتعجب كيف أنه لم يدخل اليانصيب فى حياته كمصدر من مصادر ارباحه المحتملة .

وما ان اختفى الرجل عن عينيه حتى اختفى هو بدوره عن المقهى لئلا يكتشف الرجل الحيلة بوسيلة ما ويعود ليمسك بخناقه ، وكان متعجبا من المبدأ الذى خطه لنفسه طوال حياته ، ذلك الا يشترى ورقة يانصيب زاعما أن هذا هو النصب الذى لا يجب أن يشارك فيه سواء كضحية فى حالة الخسارة أو كمحتال فى حالة الكسب ، حتى ان كلمة يانصيب اقترنت بذهنه موسيقيا بكلمة نصب ، ولهذا فانه لم يشتر فى حياته من هذه الأوراق الا مرتين خسر فى كلتيهما ومن يومها لم يعد الى شراء شىء منها ، وامتلأ قلبه بالندم على هذا المبدأ الأخلاقى الذى الزم به حياته ، وكأنما ازدادت شراهته للمال فلم يكتف بما حققه الآن من ربح سهل بل أراد أن يتحدى مبدأه ، وصمم أن يشترى اليوم ورقة يانصيب .

وبعد نصف ساعة كان فؤاد أفندى أمام متعهد بيع أوراق اليانصيب يقدم له الورقة الرابحة ، وقارنها المتعهد بكشف لديه ثم قال له :

هذا الرقم لا يربح شيئا يا استاذ ، وضحك السمسار فى طمانينة وقال :

ـ انظر فى الكشف جيدا ، فقد شاهدت نسخة منه منذ نصف ساعة .

ولم يصدق فؤاد أفندى اذنيه وهو يسمع المتعهد يقول :

ـ لازم نسختك يا أستاذ كانت نسخة مزيفة . !

أكتوبر ١٩٥٤

سبع قصص عن الأطفـــال

انـا وابنتـي

كنت اسير ذات ليلة وانا احمل ابنتى الصغيرة على يدى وهى مستندة الى كتفى ، وقد احاطت عنقى بذراعيها الصغيرتين وشبكت اصابع يديها معا فوق ظهرى .

وذات لحظة تعثرت قدماى فى نتوء اصطدمت به فجـاة فى الطريق حتى كدت اقع على وجهى ، وكان الثقل الذى احمـله يساعد على اختلال توازنى .

ولاحظت أن ابنتى ازدادت تشبثا بى ، فاعتقدت انها انزعجت خشية الوقوع ، لكنى سمعتها تهمس : لا تخف يا أبى ، انى امســكك .

ابنتـى والطبيـب

كنت كثـيرا ما اذهـب بابنتى الى أطبـاء الأنـف والأذن والحنجرة : فقد كان لديها التهاب يكاد يكون مستمرا فى اللوزتين، وكنا نحاول ان نؤجل اجراء عملية استئصالهما . وكانت ابنتى فى الرابعة من عمرها لا نخـاف شيئا مثلما تخاف الأطباء ، لا سـيما أطباء الأنف والأذن والحنجرة ، فهم بسبب ضيق وقتهم بسبب كثرة زبائنهم بسبب شهرتهم .. يرغمونها بمجرد أن تدخل غرفـة الفحص على أن تفتح فمها ، ويضعون فيه ما يشبه الملعقة ، ثم يلحون عليهـا ان تخرج صـوتا معينا من حلقهـا ، حتى لتكاد تتقيأ ، ثم يمسكون بأذنها ، ويطلون فى تجويفها بعين يضيئها نور كهربائى ثم يمدون فيها شيئا معدنيـا طويلا ، وهى خلال ذلك كله تصرخ محـاولة أن تفلت من بين يدى المرض . وعندما ينتهى الفحص يكون وجهها قد تلطخ بالعرق والدموع .

لكن حدث ذات يوم أن اصطحبتها الى طبيب يبدو انه يفهم الطب بمعنى أوسـع مما يفهمه الأطباء الآخرون ، فرغم ازدحـام

عيادته بعدد كبير من المرضى ، الا أنه عندما دخلت أبنتى غرفة الفحص ـ وكانت مضطربة كعادتها تكاد تبكى ـ اخذ يحاول تهدئتها ، ويفهمها انه لن يؤذيها على الاطلاق . وقد يسر له وجهه البشوش نجاح مهمته ، كما كان لابتسامته اثرها فى طمانينها . وكان من أهم ما فعله انه أبعد ممرضه عنها ؛ حتى نجح فى ان يجعل هدوءها كاملا الى أن أتم الفحص الذى يريده . ثم وصف لها العلاج ، وطلب منى أن أعود بابنتى بعد اسبوع ليفحصها مرة أخرى .

وفى الطريق كان واضحا ان ابنتى فخورة بانها استطاعت ـ لأول مرة ـ أن تتغلب على خوفها من الأطباء ، وهو الخوف الذى طالما عيرناها به وطالما خجلت منه . وكان يبدو أنها سعيدة بهذا الطبيب الذى أتاح لها هذا الانتصار . وفى المنزل قصت على امها كيف لم تطفر منها دمعة واحدة عندما كان الطبيب يفحصها ، وكيف فتحت فمها كما أراد ، وقالت آه كما أراد ، واعادت القصة على جارة لنا ، كما أعادتها على جدها عندما أتى لزيارتنا .

ويبدو أن ابنتى كانت تفكر فى طريقة تعبر بها عن عرفانها بجميل هذا الطبيب ، ذلك أنى بعد اسبوع اصطحبتها الى الطبيب نفسه ، وافهمتها أننا ذاهبون اليه ، وعليها أن تبدى الشجاعة نفسها التى أبدتها فى المرة السابقة . وقبل أن تدخل العيادة سالتنى ـ كعادتها أحيانا ـ أن اشترى لها بعض قطع الحلوى ، فاشتريت لها ما ملأ جيوبها رشوة منى لأبث الشجاعة فى قلبها .

وامام الطبيب وقفت فى هدوء وهو يفحصها ، فلما انتهى من عمله فوجئنا بها تساله : هل عندك أطفال يا دكتور ؟ فأجابها الطبيب مبتسما : نعم عندى ولد صغير مثلك يا حلوة .

فلما كان منها الا ان قالت : أذن من فضلك أعط له هـذه الحلوى يا دكتور .

ثم رأيناها تخرج من جيوبها كل قطع الحلوى التى اشتريتها لها منذ دقائق ، وهى تكاد تملأ كفها الصغير فيتساقط بعضها على الأرض . ثم قدمتها الى الطبيب ونحن جميعا نبتسم .

أنا وإبني

بين النوم واليقظة سمعت ابنى يبكى فى غرفة نومه ، فهرولت من غرفتى وانا انفض عني النعاس محاولا أن اتعرف على الوقت فاذا هو الخامسة فجرا . وجدته فى سريره ما زال يجهش بالبكاء فسألته : لماذا تبكى ؟

اجاب متاثرا : حلمت انك مت يا بابا .

ـ لكنك ترانى اكلمك .

ـ اعرف ، ولهذا أدركت انه كابوس .

ولم اشأ ان أسأله تفصيلات اكثر حتى لا يهجره النعاس ، فقد احتفل بعيد ميلاده التاسع مساء أمس ونام فى ساعة متاخرة على غير عادته ، ولهذا ما لبث أن استغرق فى السبات كأنما لم يحدث شيء . أما أنا فعدت الى سريرى وقد أصابنى شيء من تشاؤم ، فلعلها نبوءة لى على لسان طفلى .

وفى الصباح حاولت أن أتعرف على مصدر هذا الكابوس لعل صفة النبوءة تسقط عنه ، ويذهب عنى تشاؤمى . أعدت على طفلى ما بدر منه منذ حوالي ساعتين ، فقال معللا : حذرتنى

مساء أمس من وضـــع الغطاء فوق وجهى حتى لا يأتينى الكابوس فوقع ما تنبأت به يا بابا . غير أنه استطرد محتجا : ولو أنك لم تحـذرنى لمـا وقع شىء من ذلك ، فأنا اغطى وجهى كل ليـلة ولا تزعجنى اية أحلام . فقهقهت ساخرا ، واعتبرت الموضوع منتهيـا .

غير انه اثناء افطارنا ، واثناء ثرثرته المعتادة قص على قصة مما يرويه لى كل يوم مما يقع له فى مدرســته . قال ان زميلا له فى صفه ضئيل الحجم ضعيف البنية يهزأ به زملاؤه ويضربونه ويخطفون منه طعامه ، ولقد كان يستنجد بأمه من حين لآخر فتقبل الى المدرسة تشكو الأطفال الى مدرستهم أو الى ناظرتهم ليكفوا اذاهم عنه . غير أن هذا الزميل فقد أباه منذ ايـام ، بينما ضاعف الأطفال من سخريتهم به وايذائهم له لا يعبأون ببكائه ولا توسلاته . ولقد استنجد بأمه كعادته فلم تتمكن من نجدته بسبب ما هى عليه من حداد ، فاستغاث بعمه فتباطأ عن اغاثته .

عندئذ سألته : ولمـاذا لا تقف أنت الى جانبه ، تدفع عنه اذى الآخرين وتنصره ؟

وفجاة رأيته يجهش بالبكاء ـ خجلا هذه المرة ـ وهو يقول : أنا أيضا يا بابا اضربه واخطف منه طعامه .

الجد والحفيد

كنت أقص على حفيدى قصة الفيل الذى لم يسمع كلام أمه .

ـ هل تعرف الفيل ؟

ـ نعم رايته فى حديقة الحيوان .

ـ كيف شكله ؟

ـ له خرطوم طويل ياخذ به النقود من الأولاد ويعطيها للرجل .

ـ تقصد الحارس ؟

ـ نعم ، واذناه كبيرتان ، وجسمه كبير اسود .

ـ عندما كان صغيرا مثلك كان انفه مثل انفك واذناه مثل اذنيك . وقد نبهت عليه امه الا يذهب الى البحر وحده لأن فيه التمساح .

ـ وما التمساح يا جدى ؟

ـ سمكة كبيرة جداً لها أسنان كالمنشار ،

ـ جارنا عم نعمان النجار رأيته يقطع الخشب بالمنشار ،

ـ تمـــام .

ـ انت لم تحك لى حكاية الفيل .

ـ لأنك تقاطعنى .

ـ ماذا حدث بعد ان قالت أم الفيل لابنها أن التمســاح فى البحر ؟

ـ قالت أم الفيل ان التمساح يعيش مختبئًا تحت الماء فى انتظار الأفيال الصغار ، لكن الفيل قال ان أمه تضحك عليــه وانه لا يوجد شيء اسمه تماسيح . كل ما هنــاك انها تخــاف عليه من الغرق ؛ ولهذا فهى تخيفه بكلامها عن التمساح .

وفى يوم من الأيام كانت أمه مشغولة فى المطبخ تعد طعــام الغداء ، فتسلل على أطراف اقدامه نحو باب البيت ، وبحــذر شديد ، وبغير ان تحس الأم ، فتحه دون أن يحدث صــوتا . وما أن راى نفسه فى الشارع حتى سار يقفز فرحا مسرعا نحو البحر . وهنــاك تذكر كلام أمه ، فوقف قليلا ليرى أن كان كلامها صحيحا . لكنه وجد سطح المــاء هادئا ، ولا توجد الا مراكب بعيدة تشق البحر . فقال فى نفســه مرة أخرى ان أمه لابد وانها تضحــك عليــه . وتقدم نحو المــاء يريد أن يستمتع بشربه ، ويجرب ـ ان أمكن ـ أن يعوم فيه بعد ذلك . لكن التمساح المــاكر كان مختبئا تحت المــاء يراقب الفيل . فما أن مد الفيلُ رأسه وفمه ليشرب حتى هجم عليــه التمساح ، وكانت أنفه أقرب جزء لأسنانه ، فقبض عليها التمساح وظلّ يشدها محاولا أن يسحب

ألفيل كله الى الماء ليأكله . لكن الفيل كان قويا فقاوم التمساح ، وظل يتراجع الى الوراء بينما الفيل يشد أنفه . واخذ انف الفيل يستطيل ويستطيل ، كل منهما يشده نحوه . حتى استطاع الفيل فى النهاية ان يفلت بمعجزة من التمساح لكن بعد ان استطال انفه واصبح خرطوما طويلا مدلى أمامه .

وعاد الفيل الصغير الى أمه خجلا خائفا . ودخل البيت محاولا ان يخفى جريمته لكن خرطومه كان يفضحه . فما أن راته امه حتى صاحت فيه : لماذا لم تسمع كلامى ، هذا جزاؤك . ثم شدته من اذنيه لتعاقبه ، وظلت تشدهما وهو يبكى حتى كبرتا .

وهكذا كلما رايت الفيل بخرطومه الطويل واذنيه الكبيرتين تذكر ان هذا جزاء من لا يسمع كلام أمه .

لكن حفيدى ـ ابن الخامسة ـ بدا عليه القلق ، وقال فى صوت يملؤه الشك : لكن يا جدى انا اذهب مع بابا وماما الى البحر كل صيف نعوم فيه ولا نجد اية تماسيح .

البلهاء وطفلها

كان فى نهاية حارتنا القديمة المتداعية خرابة ، وكانت تسكن الخرابة فتاة بلهاء ، وقد حدث ذات يوم أن حملت البلهاء من شخص مجهول ، مما أثار ثائرة أهل الحارة لكنها حين ولدت ووجدوها تعامل طفلها بحنان كما تعامل بقية الأمهات أطفالهن ، نسوا ثورتهم .

وكان من بين هؤلاء السكان احدى البائعات الجائلات ، تسكن غرفة فى منزل قديم امامنا ، وكان ذلك المنزل مكونا من ثلاثة طوابق ذات مشربيات يرجع تاريخها الى أيام المماليك . وقد عطفت البائعة على البلهاء وابنها حتى انها آوتهم فى غرفتها .

وحدث ذات صباح أن انهار أحد جوانب ذلك المنزل ، وكان ذلك الجانب هو الذى تقع فيه دورات المياه ، فذعر سكانه لحظة ثم ما لبثوا أن عادواعندما تبينوا أن أحدا منهم لم يصب بسوء ، وأصلحوا دورات المياه وقرروا استئناف الحياة فيه كأن لم يكن شىء .

اما البلهاء فقد أصابها ذعر وكأنما رات أن خير طريقة

لحماية طفلها هو عدم المبيت بذلك المنزل ، فلجأت الى خرابتها بينما بقى العقلاء فى المنزل الآيل للسقوط يسخرون منها .

وعندما اقترب الشتاء حاولت البائعة ان تقنع البلهاء بضرورة العودة الى المبيت معها فى الغرفة خوفا على صحة الطفل ، ولكن البلهاء كانت تهز راسها رفضا .

وذات مساء شديد البرودة والعواصف ، قررت البائعة ان تاخذ الطفل بالقوة من البلهاء ، واستطاعت فعلا ان تأخذه منها . ثم اغلقت بابها والبلهاء تعوى خارجه عواء مريرا .

وكانت الساعة قد أشرفت على العاشرة مساء عندما خرجت لاشترى خبزا من الدكان الذى يقع على راس حارتنا . فلمحت البلهاء وهى ما تزال تعوى .

واشتريت خبزى ثم قفلت راجعا . وفجأة سمعت دويا ورايت نوافذ العمارة القديمة التى تواجه منزلى تتفتح ثم يعلو منها صراخ وغبار كثيف ، ورايت البلهاء تندفع نحو الغرفة التى انفتح بابها حيث يرقد طفلها ، وكدت ألحق بها لأشدها خارجا خوفا على حياتها لولا أن وجدت المنزل يتداعى ويصبح فى لحظات أنقاضا .

وفى الصباح كان عمال الانقاذ قد ادوا مهمتهم وأخرجوا من بين أنقاض الغرفة جثة البائعة كما انتشلوا جثة البلهاء ، أما طفلها فقد وجدوه حيا يحميه جسد أمه وقد تلمست شفتاه طريقهما الى ثديها ، فجعل يمتص منه فى طمأنينة وهدوء .

الصبي والترام

كنت جالسا مع بقية الركاب فى العربة المفتوحة من ترام رقم ٣٠ ، وكان يجلس الى جانبنا صبى فى حوالى الثانية عشرة من عمره ؛ ولكنه لا يجلس على المقاعد مثلنا انما على حافة الترام الشمالية .

ويبدو أن الراكب الملاصق لتلك الحافة ، والتى تلامس قدمه ظهر الطفل ، كان غير مرتاح الى وجود هذا الصبى . لعله يخشى من قذارته ولعله يخشى أن يكون نشالا ، فما أقبل المحصل حتى تشجع وصاح فى الولد يطلب منه مغادرة الترام ، وسمعه المحصل فانضم اليه يشتم الولد ويسبه . ولكن ...

ولكن فجأة — وقبل أن تنتهى صيحات الراكب وشتائم المحصل — وقف الترام فى غير محطة ، وتطلعنا لنعرف السبب ، فاذا بسنجة الترام قد انفصلت عن الأسلاك الكهربية المرتفعة وقفز حبلها فوق سطح الترام بحيث أصبح من المتعذر توجيهها لاعادتها الى مكانها .

ورايت الصبى يغادر مكانه ، ويقفز فوق سطح الترام ، واذا بالمحصل ـ نفس المحصـــل ـ يناديه قائلا : ايوه امســك الحبل من هنا ، ما تخافش يا ولد مافيش كهربا من هنا ، ايوه احدف الحبل ، برافو عليك ، ايوه كده .

وعندما بدأ الترام يتحرك من جديد ، عاد الصبى يجلس فى مكانه المتواضع واثقا أن أحدا لن يجرؤ على اعتراضه .

البطـة الخامسـة

كنت اقف امام محطـة الأتوبيس ، ومن خلفى كانت تمتد مراعى الفريزيان ، ويفصـل بين المرعى والشارع الذى اقف به مجرى يسبح به عدد من البط . وجاءت سيدة عجوز لتقف معى فى انتظار الأتوبيس . وفجـأة رايتها تحدثنى بلغتها الهولندية ، فلما ادركت انى لا افهمها اشارت خلفنا ، فاستدرت لأرى بطـة تسير على حافة المجرى ، ورايتها تشير بأصابع اربعة الى البطات الصغيرات الأربع السائرات خلف امهن ، وقد بدت على السـيدة العجوز سعادة تريد أن تشركنى فيها .

واستدرنا الى الطريق نرقب الأتوبيس فقد أوشـك ـ طبقا لموعده ـ على الوصـول ، حين رأيتها تستدير مرة أخرى كأنما لتملأ عينيها من المنظر الذى أسـعدها ، غير انها ما لبثت أن نبهتنى ـ وقد أصبحت ملامح وجهها اكثر اشراقا ـ وهى تشير بأصابعها الخمسة هذه المرة ، فاستدرت بدورى لأرى بطة صغيرة خامسة تتعثر بسرعة لتلحق بطابور اخواتها .

قصـــص فى دقـــائق

- ١ -

ظـــلال

انه ما يزال يشعر بتلك السعادة الخفية كلما قابلها ، وهى ما تزال تحس بتلك الغبطة الرقراقة كلما رأته .

ومنذ ربع قرن ؛ كانا قد التقيا ؛ حين كانت فى العشرين من عمرها ؛ وحين كان هو فى الرابعـــة والعشرين ، ومن يومها أحس أحدهما بالارتياح نحو الآخر .

ولم يجد هو فى ذلك الارتياح السعيد ما يتناقض مع حبه لانسانة أخرى عقد النية على الزواج منها ، وعندما عرفت منه تلك الحقيقة ، لم تر فى ذلك عقبة أمام ما تضمره من تقدير له ، بل لكأنما ضاعفت تلك الحقيقة من هـــذه الطمأنينة العذبة التى تغمرها فى وجوده

وكان أحيانا يقصـــد الى لقائهـــا ــ على غير موعـــد ــ فى ناديهـــا أو كليتهـــا ثم فى عملها فيما بعد ، وأحيانا أخرى كانا يلتقيان عفوا . وفى كل لقاء ، كان قلبها يحتفل بمجيئه ، كانت تعجب بحديثـــه وآرائه وتبتهج بشخصيته ورجولته وكان هو

ينتشى بتعليقاتها الذكية واطلاعها المتواصل وبشعرها وعينيهـا وابتسامة شفتيها .

ومع ذلك لم يحدث أن اعترف أحدهما يوما ما بما يكنه من ميل نحو الآخر .. فى حديث أو موعد أو قبلة . ولهذا فان عواطف احدهما نحو الآخر لم تتحدد بصفة نهائية فى يوم من الأيـام . وكانما وصل كل منهما الى تلك المرحلة التى يرى فيها المحب أن يفضى بحبه الى الآخر ثم فضـلا أن يتريثا عند هذه المرحلة وأن يتريثا الى الأبد فوقفا عند رغبة الاعتراف ، بغير اقدام على الاعتراف .

وتزوج هو وتزوجت هى ، وانجب كل منهما اطفالا ، واحب هو زوجته واطفاله ، وأحبت هى زوجها وأطفالها ، ومازالت الغبطة تجتاح كلا منهما حين يرى الآخر ، بعد أن ضاعف الزواج من ذلك الابهام السعيد الذى يعيشان فيه ، وقد أدركا أن تعريض مشاعرهما للضـوء وللوضوح وللافصاح سيقتلها فورا فيحرمهما تلك اللذة التى يخفيها كل منهما ــ حتى عن صاحبه ــ فى أعمق أعماق فؤاده .

وكانما أصبح كل منهما سعيدا بأن يتساءل عن مدى تلك الغبطة التى تغمر الآخر فى وجوده ، بغير أن يتحقق أبدا من الجواب القاطع المحدد .

انهما ما يزالان كلما التقيا ــ كما التقيا منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ــ يحسان بهذا القلق العذب الذى يؤرجحهما بين الحرمان والحصول ، وبين الاعجاب والحب ، وبين الصـداقة والهيـام .

- ٢ -

عندما هبطت من المحطــة وجدتنى امام طــالب فى حوالى الرابعة عشرة من عمره ، يمسك كتبه بيسراه ، ويلوح بحرية فى الفراغ بيمناه ، وقد جذب انتباهى اليه اندفاعه المرح فى طريق المدينة المزدحم ، وهو يصفر لحنا طروبا ، وخطوه يكاد يكون قفزا.

وعندما اقترب من موقف عربات الحنطور فى الميدان ، مد يده اليمنى وداعب بها رقبة الحصــان المشدود الى احدى هذه العربات : واستجاب الحصان لهذه الملاطفة ، ورفع راسه وهز أذنيه ؛ بينما واصل الطالب سيره وهو يصفر لحنه .

وعندما اقترب من بائع العصير ، وجد طفلة زنجيــة اللون ، لا تتعدى الخامسة من عمرها ، واذا به يحملها الى أعلا ، ودهشت الطفلة من المفاجاة لكن وجهــه الضاحك أعاد اليها الطمأنينة ، فما لبثت شفتاها أن انفرجت عن ابتسامة عذبة ، وهو يعيدها الى الأرض ، يحرك لها فمه وعينيه حركات جعلت الطفلة تنطلق ضاحــكة .

وواصل الطالب من جديد سيره ، حتى اذا وصل عند ملتقى الطرق ، وجد متسولة عمياء قابعة هنـاك فتوقف عن سيره ، وانا ارقب كيف يلاطف هذه العجوز ايضا ، ورايتهما يتبادلان بضع كلمات ، تلفتت على أثرها المتسولة العمياء ثم قادها من يدها وعبر بها الطريق ، حيث أسلمها الى زاوية أخرى بينمـا انطلق هو من جديد واختفى عن عينى وهو ما زال يقفز ويصفر .

- ٣ -

كان الأتوبيس مزدحما بالجالسين والواقفين لا سيما فى فى درجته الثانية . وكان المحصل منهمكا فى عمله مع ركاب تلك الدرجة .

وفجأة وقفت سيدة أجنبية من ركاب الدرجة الأولى تنادى على المحصل فهى تريد ان تغادر الأتوبيس فى المحطة التالية ولم تدفع بعد أجر انتقالها لكن المحصل كان منهمكا فى عمله بحيث تعذر عليه أن يسمعها .

وكان هناك عامل يقف بين الدرجتين الأولى والثانية ، فما كان من السيدة الا أن أعطته القرشين راجية أن يسلمهما للمحصل . ثم وقف الأتوبيس وغادرته السيدة . ويبدو ـ لكثرة الزحام ـ أن أحدا غيرى لم ينتبه الى ما حدث فى تلك اللحظات القلائل ، وكان قربى من العامل يسمح لى بأن اتتبع الأمور عن كثب ، فعندما أقبل المحصل أخيرا رأيت العامل يقص عليه قصة السيدة ثم يعطيه القرشين ، ويخرج قرشا ثالثا ليصرف تذكرة له . وبعد أن صرف المحصل للعامل تذكرته ، رأيته بدوره يفصل من دفتره تذكرة من تذاكر الدرجة الأولى ويؤشر عليها بقلمه ثم .. يمزقها وسط الزحام .

ـ ٤ ـ

شكا كثير من مرضى الدكتور زكى صبرى من وجود حشرات فى طقم الأنتريه بالغرفة الخارجيـــة من عيادته . فكان المريض واهله ــ واكثرهم من فلاحى القرى المجاورة للمدينة ــ ما يكادون يجلسون على الكنبة او أحد المقاعد الأربعة من هذا الطقم حتى تسرى على ابدانهم حشرات تنطلق من أماكن خفية ومجهولة شد ما تضايقهم . وقد حــاول الممرض عبثــا أن يقضى على هــذه الحشرات بكل انواع المبيدات ، فقد كانت تختفى أياما لتعود الى الظهور من جديد . وعندما ادرك الطبيب اخيرا أن ممرضـــه فى معركة خاسرة مع هذه الحشرات وانها قد تهدده بانصراف زبائنه عنه امر الممرض ببيع الطقم فى أسرع وقت وبأى ثمن . وســاعد الطبيب على اتخــاذ هذا القرار أن الطقم كان قديما ، فقد اشتراه منذ افتتح عيادته منذ عشرين عاما .

ولم يكن أمام الممرض الا تاجر المزاد الوحيد فى المدينة ، فحمل اليه الطقم يعرضـه عليه للبيع ، واظهر له التاجر ــ كما هو متبع فى مثل هذه الحالات ــ رغبته عن شراء مثل هذا الأثاث القديم . واخيرا قبل أن يدفع جنيهين ثمنــا له . وأخفى عنه

المرض ان هذا الأثاث ملك لسيده الطبيب ، لئلا يعلم بسر الحشرات فيطلب من المرض أن يدفع له ثمن التخلص منه !

وحدث بعد أيام أن تقابل الطبيب وتاجر المزاد ، فرأى الطبيب أن ينتهز هذه الفرصة ليحدثه فى أمر شراء طقم بدلا من الطقم القديم الذى باعه ؛ فما كان من التاجر الا أن اندفع يحدثه عن طقم « لقطة » اشتراه حديثا من اثاث القصور الملكية المصادرة ، وانه ـ اكراما للطبيب ـ لن يبيعه الا بنفس ثمن شرائه وهو عشرة جنيهات . واثار التاجر حماس الدكتور زكى صبرى فذهب معه ليعاين الطقم الأثرى .

وما أن وقعت عين الطبيب على الأثاث الملكى المزعوم حتى ادرك انه ليس الا أمام أثاثه الذى تخلص منه ممرضه منذ اسبوع . ولكنه تصنع الجد وقال للتاجر مستفهما :

ـ هل تعرف الأمير الذى كان يمتلك هذا الأثاث ؟

وأبدى التاجر جهله وان عاد يؤكد أنه من أثاث احد القصور المصادرة . وهنا أثار الطبيب دهشة التاجر وهو يقول : أما انا فأعرف .. ثم أشار الى نفسه قائلا :

ـ لقد كان هذا الأثاث ملكا للأمير .. زكى صبرى .

- ٥ -

فى شهر مايو المـاضى استحق الأستاذ قدور علاوة قدرها جنيه مصرى واحد ، ينقص بضعة قروش بعد حذف الضريبـة المستحقة ، ولكن الباقى ينفعه بلاشك فى تسديد شيء من ديونه .

ومضى شهر يونيو ثم يوليو فاغسطس ، وكلما شكا قدور افندى الى زميل له بالمكتب ـ وهو زميل ليست له عـلاوة ـ كان يجيبه قائلا : أهو كله متحوش لك .

وقام الأستاذ قدور بأجازته الصيفية فى سبتمبر ثم عـاد منها يتساءل عن أخبار العلاوة فاذا لا جديد فيها ، وفى شـهر اكتوبر اتفق الأستاذ قدور وزملاؤه المستحقون لعـلاوات مثله أن يكتب كل منهم شكوى لاستعجال وصول ما تأخر وما استحق. وحرصـوا على كتابة الشكاوى وافية بجميع البيانات اللازمة حتى لا يلتبس شيء على الموظف الذى بيده الأمر ، ورفعوها عن طريق رئيس المصلحـة ليرفعها الى السيد مراقبها ليرفعهـا الى السيد مدير المستخدمين ليرفعها الى الموظف المختص .

ومضى شهر نوفمبر ولم تصل العلاوة ، فكتب الأستاذ قدور

شكوى ثانيـة ، حريصا ــ كما فى المرة الأولى ــ على استيفاء جميع البيانات . ومر شهر ديسمبر فكتب شكوى ثالثة .

وفى أوائل شهر فبراير ارسل سكرتير المصلحة الى الأستاذ قدور سـاعيا يطلب منه أن يأتى لتسلم خطاب له بشأن علاوته . انفرجت اسارير الأسـتاذ قدور ، وظهر السرور على زملائـه لأن وصول علاوة زميلهم يشير بالخير لهم جميعا ، وحسدوه فى قلوبهم لأنه سيقبض علاوته قبلهم ، وانهالت النكات عليـه ، فهو سيقيم حفلة عشـاء لزمـلائه ، أو سيذهب ليخطب بنت الحلال ، أو سيوزع الشربات عليهم . بينما منى الساعى نفسه بالحـلاوة .

وعندما عاد الأستاذ قدور من عند السكرتير كان يحمل نفس شكواه الأولى التى أرسلها فى أكتوبر المـاضى ، منذ خمسة أشهر ، وتجمع حوله زملاؤه يقرأون عليهـا فى لهفة هـذه التأشـيرة : « يعاد لوضع ورقة تمغة فئة مائة مليم ، ويجرى اللازم » .

وعاد صوت الزميل ــ الذى ليست له عـلاوة ــ يرتفع قائـلا :

معلهش ، كله متحوش لك .

- ٦ -

عندما عين المدير الجديد لمنطقة .... التعليمية قرر ناظر المدرسة اقامة حفل لتكريمه وأوحى الى الأساتذة والطلبة ان يلقوا الخطب بين يديه احتفاء به واشادة بمآثره على التعليم ، وتسابق الجميع فى الاستجابة لهذا الطلب .

وكان لا يمر وقت حتى تسمع الناظر يتحدث عن المدير واياديه البيضاء على العلم والتعليم .

وذات يوم أعلن أن المدير قد نقل من منصبه مغضوبا عليه لخطأ ارتكبه وانقلب الناظر فجأة يجرحه وينقده ويندفع فى النيل منه ، كما اندفع من قبل فى مديحه .

وعندما اعلن اسم مدير المنطقة الجديد بدأ يعد العدة لاقامة حفل لتكريمه .

وكان قد وفد على المدرسة فى هذه الأثناء مدرس أول للغة العربية ، شديد الاعتداد بنفسه ، لا تفارقه ابتسامة تدل على الثقة فى نفسه ، سمع من اخوانه اطراقا من الحديث عن الناظر وحفلات تكريمه .

وذات يوم أتاه الناظر يرجوه أن يعد خطبة يلقيها على مسامع المدير الجديد ، واعطاه قائمة بأعمال المدير الرائعة ، وتاريخه الطويل فى التعليم . ووعده المدرس باعداد الخطبة .

ومر أسبوع .. وسأله الناظر فيما تم من أمر الخطبة ، فطلب منه أن يمهله أسبوعا آخر ، ومر الأسبوع ولم ينجز الأستاذ شيئا مما وعد مما جعل الناظر يلح عليه حتى وعده بأن تكون الخطبة معدة فى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى كان المدرس الأول يسير برفقة الناظر يراقبان الطلبة عندما سأله الأخير : اظنك وفيت بوعدك وأعددت الخطبة . وما كانت أشد فرحة الناظر عندما سمعه يقول بأنه أعدها .

ولكن فرحة الناظر لم تتم عندما سمع المدرس الأول يتم حديثه قائلا : ولقد جعلت لخطبتى عنوانا . ثم سكت قليلا وابتسم ابتسامته وضغط على مخارج الحروف وهو يقول : ان موضوعها النفاق ..

وفوجىء الناظر بهذه الاجابة . بينما استطرد الأستاذ يقول : وأوردت فى خطبتى بعض الأمثلة .

وانسحب الناظر مطاطى الرأس ، ولم يقم حفل التكريم أبدا.

- ٧ -

اعتدت أن أقضى الصيف من كل عام فى سيدى بشر ، وأن استقل مع الأسرة والحقائب سيارة اجرة من محطة سيدى جابر الى مسكنى الصيفى بسيدى بشر ، ومع أن أجرة التاكسى لاتتجاوز ستين قرشا الا ان كل سائق كان يحصل على أكثر من هذا المبلغ بكثير بالنسبة لميزانيتى المتواضعة والتى امامها أهوال التصييف ومطالب العيال فى المصيف .

وفى ذات صيف نبهت على السائق أن يسير عن طريق ابى قير لأنه اقصر الطرق ، ولكنه بدلا من ان يتجه عند محطة سيدى بشر واصل سيره حتى وجدتنى فى طريق خال على جانبيه النخل ــ واذا به يصل الى قصر المنتزه ثم يعود قافلا الى سيدى بشر بعد أن دار دورة كبيرة لم تكن لها ضرورة ، واذا به يطالبنى بجنيه كامل . وبعد مشادة كلامية تفضل وتنازل وقبل خمسة وسبعين قرشا .

فلما قفلت راجعا من المصيف صممت الا يتحايل على السائق، وفعلا سار في الطريق المختصر المرسوم ، ولكنى ما أن وصلت

الى المحطة حتى وجدت العداد يحسب أيضاً تسعين قرشـا ، وفهمت ان هناك تلاعبا فى العداد ، فتشاجرت مع السـائق حتى قبل اخيرا ان يأخذ خمسة وسبعين قرشا .

وفى السـنة التى تليها كنت أكثر حـذرا ، فتنبهت لكل شيء ، وفعلا لم يحسب العداد الا ستين قرشا ، ولكن السائق تشاجر معى قائلا انه رجل امين وكان يستطيع أن يغشنى ، ولهذا فعلى ان أعطيه ثمانين قرشا على الأقل . وبعد مشادة ومساومة قبل أن يأخذ خمسة وسبعين قرشا .

فلما قفلت راجعاً فى ذلك العام كنت أكثر حذرا وتنبها من جميع المرات السابقة ؛ وفعلا لم يحسب العداد الا ستين قرشا ، وكان السائق طيبا فلم يطـالبنى بأى مبلغ اضافى ، مما كان له أثره فى نفسى ، فقـلت له : انك أول سـائق طيب أجـده فى الاسكندرية ، ولهذا فانى ساعطيك هذا جزاء أمانتك .

ووجدتنى أمد يدى وأعطيـه .. خمسة وسبعين قرشا !

الكراسى الموسيقية

اعترافــات

ضيق الخــلق والمثانة

فى الساعة الخامســة الا ثلاث دقائق كنت انسانا محكوما عليه بالحياة ، فى الساعة الخامسة ودقيقتين اصبحت انسانا شبه محكوم عليه بالموت .

عندما جئت القاهرة منذ عشر سنوات لأدرس بجامعتها ، كنت مشفقا منها مشوقا اليها . جئتها من قبل زائرا عابرا مع والدى لحضــور مولد أو قضاء مصلحة أو رؤية المعرض الزراعى الصناعى ، نبيت فى فندق متواضــع أو عند أحد أقربائنا . فى هذه المرة كان على أن ادبر سكنا بأجر معقول فى حدود امكانات والدى . ابن عمى كان يســكن احدى غرف الشقة التى كانت تؤوينى حتى عصر الاثنين الأخير من الشهر السابع من العــام المــاضى . شقة كانت غرفها ــ يوم جئتها منذ عشر سنوات ــ تؤجر للطلبة لانها فى حى الجيزة القريب من الجامعة .. الغرفة المجاورة له خلت من زميل نقلت أسرته للقاهرة فانضــم اليها . يومها فرحت بسكنى مع ابن عمى ، يخفف عنى غربتى فى مدينة

مزدحمـة مترامية كالقاهرة لا يعرف فيها الجار جاره . وكان معنا ثالث ورابع يشغلان الغرفتين المتجاورتين الاخريين . الصالة والمطبخ ودورة المياه مرافق عامة مشتركة .

عندما خلت الغرفتان المتجاورتان حلت فيهما أسرة من اب وام وخمسة اطفال ، اربعة اطفال فى غرفة ، والوالدان وطفلهمـا الرضيع فى غرفة . لا يهم وجود طلبة عزاب مثل ابن عمى ومثلى فى الشقة نفسها ، فالزحام يفرض تقاليده . عندما تخرج ابن عمى التحق بعمـل بعيدا عن القـاهرة فترك غرفتـه ليحتلهـا الشاويش عرفه وزوجته . كان يقترب من الأربعين وتقترب هى من الثلاثين ، أدركت فيما بعد انهما لم ينجبا ولن ينجبا .

هل كانت ثورة زوجهـا على مجرد ثورة لكرامة زوج أهينت زوجته فى معركة كلامية ؟ فبينى وبينها باب دورة مياه مغلق ، وانا رجل وهى أمرأة لا ينبغى أن تتجـاوز المعركة الكلمـات ، وان جاز ان ترتفع الى حد السباب . أم تراها بسبب ريبتـه مما كان يدور بينى وبينها من مناورات من ورائه ، لابد قـد تسرب بعض فحيحها الى أذنيه ؟ وهل ترى تهورى عليه ـ الذى وصـل حد الذبح ـ لمجرد انه حـاول أن يلقننى درسـا لن انساه ـ على حد تعبيره ـ انتقاما مما لحق بزوجته من شتائم ، أم كى ازيحه من الطريق حتى يخلو الجو لنا ؟ يبدو ان ضربتى كانت أعنف مما قدرته لها ، فهـا هى ذى زنزانتى تخـلو منه ومنها أيضا .

فى أولى سنوات دراستى كرهت المدرسة لأن الأبلة المتجهمة لم تكن تأذن لنا بالخروج لنفرغ مثاناتنا ، بعض زمـلائى كانوا يبولون على انفسهم وانا أرتعب خوفا أن يكون مصيرى مصيرهم . صمدت مرة ومرتين غير انى فى النهاية استسلمت وانا ابكى فزعا .

فى صباى كنت اخرج الى الحوش فارى بيوت النمل التى حفرها فى الأرض خارجا داخلا منها وفيها ، فافرغ مثانتى مسلطا عليها تيار مائها الدافىء الملحى ، ينبثق مزهوا فى ثقة ــ فله طريق وله هدف ــ لينثال متدفقا مندفعا مجدولا ، فى شبه قوس يبرق تحت أشعة شمس خريفية واهنة ، متلالئا بالوان الطيف ، ليعود مرتطما بالأرض الترابية فى نشيش مكتوم ، فيشيع الاضطراب فى طوابير النمل المنتظمة . يتفرق هلعاً ، يحاول كل منها النجاة بنفسه . لكنى الاحقها بما تبقى من قوة اندفاع التيار ، وأنا أرقبه آسفا وهو يتحول الى سلسال رفيع ما يلبث أن يتقطع ويتقطر ، قطرات غليظة تتدافع كانها تشد بعضها بعضا بخيوط وهمية سريعة التكوين سريعة التلاشى ، سرعان ما تتضاءل عددا وحجما ، بينما خيطها الوهمى يزداد انحناء فانكسارا . تتلكأ القطرات ، تتباعد المسافات ، يتغير مسارها وهدفها الأرضى لحظة بعد لحظة ، فتفلت نملة أو نملتان، بينما تتناثر جثث الغرقى فى خليط التراب والبلل ، وما تزال قلة تتخبط بين الحياة والموت تحاول عبثا أن تتخلص من لزوجة بحيرات الوحل ونهيراته .

وكلما انهمر المطر اعتقدت ــ فى تلك السن ــ أن هناك من يبول علينا نحن البشر يريد أن يغرقنا أنا وأبى وأمى واخوتى وجيرانى وأهل قريتى ليستمتع برؤيتنا ــ استمتاعى برؤية النمل ــ ونحن نتخبط بين الحياة والموت . وظل هذا الاعتقاد يؤرقنى ، حتى اننى كنت لا أستطيع النوم فعلا كلما أمطرت ، وحتى بت أكره منظر الغيوم وأتهيب مجىء الشتاء فصل المطر فى قريتى . وعندما كبرت أدركت أن هذا الوهم ربما كان نوعا من تأنيب الضمير أو عقاب النفس للعبثى العابثة مع النمل .

كما أدركت انه وان لم يكن للمطر ما تصورته من قسوة ووحشية، فهناك الحروب وثورات البراكين وفيضانات الأنهار ، والمجاعات والأوبئة قديما وربما فى المستقبل قريبا ؛ تفعل بنا ما كان يفعله افراغ مثانتى بالنمل . أما التيار فقد لاحظت أنه أصبح يتجه الى نهايته بطريقة أكثر مباشرة بحيث تحول القوس الى خط مستقيم يصنع زاوية حادة مع ثلثى الأسفل .

أنا ضيق الخلق والمثانة فلان بن علان بن ترتان ، ارتكبت جرائم كثيرة لكنها صغيرة لمجرد انها لم تصــل الى الشرطة . أما هذه فجريمتى الكبرى ، كانت واظنها الأولى والأخيرة . هل ارتكبتها لحظتها أم كانت مجرد نهاية لبدايات قديمة ؟

روت لى أمى اننى منذ عامى الثانى لم أعد أبول على نفسى على خلاف الأطفال الذين فى سنى . وكانوا من ذلك يتعجبون ، وبه يفخرون أمام ضيوف الأسرة . غير ان مجىء أخى الأصغر ، وفى اليوم السابع على وجه التحديد ــ وكنت قد جاوزت الرابعة ــ اكتشــفوا انى بللت نفسى ليلا . صرخت فى أمى : هل ساعتنى بك ام بأخيك الأصغر ، انت الآن كبرت ، والكبــار لا يبولون على أنفسهم . فى الليلة التالية اكتشفت أمى ان صراخهــا لا أثر له . انهالت على ضربا ومرغت أنفى فى ثيــابى المبلولة فزدتهــا بدموعى بللا . فى الليلة التاليــة هددتنى بحرق « حمامتى » ، فصرخت وبكيت ، قبلت يديها وتوسلت ، وعدت بل أقسمت .. غير انى فى الليلة التالية والليلة بعد الليلة التالية .. أجدنى مبــللا تفوح منى رائحــة عطنــة تقززنى وتفزعنى وتفضحنى كل صــباح .

ذات صباح كنت العب فى الحوش مع صديقى حكرش ابن

عسكرى النقطة ، ذات لحظة اختلفت معه ، قذفته بطوبة شجت راسه . ما ان رايت الدماء تسيل حتى فررت لائذا ببيتنا . كان والداى يشربان الشاى فى مدخل البيت وانا اصيح : العسكرى ، العسكرى . انزعجا لانزعاجى وهمـا يستفسران عما حـدث . ابلغتهما اننى شججت رأس حكرش وانه لابد مبلغ أباه . سيأتى ويسحبنى على نقطة الشرطة ويسجننى . حاولا تهدئتى . أقبلت ام حكرش تشكو لأمى ما فعلته بابنهـا . اعتذرت لها ودعتهـا لتناول الشاى ، وحين همت باسعاف ابنها ، وجدتها قد كبست جرحه بنا مطحونا . رأيتهما يشربان الشاى معا . عدت ألعب مع حكرش وهو معصوب الرأس . فى تلك الليلة استيقظت من نومى وانا اصيح فزعا : العسكرى ، العسكرى . استيقظ والداى . اخذتنى أمى فى حضنها لتكتشف اننى بللت نفسى . بدلا من أن تشعل عود ثقاب ، غيرت ملابسى وهى تحاول طمأنتى .

عندما زارنا قريب متعلم شكوا له من قذارتى وعنادى ، أفتى لهم ــ هكذا رووا لى فيما بعد ــ ان تلك غيرة من أخى الأصغر لأنه يستأثر باهتمام امى ، واننى أريد أن أقول لهم اننى ما زلت طفلا فى حاجة الى عناية أمى وحبها وحنانها مثل اخى . وهمس لهم بعدة نصـائح عليهم ان يتبعوها . فى تلك الليلة منعتنى أمى من شرب السـوائل . فى الليل ــ وأنا ما بين النوم واليقظة ، وقبل ان يهاجمنى العسكرى ــ نزعت عنى أمى اغطيتى واوقفتنى فى الفراش واسندتنى الى صـدرها ونزعت ملابسى السفليـة ووضعت قصرية احسـست بملمسها باردا على فخذى الدافئتين فزاد تنبهى ، ثم هدهدتنى وهى تربت على مؤخرتى لأبول مقلدة بصوتها كركرة مياه صنبور يتدفق .

ــ كيف حاولت قتل عرفه عبده زيدان ؟

ـ قصدت دورة المياه لأفرغ مثانتى ، وجدتها مغلقة . انتظرت . طال انتظارى ، أوشكت مثانتى أن تنفجر . طرقت الباب . لم أسمع ردا . توترت أعصابى . لعنت من بداخلها . استثرته . نفعت حيلتى ، شتمتنى ...

ـ محاسن زينهم عبد الشكور .

ـ زوجة الشاويش عرفة .

لمحته مقبلا مندفعا نحوى بزيه الرسمى وجسده المدكوك وشاربه الكث اختلط سواده ببياضه ، وحبات عرق تلمع على جبهته ، وزجاجة خل فارغة فى يده . وجدتها فى يدى . عندما هممت بضربه بها تفاداها . اصطدمت بالحائط . وقعت على بلاط الصالة قطعتين ، دقات الساعة فى راديو الأسرة التى تسكن الغرفتين الأخريين تترامى الى . لو أن زجاجها تهشم وتناثر ، ربما ما كانت هناك جريمة . والداى كانا يقولان لى كلما رأيانى منفعلا : مصيرك السجن . لكنهما لم يتنبآ بأن مصيرى قد يكون أبعد من ذلك .. أتراه حبل المشنقة لو ان اصابات عرفة افضت الى وفاته ؟ زوجته محاسن أدلت فى التحقيق بغير ذلك . شهدت ان لى اعتداءات سابقة . كاذبة . بل صادقة اذا كانت تقصد محاولات من نوع آخر معها . استيقظ الآن ضميرها . تريد ان تبعدنى نهائيا عنها . ان تكفر عما اقترفته فى حق زوجها وتجعل منى كبش فداء تكفيرها . سأعترف الآن بسر لا ابوح به لأحد ولا حتى بينى وبين نفسى . انا ما أحببت فى حياتى الا عايدة . حبى الأول واظنه الأخير .

فى المرحلة الثانوية جربت كتابة الشعر والقصة طويلها وقصيرها والرسم بل والنحت مرة . أماالموسيقى فقد نما لدى

خب أستماعها . همت بعايدة أجمل بنات مركزنا . لم تكن من فتيات المركز . بل جاءت مع أبيها عند ترقيته ماموراً لمركزنا ، والتحقت طالبة بمدرسة البنات الثانوية . شعرها أصفر ، عيناها زرقاوان ، جسمها ضئيل نحيف ، لها غمازتان تبدوان حين تضحك وحين تبتسم ابتسامتها العذبة . لم اكن اعرف اسمها ولا بنت من هى فى أول الأمر ، ثم عرفت فيما بعد . فشاب حبى خوف . لو كلمتها فربما يسوؤها ذلك وتشكو الى ابيها فيرسل من يقبض على ليلقننى درسا يقتلع حبى لها تماما .

حاولت أن أصنع لها تمثالا نصفيا أهديه لها . من خلال المحاولة أدركت اننى يجب أن اقطع طريقا طويلا من أجل الحصول على وجه من احب ، وهذا يكلفنى وقتا ومالا لا أملكهما . اختصرت بعدا واكتفيت ببعدين ، فانتقلت من النحت الى الرسم ، غير انى ما لبثت ان انصرفت عنه أيضا . كان الى جوارى فى الفصل طالب يرسم اى شىء فى دقائق وبدقة فائقة . اكثر ما يبهرنى فيه دقته فى رسم الوجه الانسانى بعد ان يضيف اليه ويضفى عليه عاطفته نحوه . أو وجهة نظره فيه . رسم بالقلم الرصاص ، وبالقلم الحبر ، على الورق وعلى مكتبه ، وعلى السبورة بالطباشير . رسم زملاءه وهم يضحكون وهم يتشاجرون ، وأساتذته وهم يشرحون لنا الدرس وهم يزعقون ويثورون . لهذا ما لبثت أن وجدتنى أقتصر على الشعر والقصة . ارسلت قصائد سياسية — حتى أضمن نشرها — لأكثر من صحيفة يومية . فى صباح كل يوم اشترى الصحيفة عسانى أقرأ اسمى مطبوعا بالبنط الأسود فى صدر القصيدة او نهايتها ، فلا أجد القصيدة ولا اسمى . لابد أن تكون غير موزونة ، فأنا لم أدرس أوزان الشعر لكنى على يقين من قافيتها الموحدة ، إستخرجت معظمها من القاموس لقلة محصولي اللغوى .

لهذا قررت ان اتخصص فى دراسة اللغة العربية . ورغم أننى كتبت قصائد عاطفية فى عايدة الا اننى ما لبثت ان انصرفت عن الشعر فى الوقت الذى اعتقدت فيه ان القصـــة قد تكون أقل تزمتا وأكثر ترحيبا بى .

والد عايدة يبدو انه رقى من جديد فنقل هو واسرته الى حيث لا ادرى ، عقب ظهور نتيجة الثانوية العامة مباشرة . سمعت انه كان قد أرجأ النقل الى أن تتم ابنته امتحانها . عند تخرجى صـــدمت حين التحقت بعمل لا صـــلة له بدراستى . محصـــل اقساط بشركة التأمين العالمية . قلت أعوض ذلك بمحـــاولاتى القصصية . جربت النشر ، اشتركت فى مسابقات ادبية . قالوا لى هذه مقـــالات وليست قصصا . القصـــة فن ماكر واسلوبك صريح مباشر . آه .... استمحيكم عذرا ، مثانتى ستنفجر ، دقيقتين ...

فى السنة الأولى الثانوية ، كان مدرس اللغة العربيـــة أكثر المدرسين مشاكسة ومداعبة للطلبة . ولابد انه لاحظ ــ كما لاحظ غيره ــ اننى كنت كثير الاستئذان للخروج الى دورة المياه ، لانه قال لى ذات يوم ، وعلى شفتيه شبه ابتسامة : صنبورك يا فلان يحتاج الى اصـــلاح . ضج الفصل بالضحك بينما اســـتطرد أستاذى يتساءل متهكما : لمـــاذا لا تغير جلدته ؟ كان ذلك بعد عودتى من دورة المياه وانا اهم بالجلوس على مقعدى ، أخفيت حرجى بل شاركت زملائى ضحكهم . من يومها نشات الفة بينى وبين أستاذى وصـــداقة بينى وبين اللغـــة العربيـــة . لو انه أحرجنى ومثانتى ما تزال ملأى لاختلفت بلا شك نهاية الموقف ونتائجـــه .

وها أنذا الأن قابع مع جردل يقعى الى جوارى برائحته النفاذة النوشادرية . ما أنفعه . بصيص الخلاص الوحيد فى دنياى اليوم . ما ان تمتلىء مثانتى حتى ابادر بافراغها دون بحث عن دورة مياه لا أعرف مكانها ، او عدو نحو اخرى ستنفجر مثانتى قبل ان اصلها ، أو شجار مع زوجة جار على دورة المياه الواحدة الوحيدة فى شقة نسكنها معا . فيكون الثمن رجلين : الشاويش عرفة عبده زيدان وفلان بن علان بن ترتان محصل الأقساط بادارة الحياة بشركة التامين العالمية ، ومؤسس رابطة ضيقى وضيقات المثانة . وهذا هو الفرق بين زنزانتى ومدينتى : فى زنزانتى اشرب وآكل وأنام وأفرز ـ كالبهائم ـ فى المكان نفسه؛ وفى مدينتى خصصوا للافراز أماكن تتناقص بينما الناس تتضاعف .

ولئن بدت أعراض ضيق المثانة على منذ طفولتى ، فان ضيق خلقى ظهر ـ مثل مواهبى ـ فى سن مراهقتى وان بدت بوادره المبكرة يوم شججت رأس جار الطفولة حكرش . تشاجرت أولا مع أختى الكبرى ، كنت اكتب رسالة الى عايدة (لم ارسلها لانى لم أجرؤ على ارسالها) . كانت تحاول أن تتجسس على . يومها اكتشفت ان بصوتى طبقة عالية لم استخدمها من قبل ؛ خفت منه واستمتعت به لانه لم يكن مرتفعا فحسب بل فيه خشونة غير مالوفة . فى المرة التالية وجدتنى لا استخدم صوتى فقط بل وجسمى يهتز كله بعصبية لم اعهدها من قبل ، حتى اننى تساءلت فيما بعد هل ما وقع منى كان بارادتى أم بغيرها . كان ذلك مع أمى حين ابدت اعتراضها على مواصلة تعليمى بالقاهرة خوفا من بناتها على (قلت لها ان على بنات مصر أن يخفن على انفسهن منى) ، واشفاقا على الميزانية المتواضعة لأسرتنا .

لم ما لبثت أن وجدتني أستخدم صوتي وبدلي وقبضة يدي ، ضربت بها قاعدة خشبية لكرسي قريب مني فتهاوت تحتها . ولولت أمي : من اين نأتي بالمال نشتري غيره أو حتى نصلحه ؟ ومع ان ابي صاح مهددا ألا انه لم يجرؤ ـ للمرة الأولى في حياته ـ أن يمد يده على وجهي . أدركت يومها انه خاف مني ومن ثورتي ، كما اكتشفت قوتي الخارقة ، بعد ذلك امتدت ثوراتي خارج نطاق الأسرة . كنت ابدو هادئا أمام الغرباء حتى ليضربون بي المثل فيما يسمونه الأدب ، غير اني ما لبثت ان أصبحت سريع الثورة سريع الرضا .

بعد ان تخرجت والتحقت بالعمل قصدت طبيب أعصاب ، لعل ضيق خلقي أن يكون مرضا يمكن الشفاء منه . في نهاية الفحص قال لي الطبيب : في حدود معرفتنا الطبية لا يسمى هذا مرضا ، انه سمة خلقية (بكسر الخاء وتسكين اللام) وليست خلقية (بضم الخاء واللام) تماما كأن يكون وجهك طويلا أو مدورا أو منبعجا . وقد يصل التقدم البشري والقدرة على التحكم في مراكز المخ يوما ما الى معالجة أمثال هذه الحالة ، حينئذ تنتقل من خانة الاسوياء الى خانة المرضى ، وهو ما لا اتمناه . الجنس البشري هو الجنس الوحيد القادر ان يحول كل نعمة الى نقمة . ستظهر قلة ـ كما ظهرت دائما ـ تسيء استغلال مثل هذا التحكم فيمن يخالفها من الكثرة . كان التقرير عاقلا للغاية ميئسا للغاية .

ـ تقول محاسن انك كنت تغازلها وهي ترفض غزلك .

ـ بل هي التي كانت تحاول . انا فلاح لا اخون جاري .

ـ عندئذ وصل الشاويش عرفة .

ـ وكانت هى قد خرجت من دورة المياه تواصل شتائمها ، فامسك الشاويش بزجاجة خل يحاول ان يضربنى بها .

رقبة الزجاجة فى ناحية وبقيتها فى ناحية اخرى ، لو لم ابادر بالتقاطها لالتقطها هو . الساعة ـ فيما يبدو ـ انتهت دقاتها . بقفزة واحدة كان جسم الزجاجة بحافته الدائرية المدببة فى يدى . فى لمحة خارج الزمن غرزت اسنانها الحادة فى راسه .. فى صدره .. فى رقبته التى تكشفت لى وهو يترنح. لابد ان تكون الخامسة فانا اسمع اذاعة ما يشبه اللحن المميز لنشرة الأخبار . كالنافورة تفجرت دماؤه ساخنة لزجة ، كما تفجرت ولولة محاسن . اخترق الجيران الجدران ، انشقت عنهم الأرض ، هبطوا من السقف ، اقتحم احدهم حلبة المعركة ، جاء متاخرا . عرفه ممدد على بلاط الصالة ، ثوبه الرسمى ملطخ بدمائه ، يخرج حشرجات من فمه او انفه ولعلها من جوفه . يرفس بساقيه وقدميه كما كانت ترفس الدجاجة حين كانت تذبحها امى فى قريتنا . ادركت هول ما فعلت . تمنيت لو ان الزمان ارتد خمس دقائق .. دقيقتين .. دقيقة واحدة فقط . لابد اننى غبت عن الوعى لحظات ، عندما افقت كان قد انقطع ما يبدو انه نشرة أخبار .

اندفعت محاسن نحوى وقد شرعت فى يدها بقايا الزجاجة ، على اسنانها بقايا دم ما بين السيولة والتخثر ، غير أن الأجساد والأذرع والصرخات المحذرة حالت بينى وبينها . باب دورة المياه ما يزال مفتوحا . اندفعت نحوه كانما لأنجو . أغلقته على نفسى. حاولت أن أفرغ سريعا مثانتى المتفجرة قبل أن يستجيب الباب المتهالك لطرقاتهم المجنونة وصرخاتهم الملعونة ، فيقتحموا على

خلوتى وتنكشف لهم سوأتى . غير أنى فشلت فى أن تخرج قطرة واحدة . اكتشفت ـ يا للعذاب ـ ان البول احتبس فى مثانتى .

فى التحقيق كان أول ما طلبته من محققى أن أفرغ مثانتى ، عندئذ فقط استطيع ان أجيب على اسئلته .

ـ لماذا حاولت قتل الشاويش عرفة عبده زيدان .

ـ كنت محصورا يا سيدى المحقق .

ـ كنت فى كامل وعيك .

ـ فى قول ماثور الا فتوى لقاض محصور .

عندما كنت ازور صديقا فى بيته ، كنت احاول ان أبدو مثل بقية ضيوفه ، اشارك فى المناقشات العقيمة ، أضحك بصوت مرتفع احيانا متخافت أحيانا ، ابدى دهشتى مما أسمع من حين لآخر . لكنى ما البث ان أحس بدبيب ذلك الضيق السفلى ينمو شيئا فشيئا . يحتل فى أول امره حيزا ضئيلا ، لكنه لايزال يتضخم وينتشر فى اصرار وبلا رحمة ، كان هناك من يدفعنى الى ليل طويل بلا نهاية حتى أدلف الى ظلمة الظلمات ، ينهار العالم المتماسك ، تتفكك الروابط ، وانا أحاول جاهدا ان أبقى على صلة بينى وبين عالم الآخرين ، ارقبهم عسى أن يكون هناك من هو مثلى ، اؤجل النطق بكلمتى لعل آخر يفصح بها قبلى ، فيحمل عنى حرج ارتياد مسلك يقتحم على الجالسين ثرثراتهم ، ويقطع عليهم ـ ولو للحظة ـ متعهم البسيطة الساذجة ، حتى اذا وجدت ان الأمر لم يعد يحتمل المجاملة ، اقرر أن أضع حدا لمعاناتى ، واتحين فرصة اقتراب رب الدار منى ـ ربما ليقدم لى سيجارة لا ادخنها ، أو يصب لى فنجان شاى آخر لو شربته لضاعف

محنتى ــ فأغامر هامسا : لا تؤاخذنى ، اين دورة المياه ؟ والحظ انني بهذه المجموعة المنتقاة من الألفاظ قد سببت له ارتباكا لاشك فيه . فدورة المياه هى آخر مكان يهتم اصحاب البيت بتهيئته ؛ ولا يخطر على بال الكثيرين منهم ان ضيوفهم قد يغادرون حدود الصالون الذى بذلوا كل الجهد حتى يجعلوه واجهة البيت . وقلما تضع ربة البيت هذا الطلب الغريب المفاجىء من أحد ضيوفها موضع الاعتبار ؛ فما أكبر النقلة من صالون البيت الى دورة مياهه . وهكذا يطلب منى ان انتظر قليلا ــ ومثانتى تكاد تنفجر فتشغلنى عن كل شىء حولى ــ ريثما تنتهى ربة البيت من تهيئة دورة المياه ــ فى محاولة ان تجعل منها صالونا آخر ــ وتهيئة الطريق اليها . كأنما تدرك اننى اذا كنت مشغولا عن كل شىء فى رحلة الذهاب فلن أكون كذلك فى رحلة العودة . ستتغير شخصيتى تماما . أهدأ بعد توتر . أفلت من عالمى الكابوسى ، من سجن مثانتى ، لتطل مشاعرى من جديد على العالم الخارجى . فأنتبه فى عودتى الى ما لم انتبه اليه لحظة محنتى . لهذا فلابد انها تزيح من الطريق أية لعب او أحذية قد اتعثر فيها ؛ أو لعلها تخبىء أكوام الغسيل المتسخ فى المطبخ . وتشد السيفون ، ليجهش ــ ان كان سليما ــ بماء فوار مكتسح. وتكسو المرحاض وما حوله بقطع للزينة ليصبح كأنه أحد كراسى الصالون ، وتضع فيه ما يعطره كأنما وجد لغير ما أنشىء له .

عندئذ يسمح لى بالانتقال من واجهة المنزل الى مؤخرته ، من شعوره الى ما تحت شعوره . يصحبنى فى الرحلة اليه ــ بزعم انه مرشدى فى الطريق ــ رب البيت او أحد ابنائه ، فها انذا موشك ان اكشف عورة البيت .

ولقد علمتنى تجاربى ان دورة مياه البيت دليل على مستوى حضارة سكانه . تماما كما ان دورات المياه العمومية دليل على المستوى الحضـــارى للشعوب . عندما كنت أبحث عن عروس لى ؛ كنت أتعمد دخول دورات مياه البيت التى أزور أهلهـــا بهذا الهدف . دخلت مرة دورة مياه أسرة متواضعة ، كان واضحا انها فى بناء قديم ، متسعة اكثر من اللازم ، ربما اكثر اتســـاعا من الصالون أو حتى من الصالة نفسها . بلاطها المعصرانى مكسر فى أكثر من مكان ، طـــلاء جدرانها تآكل بفعل الرطوبة ، ومع ذلك فان نظافتها تكاد تنطق . ولم تسبقنى ربة البيت دقيقة واحدة لتهيئتها . ربما كان هـــذا دليلا على بعد نظرها والاستفادة من خبرات سابقة سببت للأسرة مآزق فى مناســـبات مماثلة فحرصوا على تهيئة دورة ميـــاههم ــ حرصـــهم على تهيئة صـــالونهم ــ لاستقبال اى ضيف فى اية لحظة . ورغم هذه التحفظات فقد كان هذا دلالة ــ فى رايى ــ على مدى ما بلغه أصحاب البيت ــ برغم تواضع مستواهم ــ من تقدم حضارى ، حتى اننى فكرت جديا ــ ربما لأول مرة فى حياتى ــ ان اتزوج ابنتهم الشابة ، لولا اننى اكتشفت اننى لا املك ــ دون معاونة الطرف الآخر ــ ثمن شقة اشتريها أو حتى أدفع خلوها .

أثناء دراستى فى السنة الثالثة بقسم اللغة العربيـــة كان من المقرر علينا مقامات الهمـــذانى الذى عاش فى القرن الرابـــع الهجرى أو العاشر الميلادى . شدتنى مقامته المضيرية حين دعـــا التاجر البغدادى البخيل الثرثار ضيفه الى أكلة مضيرة ، وبدلا من أن يحضر الطعـــام جعل يصف له كل غرفة وكل قطعـــة فى بيته : من أين جلبها وكيف اشتراها . فلما طلب ضيفه الذهاب الى دورة المياه ــ وكان يسميها الكنيف كما لا يزال يسميها أهل

قريتي ـ مقى يصف جوها المعتدل ربيعا المشمس خريفا ، تفوق مثيلتها فى بيوت الأمراء والوزراء . سقفها جص وارضها مرمر . جدرانها ملساء تنزلق عليهـا ادق الحشرات ؛ مفاصل بابها خليط من الساج والعاج . يتمنى الضيف أن ياكل فيها . فما كان من الضيف ، وقد أرهقه الجوع والثرثرة ، الا ان رد عليه : كل انت من هذا الجراب ؛ لم يكن الكنيف فى الحسـاب ، وخرج نحو الباب ، واسرع فى الذهاب .

لقد كان أكبر ما يفزعنى عندما قادونى الى هنا ان يحبسونى فى زنزانة بلا دورة مياه ، ، فلا يسمحون لى أن افرغ مثانتى مع فضلاتى الأخرى ـ كما كنت اتصور ـ الا مرة كل صباح عندما نتسلم طعامنا وياذنون لنا بالذهاب الى دورات المياه . لكن ما ان دخلت زنزانتى واكتشفت محتوياتها حتى تبددت مخاوفى . لاشك ان من وضع لائحـة السجون كان ـ على قسـوته ـ رحيمـا او ـ على الأقل ـ متفهما حاجة امثالى الى افراغ مثاناتهم اكثر من مرة كل اربع وعشرين ساعة . ولعله قد أجبر على ذلك بسبب ثورة حدثت يوما ما فى سجن ما من جانب مجموعة من المساجين ضيقى وضيقات المثانة . ولعله تطور ادخل على السجون حديثا بسبب مطالبة من جانب انصار حقوق الانسان .

فى العام المـاضى اتيح لى أن أسافر الى أوربا فى بعثة صيفية للتدريب على اعمـال التأمين ؛ أعجبت بالكثير ولم استرح للقليل. لم يبهرنى شيء مثلما بهرتنى دورات المياه : أضواؤها . نظافتها ، جمالها المعمارى ورائحتها العطرية . حين دخلتها اول مرة لم اكن اريد ان اغادرها بسـبب ما أحسسته من راحـة نفسـية بالاضافة الى راحتى البدنية . لاحظت ان حدة طبعى خفت بل كادت تتلاشى . لم أعد اتشاجر لأتفـه الأسباب ، لم اعد اصل

الى حد الانفجار . كلما امتلأت مثانتى أمكننى ـ بكل بساطة ، بلا مشقة ، بلا تعقيدات ـ ان افرغها . الميـادين العموميـة ، الشوارع الرئيسية ، الطرق الجانبية ، المطـاعم ، القطارات .. كلها مهيأة ـ يا لسعادتهم القصـوى ـ بدورات مياه عمومية . فالانسان مدخل ومخرج لا يستغنى احدهما عن الآخر .

عندما عدت مع زملائى لم يكن لنا حديث الا المقارنة بيننا وبينهم . غيرى يتحدث عن نظامهم وفنون ادارتهم ، عن العنايـة بآثارهم او مصانعهم ، عن بضائعهم الاستهلاكية ، وانا اتحدث عن دورات مياههم العمومية والخصـوصية ، وعن كلابهم وقططهم المسموح لها وحدها ان تبول علنا على ارصفة الشـوارع وتحت جذوع الأشجار .

شىء واحد أفسد على متعتى ذات ليلة . دعيت الى حفل موسيقى ، فى بداية الحفل استمتعت بالموسيقى الحالمـة حينا الصاخبة حينا ـ على قدر تذوقى لموسيقاهم ـ غير انى ما لبثت ان احسـست بتلك البدايات اللعينة تتسلل فى تخابث الى مثانتى. كنت أعلم ان دورة المياه على بعد خطوات منى ، لكن ما أقربهـا وما أبعدها الآن ، فدونى ودونها تقاليد حضـارية . كانوا ـ على حد تعبير اجدادنا القدماء ـ كأن على رؤوسهم الطير ، فكيف لى ان أهشـه الآن ، وأفسد عليهم متعتهم وانسجامهم . كان على أن أدخل فى معركة مع الصبر ، وأن أتحمل وحدى مسـئولية عدم افراغ مثانتى قبل الحفـل مبـاشرة . تخافتت أصـوات الموسيقى ، لم يعد يصلنى منها الا أصوات آلات النفخ وقرع الطبول حين تعلو فجـاة فاطفو لحظة من عالمى الداخلى لأعود غائصـا فى بحيرة الملح والنوشـادر توشـك أن تفيض ، بينمـا ألمح ـ كشبحين بعيدين ـ رأس المـايسترو وعصاه وهما يهتزان

معا والآلات الوترية بأحجامها المختلفة ، لأرتد الى عالم كابوسى لا يشاركنى فيه أحد آخر . هو محنتى وحدى وعلى أن اختار احدى الفضيحتين : أن افتح للبحيرة الملحية سدودها فتفرقنى، كما فعلت ذات يوم حين منعتنى الأبلة المتجهمة من مغادرة الفصل، أو اهش الطير عن الجالسين والوذ بالفرار . وقد فضلت الحل الثانى .

من يومها تهيبت حضور هذه الحفلات . فلما تاقت نفسى لمشاهدة مسرحية هزلية قبل عودتى من بعثتى بيوم ، وانتابتنى النوبة ، تحينت فرصة ضحك الجمهور وتصفيقهم عند مشهد مضحك ، وتسللت الى دورة المياه وهم عنى غافلون لاهون ، ثم عدت الى مكانى وذيول قهقهاتهم ما تزال تسمع فى أماكن متفرقة من القاعة ، مما اغرانى بالقهقهة بدورى ، لولا ان المتفرجين فى صفى كانوا كلهم قد عادرا الى وقارهم .

قصدت طبيب المسالك البولية ــ كما قصدت طبيب الأعصاب من قبل ــ لعل ضيق مثانتى أن يكون هذه المرة مرضا يمكن التخلص منه . فرض على طقوسا قبل الفحص : ان اصوم نصف نهار كامل بل أفرغ جوفى تماما بكل الوسائل المتاحة من مدخلى الى مخرجى ، من شربة الزيت الى حقنة الماء الدافىء . فى الصباح التقط لى اخصائى الأشعة صورا من مختلف الأوضاع بعد ان أعطانى حقنة ملونة ، وان كان لا لون لها . فى اليوم التالى ذهبت الى طبيبى فسلمنى تقريرا أفرحنى وأحزننى. فلا علاج ولا دواء . ضيق خلقى طبع وضيق مثانتى طبيعة . ومع ذلك ــ ومن باب الاحتياط ــ نصحنى بعدم التعرض لبرودة بعد دفء ، وافراغ مثانتى أولا بأول ، وتجنب الكحول والبهارات، والمثيرات المهيجات . وان كل مدر مضر .

ـ اريد ان ابول على العالم كله .

ـ انت شديد الطموح .

ـ بل شديد الاحباط ، ازالوا دورات المياه من مدينتى .

ـ لتصبح اكثر جمالا .

ـ فاصبحت اكثر قبحا .

فى السنوات العشر التى عشتها فى عاصمتنا ، لاحظت ان السادة المشرفين على تنظيم ميادينها وتجميل شوارعها يصدرون اوامرهم بازالة دورات المياه العمومية واحدة وراء الأخرى ، ونسوا ان يصدروا اوامرهم بأن تزال من الناس مثاناتهم .

وحتى لا تصبح عاصمتنا مرحاضا : كل حائط وكل جذع شجرة وكل ركن فيها مستباح ، تحمست للدعوة لانشاء رابطة ضيقى المثانة وضيقاتها . اشكر المولى عز وجل لأنه خلقنى رجلا وليس امراة . الرابطة اولا لهن ، كان الله فى عونهن . جاء فى المذكرة التوضيحية لمشروع انشائها ان من أهدافها :

ـ نشر الوعى المثانى . (لمحت ذات مرة رجلا يبول على كورنيش النيل على بعد أمتار من دورة مياه عمومية ـ ازيلت الآن ـ فلما سألته لماذا لا تدخل دورة المياه وهى قريبة منك ؟ أجابنى ـ وهو ما يزال يبول ـ وما شأنك ؟ مما أحزننى حزنا عميقا لأنه أفهمنى اننى لابد قد تدخلت فيما لا يعنينى) .

ـ رسم خرائط توضيحية وعمل رسوم بيانية بدورات المياه العمومية فى مدن العالم الرئيسية (وقد اتضح ان

مدننا المصرية ــ ومعظم البلاد العربيــة ــ من أفقر مدن العالم فى هذه المعالم الحضارية ؛ بحيث ينحنى عندها الخط البيانى انحناء شديدا فى رسومنا التوضيحية) .

ــ انشاء فروع لرابطتنا فى المدن المصرية من اسـوان حتى الاسكندرية . (ونظرا لارتفاع ثمن الأرض فقد قررت رابطتنا ان تنشىء دورات المياه العموميــة التابعة لها راسيا لا أفقيا ؛ بمعنى ان نبنى فى كل مدينة ــ وفى حدود ميزانيتنا ــ مجمعا من دورات المياه) .

وانا اعرف جيدا مواقع دورات مياهنا العموميــة ــ على قلتهــا ــ فى المدن والشــوارع الرئيســية ، والموانىء الجويــة والبحرية ، ومحطات السكك الحديدية . واعرف دورات الميــاه شبه الخصوصية ، فى المطاعم والمقاهى والأندية والفنادق ومحــال البضــائع الاستهلاكية . اعرف كثرتها وقد تحولت مباولها الى مستنقعات ضحلة طينية ، تتصاعد منها روائح نفاذة نوشادرية ، تغص بالداخلين والخارجين ، يخوضها المنتظرون الملهفون المتأهبون على أطراف أحذيتهم ــ مثلى ــ قلقين متوترين متربصين ، قــد سد فرد أو فردان منهم انوفهم بأصابع يد أو بمنديل متقززين ، حتى اذا افرغوا مثاناتهم غادروها راضين مسترخين .

كما أعرف ندرة منها متواضعة النظافة ، يقف على بابهــا أحيانا صبى أسمر فى زى رسمى ، يحمل منشفة نصف مبتلة شبه نظيفة ، يتوقع من عملائه أن ينفحوه أجر راحتهم البدنية النفسية.

هى منقذى وخــلاصى ، يصــدمنى ويحبطنى أن اكتشف احداها قد زالت ، يبهجني ويرفع معنوياتي ان أجد احداها قد

زادت . بدونها تتحول القاهرة أمامى الى فصـــل كبير يتجول فيها طفل محروم مهموم ، مهزوم مأزوم .

تذكرت الآن هدفا هاما من أهداف رابطتنا : التأريخ لدورات المياه محليا وعالميـــا بعد الاتصال بالروابط المماثلة فى الخارج ـ ان وجدت ـ مع التركيز على الأقسام الخاصـــة منها بمباولها ، ومتابعة تطورها منذ كانت على الجسر أو بين المزارع ثم تحت جذوع الأشجار فأسافل الجدران والحفر فالجرادل .. حتى تطورت فى اتجاهين متضادين : اتجاه وصل الى قمته فى كنيف التاجر البغدادى فى القرن الرابع الهجرى يتمنى الضيف أن يأكل فيه ، واتجاه مضـــاد انتهى الى أن تكون بركا موحلة خبيثة الروائح يعاف المزنوق ان يقربهـــا . ودلالة هـــذه التطورات حضـــاريا وأثرها اجتماعيا واقتصاديا ونفسيا وجنسيا واخلاقيا وثقافيا وفنيا وعاطفيا وجماليا ... الخ .

فى الليـــلة المـــاضية ، وانـــا ما بين النوم واليقظـــة رايت الشاويش عرفة يزحف نحوى ملطخا بدمائه وهو يصيح : فتحت راس ابنى حكرش . حاولت عبثا ان أفر منه وانـــا أصيح صيحة الطفولة المذعورة : العسكرى ، العسكرى . حتى صحوت فزعا لأجد ان البول يزحم مثانتى . حين أفرغتها تذكرت ان أبا حكرش مات منذ زمن بعيد ، ولم يكن شاويشـــا فى يوم ما وان هـــذا كان حلم حياته .

ـ يا فـــلان بن علان بن ترتـــان .. انت مدان ، بالشروع فى قتل الشاويش عرفة عبده زيدان .

ـ دفاعا عن نفسى .

ــ فقدت نفسك دفاعا عنها .

ــ فى قول مشهور لرجل مغمور ، ان المحصور ــ يا سيدى القاضى ــ كالمخمور ، شخص معذور .

ــ بل شخص مسئول .

قفص اتهامك ليس فيه دورة مياه ولا حتى مجرد جردل . مثانتى .. لا تؤاخذنى .. توشــك ان .. اوشكت .. انفجرت .

يوليــو ١٩٨٠

الأم والــوحش

لقطــة قريبــة :

سمعت أم سيد صرخة طفلها ، متحشرجة خافتة كأنهـا تساقط أوراق الشجر الجافة . وكانت قد تركته نائما فى ظل الجميزة الوحيدة القريبة ، تأمل أن تستريح من ضجته وشقاوته حتى تنتهى من غسيلها . لكنه صرخ صرخته الخافتة المتحشرجة فتركت ما بين يديها من ملابس واسرعت بعيدا من المجرى حيث لمحت طفلها يتقلب وعلى بعد أذرع منه عينين خضراوين ملتهبتين لحيوان متوحش جائع .

الجسر بعيد عن القرية ، واقتراب الشمس من نهايــة الأفق الغربى يزيد المكان وحشــة ووحدة وســكونا ، والحيوان يقف متربصا ، لعله تأهب لاقتناص فريسته ثم اكتشف عنصرا دخيلا ، فتريث يستوثق من قدرة هذا الخصم .

ام سيد لم تلمح فى أول الأمر شيئا واضح الملامح ، بل احست بالشعاع الأخضر الرهيب يخرج من عينيه لينفذ فى صدرها

فيسرع لتلمسها وفى قلبها لتسرع دفأته ، بل وفى معدتها فتكاد ان تتقلص . تلك صدمة المفاجاة الاولى ، ثم ما لبثت ان سيطرت على مشاعرها ، وهى تفكر فى سرعة كيف ترد الوحش عن طفلها .

كان اشتبه بالكلب الضخم : لعله ذئب ولعله ضبع ، فلم تر احدهما من قبل وان سمعت كثيرا من حكايات اهل القريـة عنها . لو كانت وحدها لقفزت فى المـاء : سمعت فيما سمعت أن هذه الحيوانات لا تغامر فى الدخول فى معركة مع فريستها فى المـاء لكنها لا يمكن أن تترك ابنها سيد ياكله الوحش .

ارتابت لحظة الا يكون ما أمامها وحش حقيقى ، لعله عفريت كهذا الذى ظهر للبنت مرمر بحوش الجزارين وهى فى طريقهـا ليلا من بيت خالتها شرقى البلد الى بيتها غربا . لكنـه لم يكن وحشا كهذا الذى امامها ، كان حمارا ثم تحول الى جدى استطالت ارجله حتى قارب طوله أن يمس خطافات الذبائح ، بمجرد ان قرات الفاتحـة اختفى . تمنت سيدة أن تطول اقدامه . قرات الفاتحة عدة مرات . استمدت منها شجاعة وان لم يختف الوحش أو حتى تستطيل ارجله وأذناه .

هل الأفضل أن تتقدم لتهاجم أم تنتظر لتدافع ؟ وقالت لنفسها : لابد أن الحيوان يفكر بدوره تفكيرى نفسـه .

يداها ما تزالان مندتان ببقايا المـاء . نسـمة هواء هبت فزادت برودتهمـا ومنهمـا سرت البرودة فى كل جسـدها فاقشعرت . خشخشت أوراق الشجرة الضخمة فوقها ، بينما اهتزت عيدان الأذرة فى حقولها على الطرف الآخر البعيـد من الطريق .. وخلفها قرص الشمس « أتون » أحمر ينطفىء وينحدر نحو المغيب .

جرى نحوها طفلها محتميا فيها ، مخفيا عينيه بين فخذيها.
عوى الحيوان : أوونه .. أوونه .. أوونه . فارتجف قلبها لحظة . لعله أدرك صعوبة الموقف ، لعله يخيف خصمه ، لعله ينادي زميلا له . أما هى فقالت : لعل أحدا يسمعه فيأتى لنجدتي . أرهفت أذنيها .. ثانية ثانيتين .. ثلاثا .. لا تسمع وقع أقدام ؛ لماذا لا تصرخ هى بدورها ؛ كيف غاب عنها ان تستنجد بصوتها القوى ؛ طالما استخدمته فى أفراح الأحباء والأقرباء وجنازاتهم ، ولا تستعين به اليوم فيما هو أهم وأخطر ؟ خرج منها صوت أشبه بالفحيح ، خانها اذن ، أدركت لماذا لم تستخدمه . غير انها بمجهود ارادى ــ ولعله غير ارادى ــ سرعان ما فكت أساره وأطلقته من محبسه فمضى يلعلع مدويا مرسلا اشارة الخطر والفزع وسط صمت قاس غير مكترث ، يشاركها ابنها ببكائه انفعالا وخوفا ؛ فيتكون من صوتيهما جوقة ودفاع عن النفس لا انتظام فيها حتى بح الصوت منها وأدركا عبث المحاولة .

المعركة معركتها اذن وحدها .. فحصت الأرض بسرعة تبحث عن سلاح .. لمحت بين الأحجار المبعثرة حولها حجرا متوسط الحجم مدببا على مبعدة ذراع منها . هل يصلح سلاحا فى مثل هذا الموقف .. ليس هناك غيره . الحيوان واقف لا يتأخر ولا يتقدم . لونه الرمادى أشبه بلون الأفق المتحول الآن نحو قتامة ما تزال تشتد وتوغل ، حتى لتوشك الحدود بينه وبين ما حوله ان تتداعى مما يسلبها وسيلة تحديد عدوها ورصد تحركاته . ونقيق الضفادع قد اخذ يعلو على حافة المجرى .

إذا تسلقت الشجرة هل نجت أم انتهت ؟ تأملتها ..

شجرة جميز ضخمة عتيقة ، ربما فى عمر هؤلاء الملوك الذين بنوا لأنفسهم مقابر منحوتة فى الجبل فى البر الغربى ، ومعبدا كبيرا مليئا بالأعمدة ومساخيط الكباش فى البر الشرقى . عندما كانت تسافر الى سوق الأقصر ، يوم السبت من كل أسبوع ، كانت فى طريقها الى السوق تشاهد أفواج السائحين بوجوههم الحمراء وقبعاتهم وكاميراتهم ونظاراتهم القاتمة وأثواب نسائهم الملونة لا تغطى من الجسم الا أقله . السواح يأتون الى هناك من بلاد بعيدة لأن الأقصر قديما كان اسمها طيبة ، وطيبة كان يعيش فيها ملوك مصر القدماء . التراجمة ينادونها مداعبين : نفرتيتى .. نفرتيتى . ومرة دعاها واحد منهم لتقف أمام عدسة سائح وهما يرطنان معا ويشيران نحوها بكلمات لم تفهم منها سوى : نفرتيتى نفرتيتى . وعندما سألت علمت أن نفرتيتى كانت زوجة جميلة لأحد هؤلاء الملوك القدماء .. قدم هذه الجميزة .

تأملت الشجرة من جديد . اكتشفت ان بعضهم قد وضع شبكة حول اغصانها المرتفعة حتى تمنع العصافير المتطفلة من التهام ثمار الجميز الناضجة وحتى تتلقى ما يسقط منها عندما تنفصل عن أغصانها فلا يقع على الأرض وتدوسه الأقدام . طالما لعبت تحتها فى الليالى القمرية واكلت جميزها .. وأمها تحاول منعها من الخروج ليلا .. تخيفها ان ضبعا أو ذئبا قد يفترسها .. فتصدق ولا تصدق .. يخاف قلبها ولا تخاف قدماها . فتذهب وتلعب وتعود تحلم أحلاما مفزعة . دائما تحلم انها فى معركة مع حيوان كثير الشبه بهذا الذى أمامها .

بحركة شبه غريزية حملت طفلها وامكنته أن يتشبث بالجميزة حيث ينحنى جذعها الى فرعين ضخمين ، والطفل يبكى

لا يريد أن يتركها ، وهى تصرخ فيه ان لم يمتثل لها فالببع سيأكله ؛ وهو لا يصدق ان هناك مكانا اكثر أمنا له من حضنها .

الوحش أحس ان الأم سلبته فريسته السهلة . قرر اخيرا أن يعمل . ارتد بعيدا عنها ليعود مهرولا فى سرعة خاطفة : تماما كالبرق . احتمت منه خلف جذع الجميزة ؛ لكنه لم يحاول مهاجمتها بل مر على مبعدة بضعة أذرع منها . هل تراه يحاول ان ينال من اعصابها لتنهار فتصبح فريسة سهلة لا تقاومه ؟ لابد وان يكون ضبعا ، هكذا قالت لنفسها . فأهل القرية يقولون أن للضبع شوكتين فى رقبته ؛ شوكة فى كل جانب ، فلا يستطيع ان يميل بوجهه يمينا أو يسارا ، فاذا جرى فانه يجرى فى خط مستقيم .

من جديد عاد بنفس السرعة ، وان أصبح الخط المستقيم أكثر اقترابا منها حتى أن ما اثاره من غبار حجب الرؤية عنها لبضع ثوان . فى البلد يقولون ان شعار الضبع : اعطنى واحدا فى طول النخلة ولا اثنين فى طول السخلة . فى البندر لا يعرفون أن السخلة هى العنز الصغيرة . هو جبان اذن يحب أن ينفرد بضحيته . لكن أليست هى وابنها اثنان ؟ لئن كان ابنها فى طول السخلة فطولها لابد أن يكون فى طول النخلة لماذا اذن يتحرش بها هذا الوحش ؛ لابد اذن انه ليس ضبعا .

ها هو ذا مرة اخرى يعدو مقبلا فى اتجاهها ، الخط المستقيم اصبح أكثر اقترابا ، الغبار أكثر كثافة . وقع اقدامه أوضح صوتا . وقف على مبعدة منها كأنما يزن أثر محاولاته فى خصمه . استطاعت أن تسمع تنفسه .. بل تنفسها .. لا بل تنفسه . البلل يغطى جسدها كله حتى لكأن ثيابها التى عليها كهذا الغسيل الذى تركته ملقى على حافة المجرى ، فاطمة بنت

الشيخ عبد الدايم روت لها ان والدها كان عائدا على حمارته في طريق المقابر ذات ليلة ، حين قابله ضبع . تسمرت الحمارة ، وانتصبت أذناها ، وافسحت ما بين قدميها الخلفيتين ثم تبولت ، وقد استطاع أن يحتمي باحدى المقابر هو وحمارته طوال الليل حتى انصرف الوحش يائسا في الفجر . فلما خرج من مكمنه اكتشف بعينيه ـ وعلى ضوء النهار ـ ان حمارته بالت دما .. أتراها تبول الآن دما ؟ .. لا وقت لاكتشاف الحقيقة .

الوحش مقبل للمرة الرابعة نحوها ، لعله سيحتك بها هذه المرة ليطرحها في المرة التالية أرضا كما سمعت وينهش أول ما ينهش عجيزتها وهي ما تزال حية ، اشهى طعام فيما سمعت لدى الضبع أو الذئب . في ليلة الزفاف كانت من اشهى كنوز جسدها لدى زوجها . طفلها سيد في الرابعة من عمره الآن ، لابد وانها بدورها في الثانية والعشرين ، جميلة وقوية ، ممشوقة وفتية . ذلك اذن كان منذ خمس سنوات . اليوم يقول لها ابو سيد انى المس عجيزتك كما المس عجيزتي تماما .. لا فرق ، ويضحك . غير انها تعلم انه كاذب ، انه يغيظها وتلك احدى طرقه في مداعبتها . وامه يغيظها انهما يتضاحكان امامها ، تريد أن تستعيد ابنها ، أن تستولى عليه بعد أن أصبح ملكها ، لكن هيهات . هذه ذئبة أخرى ، بل لبؤة لكنها عرفت كيف تنتصر عليها في معارك كلامية ومخلبية .

انحنت نحو الأرض . التقطت الحجر المدبب ودفعته بكل قوتها بين عيني الوحش الملتهبتين وهي لا تكاد ترى شيئا .. من الخوف .. من الغبار المتكاثف .. بسبب الظلمة التي زحفت الآن تماما . لكنها لابد قد أصابته . وقالت لنفسها اما أن ينصرف

عنى وأما أن يزداد هياجه وتصميمه وانتقامه ، وعلى أن أتأهب لأى احتمال .

فى ثوان اختطفت الفراش الذى كان ينام عليه سيد تحت الشجرة . كان مكونا من ثوبين لأبيه . ثم تسلقت الجميزة بينما دفعت طفلها الى فرع أعلى تأمره أن يتشبث بيديه ورجليه . وحرصت هذه المرة أن تكون الشبكة تحته حتى تتلقاه اذا ما قدر له الوقوع ولا تتلقاه الأرض أو الوحش .

لمحت بجوارها فرعا طويلا فى سمك عصـــا زوجهـــا يتدلى من فرع أكثر سمكا ؛ وبكل ما فيها من عنف وخوف ورغبـــة فى الحياة امسكت بقبضتها اليمنى منتصف الفرع وجذبتـــه فانحنى نحوها دون أن يستسلم لها بينما اهتزت الشجرة الضخمـــة هزة خفيفة ، لو كان جافا لانقصف من هول الجذبة لكن ما يجرى فيه من عصـــارة حية جعلته أقرب الى الوتر المشدود . عادت تبعد الفرع عنها ثم تعود فتثنيه نحوها ، مرة واثنتين وثلاث فى سرعة جنونيـــة حتى لان لها وان ظلت بعض أليافـــه متشبثة بالغصن الأم . حاولت ان تنال بالحيلة ما لم تنله بالعنف ، وفى لحظات كان هناك سلاح جديد فى يدها .

الوحش يتحرك ذهابا وايابا بجوار الشجرة فى هرولة خفيفة وربما فى عصبية ، وهو يقترب منها شيئا فشيئا ، حتى اذا أصبح أسفلها تماما وقف ينظر بعينيه الملتهبتين فى حلكة الظـــلام الى فريستيه . ثم مضى يتشممها بانفاسه العميقة المتلاحقة ، وربما بسبب ما بذله من مجهود وربما هى طبيعته ، حتى خيل اليها ان فحيح أنفاســـه العميقة ستجتذبها اليه فيمـــا تجتذب من هـــواء .

كانت حواسها كلها متيقظة متاهبة لما عسى ان تسفر عنه حركة عدوها التالية . فى فمها طعم التراب ، فى اذنيها الصمت القاتل على أرض الطريق ونقيق الضفادع على حافة المجرى . اما الوحش فكأنما ادرك أن فريستيه لايمكن أن يبقيا أبد الدهر فوق الشجرة ، وانهما سيضطران الى مغادرتها ذات لحظة ، وعندئذ تكون فرصته العظيمة . اما هى فقالت فى نفسها : ارجو ان يمر عابر فيعيننى على هـذا الوحش قبل ان تنقلب الأمور الى اسـوأ . وهكذا بدا أن هناك هدنة غير معلنة بين الطرفين انتظارا لتطور الأمور . والهدنة أتاحت لها أن تلف حول يدها اليسرى : كفها ومعصمها وحتى أعلى ذراعها ثوبى زوجها حماية لها وسلاحا جديدا سمعت عنه فيما ترويه القرية من قصص .

سمعت طفلها يقول فى صوت واهن : تعبت يا ماما ، متى سيمشي الببع ، جابته الأم : ربنا يفرجها يا سـيد ، امسـك الشجرة جامد . النعاس بدا يغزوه بعد الجهد الذى بذله .

هل غفت أم أغفات ؟ كانت تفكر فى كل شيء ولا شيء حين سمعت فجـاة ارتطام جسم طفلها يصرخ صرخـة مكتومة أول الأمر ثم صرخة معولة فزعة : الحقينى يا امه ، الحقينى الببع سياكلنى . كان قد وقع فى الشبكة كما قدرت لكن ما لم تقدره هو ان الشبكة كانت اضعف من أن تحتمله فاخذت تتمزق تحت ثقله وهو يهبط نحو الأرض فى بطء .

لم تقبل ان تصدق أول الأمر ، وحين تأكدت لم تستطع ان تصدق ما رات . تاهبت : حول ذراعها اليسرى ثوبا أبيه ، وفى اليمنى فرع الشجرة ، بينما تحرك الوحش نحو طفلهـا المدلى مكشرا عن أنيابه . تلك فرصته التى طال انتظاره لها ولن يدعها تفلت منه . فى حركة لا ارادية أملاها تشبثها بالحياة ودفاعها عن

طفلهـا ، قفزت بسلاحها الشـجرى فى يدها اليمنى وبلفافـة القماش حول يدها اليسرى لتقع بين طفلها والوحش . وبدلا من أن يقضم جسد سيد كان يحاول أن يقضم يدها اليسرى وهى تدفعها فى حلق الوحش غير هيابـة ولا وجلة .. ولعله بدافـع التهيب والوجل .. وأنيابه تنغرس فى لفائف القمـاش . فى الوقت نفسه كانت يدها اليمنى تعمل عملها ، فالفرع المتشعب بعشرات الأفرع الصغيرة كالأشواك يندفع فى وجهه بينما يحاول الوحش أن يطولها بمخالبه ، وهو يلقى عليها بكل ثقله .

سيد يصرخ . هى تولول . تحقق بذلك غرضا مزدوجا : اخافة الوحش والاستنجاد بالعابرين الذين لا يعبرون . الجسر الجديد طريقه أقصر . الجميع هجروا هـذا الطريق ، شـعر رأسها ، بل شعيرات جسمها كله ــ وقفت ــ الفرع يتقصف أمام مقاومة الوحش وضغط عضـلاته الحديدية . يدها اليسرى لابد انها ضايقته وكادت تعطل تنفسه . أحست مس أنيابه فى معصمها الأيسر . سحبته فى حركة تلقائيـة . أدركت انه اسـتطاع أن ينهشها . الدم يرشح على ما تبقى من مزق القمـاش ، جذبة يدها اليسرى الى الوراء وازنتها اندفاعة يدها اليمنى الى الأمام. النهاية المدببة لمـا تبقى من الفرع تنغرس فى مكان ما من وجهه . عجبت أن يكون هـذا المكان من الوجه . لا سبيل فيه الى مكان طرى كهذا الذى انغرس فيه طرف الفرع . لو أصر الوحش لحظة أخرى على مواصلة المعركة لانهارت . لاقبل لها بمقاومة عضـلاته الهـائلة .

لدهشتها ــ وفى اللحظـة التى قررت فيها الاستسلام ــ سمعت الوحش يصـدر صرخة ما سمعت فى حياتها بمثلها ! خليط من العويل والضحك والزغردة . ثم اندفع يعدو مهرولا

مثيرا وراءه سحابة من غبار كثيف زاد عتمة الليل عتمـة . ومع ذلك فقد ظلت أم سيد تصرخ ، صرخات هستيرية متواصـلة ، لا تدرك تماما ما حدث ، تخشى أن يعود الوحش منقضا عليها او على ابنها وهى التى لا قبل لها الآن بأية مقاومة جدية .

عندما اكتشفت ان الوحش قد ذهب الى غير رجعة قالت فى نفسها : ربما كان الصراخ الآن أكثر ضررا . لن يأتى المنقذون وقد تأتى غيره من الوحوش فالطـريق مهجور . والتفتت الى طفلها ـ الذى كان على الأرض الآن وقد ركبه الخوف تماما ـ تنهره وتأمره بالكف عن البكاء لئلا يعود السبع . صمت الطفل فى الحال . فجـاة احست بجوع شديد ، رغبة عارمة الى الطعام كان فى معدتها بئرا لا قرار لها . نظرت الى نفسـها ، اكتشفت ملابسها الممزقة وقد تعرى ثدياها وجزء من بطنها اما عجيزتها فكانت ما تزال مغطاة بثيابها فاطمأنت قائلة : اذن فالوحش لم يكن قد افترسنى . غير انها بدات تحس بآلام فى يدها ، كانت تقطر دما من مكان ما لم تكتشفه بعد .

هرولت الى القرية تحمل طفلها ـ وهى التى لا تكاد تحملها قدماها .. كتلة من اللحم الحى النابض الدافىء يحتضنها بيديه الصغيرتين ، أصابعهما الرقيقة المتشبثة بعنقها بعنف طالمـا تمنت أن تقرقشهما .

الأمور اختلطت عليها .. هل هو وقع اقدامها على التربة المتربة حينا الموحلة بماء الرى الى درجة الانزلاق حينا ، ام هو دبيب كل وحوش الجبل سارعت تعاون الوحش على افتراسها . غير انها لم تلتفت الى الخلف مرة واحدة .

* * *

لقطـة بعيـدة :

فى كلمات متلاحقة غير منتظمة روت أم سـيد قصتها على أهل القرية وقبل ان تتمها تماما كان قد اغمى عليهـا . كانوا بين مصدق ومكذب ، اما المعتدلون فكان رايهم ان فى القصـة شيئا من الحقيقة غير ان أم سيد تبالغ لتسبغ على نفسها هذه البطولة، وانها لاشـك لم تكن فى كامل وعيها حين خاضت هـذه المعركة التى قل أن يخوضها الرجال . وكانت ملابسها الممزقة وأصـابع يدها اليسرى التى تقطر دما هى شاهد الاثبات على روايتها .

وقد حملها زوجها وأخوها الى مستشفى الوحدة المجمعة حيث أسعفت وتقرر بتر ثلاثة أصابع من يدها اليسرى : البنصر والأوسط والسبابة .

وقد هرول معظم القادرين من أهـل قريتنـا الى شجرة الجميزة الوحيدة على جسر ترعتنا يستوثقون مما روته عليهم أم سيد . فشـاهدوا بقايا الفرع الذى استخدمته كسـلاح ضد الوحش كما شاهدوا الشبكة الممزقة ومزقا من قماش مبعثرة . أما غسيل أم سيد فكان ما يزال ملقى على حافة الجسر .

وظلت تعالج بالمستشفى ثلاثة أشهر كاملة . كانت تقوم فى الليالى الأولى فزعة تصرخ وتسأل عن طفلهـا سـيد . غير ان أعصـابها ما لبثت ان هـدأت ، حتى حين أدركت انهم بتروا أصابعها الثلاثة . وعندما سمح الأطباء لها بالزيارة ، تدفق عشرات من أهل القرية يستمعون الى روايتها عشرات المرات .

غير أن الشهادة الكبرى جاءت على فم شيخ الخفراء ، حين كان يمر ساعة الغروب على خفراء قريتنا ، فلمح فى طريق المقابر

ضبعاً يتشمم الأرض كأنما يبحث عن جيفة ، وقد لاحظ أنه به شيئا غير طبيعى لم يستطع ان يحدده اول الأمر ثم ادرك أن فى مشيته ما يشبه ترددا لا يتفق وجراة الضباع . فلما شم ــ فيما يبدو ــ رائحته البشرية التفت بوجهه وجسمه نحوه فادهشه ان يكون بلا عينين ، ثم أطلق أرجله للجرى ، وقد أطلق عليه عيارا ناريا غير انه لم يصبه . ويقسم شيخ الخفراء ــ عند تضييق الخناق عليه ــ أن الضبع قد فقد عينا واحدة على الأقل . وقد أكد هذه الرواية أكثر من شاهد ــ من بينهم عمدة قريتنا وخفيره ــ وان اضافوا اليها تفاصيل كثيرة او قليلة تبعا لطبيعة الراوى بحيث أضيفت الى أساطير بلدنا ومواويلها . حتى مراسل احدى الصحف اليومية بمركز الأقصر عندما ترامت اليه انباء المعركة ، بعد ايام من وقوعها أبرق الى صحيفته يقول : وقعت مساء أمس معركة ضارية بين أم بقرية الكرنك مركز الأقصر وضبع ضخم دفاعا عن طفلها ، وقد استطاعت الأم فى النهاية أن تصرع الوحش بشجاعتها دون أن تصاب الا بخدوش قليلة .

ولقد تقدمت ام سيد فى عمرها اليوم حتى اصبحت أشبه ما تكون بالجميزة العتيقة التى احتمت بها يوما ، ورغم ذلك ورغم وفاة حماتها وزوجها ، فانها ما تزال تشاهد فى شوارع قريتنا بأصابعها المبتورة . وكلما زارت بيتا من بيوت القرية حرص كباره أن يعاين صغاره هذه الأصابع دليلا على ما سبق أن رووه لهم عن قصة معركتها وانتصارها على الوحش . فاذا طلبوا منها أن تروى قصتها بنفسها روتها فى كلمات سريعة قلائل لا تروى فضولا ولا تشبع استطلاعا .

يوليو ١٩٧٠

الكــراسى الموســيقية

دق جرس المحطــة منذرا بتحرك القطــار السريع المكيف العربات بعد خمس دقائق فى طريقه من القاهرة الى الاسكندرية ، حين اكتشفت السيدتان انهما تجلسان على مقعدين متجاورين .

كان من الواضـح انهما فى عمرين متقاربين ، ولمـا لم يكن من الممكن أن تعرف عمر المرأة على نحو دقيق ، فان من يراهمــا قد يحدد لهما عمرا يقع بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، وان كانت الحقيقة ربما أكثر من ذلك قليلا . وكان السيدة ص التى تجلس بجوار نافذة القطــار اكثر امتلاء واناقة ورفاهة وهدوء اعصاب من جارتها س . التى تبدو أقرب الى النحافة والعصبية وان كانت لا تخلو من مسحة جمال ، كمــا كان يميزها عن جارتهــا ذلك الشيب الذى بدأ يتسلل الى شعرها مما أكسبها شيئا من مهابة ووقار أكثر واكبر من عمرها الحقيقى .

تبادلت السيدتان تحية مقتضبة بهزة من الرأس وتمتمة من الشفتين لا تكاد تسمع . ثم وقفت السيدة س . وسحبت حقيبة سفرها المتوسطة الحجم والتى كانت قد وضعتها فوق رف

العربة ، واسندتها على ركبتها ، وفتحتها ، وسحبت منها كتابا ، ثم عادت فأغلقتها ، ووقفت لتعيدها الى مكانها ، ثم جلست . وكان يبدو انها سبق ان قرأت فصولا من الكتاب لأنها فتحته عند علامة معينة فى وسط الصفحات وراحت تستأنف ما انقطع من قراءتها السابقة .

ومع ان السيدة ص . لم يكن لديها مانع من الثرثرة مع جارتها ــ فلم يكن لديها شيء جدى تفعله أثناء هذه الرحلة التى تمتد اكثر من ساعتين ، كما أنها لم تكن سعيدة ان تجتر ما حدث ليلة امس مما دفعها الى التعجيل للقيام بهذه الرحلة ــ الا انها حين لاحظت تحركات جارتها أدركت أنه لا مجال لتحقيق ما تأهبت له ، فى الفترة الأولى من الرحلة على الأقل ، لولا أن شد انتباهها امر لم تكن تتوقعه . فالكتاب الذى فتحته جارتها لم يكن كتابا غريبا عنها مع انه لم يتح لها أن تقرأ عنوانه ، الا ان غلافه وحجمه وحجم حروف طباعته ثم عنوان الفصل الذى استطاعت ان تختلس قراءته عندما ثار فيها حب الاستطلاع للتأكد من ظنونها .. كل ذلك جعلها تتعرف على هذا الكتاب المألوف لديها بسبب بسيط : انه آخر رواية الفها زوجها ! وتساءلت السيدة ص . هل ترى جارتى فى هذه الرحلة احدى قارئاته المعجبات اللاتى لا تعرف عددهن ولا مدى حدود هذا الاعجاب ؟ أم أن اهتمامها بالرواية مصدره ما نالها من دعاية بسبب تحويلها الى فيلم سينمائى ناجح ، يعرض الآن فى اكثر من دار عرض سينمائية فى وقت واحد فى كل من القاهرة والاسكندرية ! وعجبت أن يظل يطاردها حتى هنا فى هذه العربة المغلقة وهى فى رحلة هدفها الظاهرى قضاء فصل الصيف فى مسكنها ــ أو مسكنهما ــ الصيفى بالإسكندرية ، وهدفها الحقيقي البعد عنه حتى تخف حدة هذا

التوتر المستمر الذى يعيشان فيه .. كانت تعرف عبث الشكوى منه لأن له وجهين : وجه الروائى الشعبى المحبوب الذى يظهر دائما على شاشة التليفزيون وعلى شفتيه ابتسامة لا تفارقه ، ووجه الزوج المتوتر العصبى الذى تحاول ـ ولا تعرف ـ كيف ترضيه . ومن الغريب انه من هذا الزوج يولد ذلك الفنان .. ذلك المغرور الذى يتلقى عشرات الرسائل شهريا من معجبين ومعجبات برواياته ومسلسلاته التليفزيونية والاذاعية وأفلامه ...

... يوم جاءها خاطبا كان ما يزال ذلك الشاب المتردد الخجول فى دنيا الحب والتأليف معا ، وعندما حدثها عن هوايته ـ وكانت مجرد هواية ـ وما يزدحم به فكره من قصص وروايات يرجو أن تتاح له فرصة كتابتها فى ظل حنانها ورعايتها، احست انه يوقظ الأنثى الكامنة فيها بكلماته الدافئة وصوته الهامس الخشن ، يزدحم فيه تحمس الرجولة وتطلعاتها . وفى لحظة انفعال مشبوبة باحت له انها كانت تضع شروطا للرجل الذى سيشاركها رحلة الحياة على رأسها أن يكون طموحا ، وأنها سعيدة لأن القدر استجاب لرغبتها. ولعل تلك الرغبة ـ هكذا كانت تحلل وتعلل رغباتها ـ كانت رد فعل لشخصية والدها الذى لم يكن يتحمس لشىء ولا ينفعل بشىء كأنما شعاره الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس .. واليوم ـ وبعد أكثر من عشرين عاما من حياتهما معا ـ لا تتمنى شيئا أكثر من أن تكون زوجة برجل عادى ، كما كان المرحوم والدها ، بلا انفعالات ولا تقلبات ، ولا مطامح ولا مطامع ، فقد سئمت الحياة العاصفة التى تحياها يوميا مع هذا الذى يصفه المعجبون به بأنه عبقرية، وهى مستعدة للتنازل عن كل ما وفرته تلك العبقرية من حياة

رغدة مرفهة وما تتيحه لها من مكانة اجتماعية ترضى غرورها ويسعدها اللحظات أن تنعم بها ، لكنها تحس انها فى مقابل ذلك تدفع الثمن غاليا من أعصابها ومن لحظات حياتها التى تذهب ولا تعود . ولقد اكتشفت فى الشهر الأول من زواجهما ــ شهر العسل المزعوم ــ أن طموحه الذى بهرها معناه انشغاله عنها بقصصه وتسجيلاته الاذاعية والتليفزيونية وفيما بعد بعقوده السينمائية ومعجباته وضرائبه ، حتى أصبح خروجه معها حتى لمجرد النادى مرة فى الشهر أو لزيارة قريب أو صديق معناه ضياع وقته ومجده ومورد دخل جديد . وكانت لحظات الترفيه الوحيدة التى يشتركان فيها معا حين يصطحبها معه ــ وعلى فترات متباعدة ــ لحضور العرض الأول لاحدى المسرحيات أو الأفلام تلبية لأحد أصدقائه فى الوسط الفنى مؤلفا كان أو منتجا أو ممثلا . . كما كانت تتحايل عليه أن يكون ذهابها الى النادى ساعة الغداء حتى لا يحس أن وقته قد ضاع ، أما ابناهما فقد ترك لها مهمة تنشئتهما لا يكاد يعلم عنهما شيئا ، ولا وقت لديه لسماع شكواها منهما . ولعل كل ما يعرفه عنهما الآن أن الولد ــ وهو الأكبر ــ فى الجامعة ؛ وان البنت فى مرحلة الدراسة الثانوية ، لكنه على الأرجح لا يدرى فى اية سنة دراسية على وجه التحديد . أما نزواته العاطفية ؛ فقد هددت رباطهما الزوجى اكثر من مرة ، وهو يحاول انكارها حينا وتبريرها حينا بأنها ضرورية للفنان ضرورة الشراب والطعام ، وهى ترقب تطور تلك النزوات فى صمت أحيانا ، وأحيانا أخرى تشبعه تقريعا وتسفيها أوقع وافعل من الانفجار والثورة ، يعينها على ذلك برودة أعصاب ورثتها عن والدها وان لم ترث عنه ما صاحب ذلك من لا مبالاة .

* * *

دقّ جرس المحطة للمرة الثانية والأخيرة وبدأ القطار تحركه حين لاحظت السـيدة ص . أن جارتها س . قد عدلت فيما يبدو ـ ولو مؤقتا ـ عما كانت همت به ، فقد ضغطت على زرار المسند فانفلت الى الوراء قليلا لتصبح فى وضع اكثر استرخاء كأنما تريد أن تستأنف بخيالها ما أوحت لها به أحداث الرواية وشخصيتها .

وكانت السيدة س . فى الواقع قد استرخت لأنها كانت كعادتها ـ كلما قرأت لهذا الكاتب ـ تبحث عن نفسها فى رواياته ، وكان يحزنها ان تلاحظ ان شخصيتها قد اخذت تشحب وتتوارى من رواياته الأخيرة بعد ان كانت تلح عليه عقب فراقهما الذى احتفلت بذكراه الخامسة والعشرين منذ اسبوع .

كانت طالبة بالسنة النهائية ـ بكلية الفنون الجميلة ـ حين دعتها صديقتها لحضور حفل زفافها . هناك التقت به ، زميل العريس فى الدراسة والتخرج . لم تكن قضية زواجها تؤرقها ، فهى تعلم أن أباها وعمها قد ارتبطا معا انها بمجرد تخرجها ستتزوج ابن عمها . ولم يكن ابن العم هذا شخصا كريها ، لكنه لم يكن شخصية مثيرة كذلك . كانت عواطفها تجاهه حيادية . وكلما التقت به أحست انها تبحث فيه عن شىء تفتقده ، شىء لم تدرك كنهه الا حين التقت به فى تلك الليلة التى كانت عرسا لقلبها كما كانت عرسا لصديقتها . جذبتها فيه شخصيته القوية المتميزة ، طاقته الهائلة ، ثقافته حتى فى فنها الذى تخصصت فى دراسته .. حتى وجدت نفسها تعمل ـ مدفوعة بقوة أكبر منها ـ على جذب انتباهه اليها ، وحين نجحت دار بينهما حوار طويل انتهى بان دعا نفسه الى زيارة مرسمها الذى تشارك فيه بعض زملائها ، وهو ما لم يفكر فيه ابن عمها يوما ما ..

وجعلت تقارن بين هـذا اللقاء المشحون الذى أحست بعده كأنما هو صديق تعرفه منذ سنوات ؛ وبين علاقتها الهادئة الرتيبة بابن عمها .. وتعددت لقاءاتهما وهو يحدثها عما تزدحم به رأسه من مشروعات روايات وتمثيليات وافلام سينمائية ؛ مما جعلها بدورها تحدثه عن مشروعات فنيــة لم تكن قد فكرت فيها من قبل . وقدحدثت اول أزمة بينهما يوم تاخرت عن لقائه لأن ابن عمها كان فى زيارتهم ، فاكتشفت فيه يومها تلك الشخصية العصبية القلقة العنيفة مما جعلها تعيد النظر فى اندفاعها نحوه ، ووجدت نفسها مرغمة على المقارنة بينه وبين ابن عمهـا الذى لم يعاملها ـ حقا ـ بهذه القسوة يوما ما ، لكنه أيضا لم يكن ليقلق عليهــا هذا القلق العاصف ، يزورها فى البيت فلا يأبه ان وجدها أو لم يجدها ، ينتظرها هادىء الأعصاب حتى تعود فيحييها دون مجرد التســاؤل عما أخرها . لا يذهب لمشــاهدة معرض تشارك فيه ـ بعد تخرجها ـ الا بناء على دعوة منها ؛ وكانمـا لمجرد تجنب الحرج فلا ميل له للفن أو الفنانين . لم يتحرك الا يوم علم أن هناك منافسا له ، وكان صاحبها قد تقدم لوالدها يخطبها ، فاعتذر له برفق ـ ولكن بحسم ـ موضحا انها مرتبطـة بابن عمها . عندئذ خشى ابن عمها ان يلح هــذا الغريب فتفلت منه ، فأسرع فى اتمام الاجراءات الرسمية . وهكذا أرغمت على قطع علاقتها به . وكانت اضعف من أن تقاوم ، وبعدها بشهور ظهرت أولى رواياته « امراة رجل آخر » قرات اعلانا عنها فى احدى الصحف بمجرد الصـدفة ، وكانت قد عملت مدرسـة بوزارة التربية ، فاشترت الرواية لتقراها فى وقت فراغهـا . ثم تلقت بالبريد المسجل ـ على عنوان والدها ـ نسخة لاشــك انها مرسلة منه وان لم يكتب عليهــا اهداء مطبوعــا كما تمنت وخشيت ، ولا حتى بخط يده . وطمأنت نفسها بانه لابد قــد

لحرج من زوجها . وعندما لمحت احدى زميلاتها الآنسات عنوان الرواية قهقهت صائحة : تقرأين رواية غرامية وانت عروس ؟ اتركى هذه المهمة للأوانس والعوانس . فاحمر وجهها كأنما تعرت أمام زميلتها وأسرعت تخفى الغلاف بغلاف . وقد شدتها الرواية لسبب شخصى كانت تبحث عنه فى لهفة حتى تحققت منه، كانت هى بطلة القصة وان أدخلت عليها تعديلات كثيرة لاخفاء مصدرها ، وكان هو بطل القصة بعد تعديلات مشابهة ، وكانت مشاعر البطل نحوها مزيجا من الحب والشفقة والتفهم لموقفها حينا والقسوة عليها حينا آخر ، ولكنه قسا كذلك على نفسه قسوة لا تعرفها عنه طوال علاقتهما ، وكان هذا هو القناع الذى يخفى خلفه شخصيته ، وقد أثارت لديها هذه الرواية وتنذ مشاعر الفرحة الحزينة ، فها هو ذا ما يزال يذكرها ولكن شتان بين الذكرى والحصول .

ولقد حدث ما توقعته ، اكتشف زوجها سرها الصغير ، وظلت قلقة تنتظر رد الفعل . لكنه لا يعلق بشىء . وبعدها بشهور قليلة فوجئت به يحضر مجموعة قصصية ويقدمها لها قائلا : أنت تحبين أن تقرأى له . كم كان هذا التصرف جميلا ووديا للغاية من جانبه ، كانت تود أن تحبه ، أن تستحيل هذه الألفة أو الصداقة التى بينهما الى عشق ملتهب . ولكنها عبثا حاولت ، كانت تحس أنه شخص طيب حصل كل منهما على الآخر بحكم قرابته دون أن يبذل أحدهما — لا هو ولا هى — أى مجهود فى سبيل ذلك . وعلى الفور عقدت تلك المقارنة المألوفة بينه وبين ذلك الشاب الذى تحمس لها ، تحمس لجمالها وتغزل فيه كما تحمس لفنها ، وتحمست هى لطموحه وحبه للمغامرة بل عشقت فيه قلقه لأنه أقنعها أن القلق دلالة الانسانية ،

والحيوانات الدنيا هى وحدها التى لا تعرف القلق . كان كل منهما يحــاول أن يحصل على الآخر فلا يفلت منه ، حتى نجح فيها حين تخلت عنه بمثل هذه البساطة واذعنت لمشيئة غيرهــا ليتحكموا فى اخص شئون حياتها . وماذا عساها تستطيع ان تفعل ، لا تجرؤ على الهرب فضـــلا عن الانتحار . كانوا فى داخلها قبل ان يكونوا خارجها ومن حولها .. (تلك جمل من روايتــه كانت تختلط بأفكارها الآن) لكن بينما اطمأنوا الى استسلامها لهم ، فقد اكتشفت انه مجرد استسلام ظاهرى . مع انهــا لم تره منذ آخر لقاء لهما ..

وكان ذلك فى يوم مطير ، كان قد خرج لتوه من المستشفى بعد اجراء جراحة الزائدة الدودية . وظلا يسيران غير عابئين بالمطر الذى كان يتساقط رذاذا حينا وينهمر مدرارا حينا آخر . ظلا يهيمان فى شــوارع القــاهرة ساعات حتى خشيت عليه من انفتاح الجرح الملتئم حديثا ، فودعها الى لقاء قريب وودعتــه الى غير عودة ....

الا انها ظلت معه تتابعه فيما ينشر من كتب أو مقالات فى صحف تقع تحت يدها أو يشتريهــا لها زوجهــا خصيصــا .. وتتــابع ما ينشر عنه من انباء محــاضرة له أو سفر أو عودة ، أو روايــة تترجم له ، ثم فيمــا يذاع أو يعرض له من تمثيليــات وافــلام . وكانت فى كل هـــذا تبحث عن نفســها ، هـــل ما يزال هو أيضــا معهــا ؟ كانت تعرف انه تزوج بل وانجب (اما هى فلم تنجب ربمــا احتجاجا على مثل هـــذا الزواج) وقــد بدأ القــلق ينتابهــا حين اخــذت تدرك أن شخصيتهــا تتوه منهــا وســط أحــداث رواياتــه ، اما شخصــيته هــو فقد كانت سافرة فى رواياته المبكرة ، فلما تمرس بفنه نجح فى اخفائها تماما خلف اقنعة متعددة بحيث يصعب التعرف عليه .

وكانت هي في تلك الأثناء تترقى في عملها بالتدريس حتى أصبحت موجهة للتربيـة الفنية وها هي ذي الآن في طريقها الى مديرية طنطا التعليمية في احدى مهامها الوظيفية ، وقد اصطحبت معه روايته الأخيرة ؛ وبقدر ما اعجبت ببلوغه قمة النضج الفني من حيث التشويق ورسم الشخصيات وتطور الأحداث والأسلوب الذى يترقرق شاعرية حينا ويعنف الى درجة الصخب حينا آخر : بقدر ما أحزنها انها لم تعد تجد اثرا من آثارها متسللا الى احدى شخصيات الرواية حتى ولو كانت شخصية ثانوية . وتساءلت في قلق : هل يمكن ان يكون هـذا دلالة على اختفائها من حياته تماما . اما هو فلم يختف من حياتها ، ولعل ذلك مرجعه انه حاضر فيها دائما بما حققه لنفسه من شهرة وانتشار ، وبما تقرأه وتسمعه وتشاهده له . أما هي فلعله لا يعرف عنها الآن باى ارض تعيش . فلا عجب أن تنزوى في سراديب النسيان. وتنهدت متسائلة هل تراه فراقهما الثاني والأخير ؟ عندئذ ترامى اليها صوت جارتها تسألها : تعجبك هـذه الرواية ؟ وعجبت السيدة س . ان يكون لجارتها من حب الاستطلاع ما يجعلها تدرك أنها تقرأ رواية وليس اى نوع آخر من انواع الكتب .

أجابتها على الفور : يبدو أنه سبق لك قراءتها .

ـ مؤلفها زوجي يا مدام !

ـ زوجـك ؟

ومضت السيدتان تثرثران .

ثلاث حكايات عن قرقوش

قراقـوش سياســيا

كان قراقوش ــ قبل أن ينزح الى العاصمة ويصبح حاكما ــ يقطن فى قريتنا ، وكان يتنافس وقتئذ على العمودية مع احـد رجال القرية ، وكل منهما يسكن طرفا من أطرافها . وحـاول قراقوش أن يستميل الناس الى جانبــه بالمــال ، فكان يشترى منهم قطنهم وقمحهــم ، لكنــه يذهب الى المدينـــة ويبيعــه بما يعود عليه بالكسب الوفير . وكان كل من يتعــامل معه يضطر الى تأييده .

وكان هناك قروى طيب يسكن منزلا وسط القرية ، ويمتلك حديقة من حدائق الفاكهة ، يتعيش على ما يبيعه من ثمارهــا . وقد أصر على أن يذهب الى المدينة ويبيع بنفسه هذه الثمــار مما أوغر صدر قراقوش .

واستيقظ أهل قريتنا ذات صباح ليجدوا قراقوش قــد احتل حديقة الفاكهة برجاله ، وشاع فى القرية أن خفير الحديقة هو الذى أتفق معهم وفتح الباب لهم ليلا .

ورأى القروى ما حلّ بحديقته ، فذهب الى قراقوش يحتج عليه . ولكن قراقوش أجابه بابتسامة قائلا : انني لا اقصــد بك

سوءا أيهـــا العم ، بلْ يجب عليك أن تشـــكرنى لأنى انما فعلت هذا لخيرك .

ثم ابتلع لعابه واستطرد قائلا ، فأنا لا أقصد الا حمايتك من منافسى الآخر ؛ فربما تسول له نفسه أن يحتل حديقتك اذا وجد انها خالية من رجالى .. !!

قراقـوش قاضـيا

كان قراقوش ــ قبل ان يصبح حاكما ــ يعمل قاضيا فى بلدتنا . وذات يوم اختصم اليه تاجران من أكبر تجـار الأقمشة . وتحت ستار الليل زاره أحد الخصمين وقدم له عشرة آلاف دينار ولفة من فاخر الأقمشة على سبيل الهدية .

وجاء يوم النطق بالحكم والتاجر الكريم واثق مما ستنطق به هديته فم القاضى الذى تلطف بقبولها ، ولكنــه لدهشــته فوجىء بالحكم لغير صالحه .

ثم فوجىء فى الليلة نفسها بقراقوش يبعث اليه رســولا يرد له هديته ، ويبلغه أن خصمه قدم له خمسة عشرألف دينــار ولفتين كاملتين من افخر الأقمشة ، وان أمانة مولانا القاضى ــ غفر الله له ولنا أجمعين ــ ابت أن يتقبل هديتين من خصــمين يتعذر الحكم لصالحيها معا وفى وقت واحد .

قراقوش والجامع

اشترك قراقوش – قبل أن يصبح واليا – فى مؤامرة على السلطان انتهت باكتشافها والقبض على المتآمرين . غير أن قراقوش استطاع – بما له من أعوان – أن يصله نبأ افتضاح المؤامره ؛ فهرب من بيته قبل القبض عليه ، ولجأ الى جامع قديم مستترا فى مئذنته .

وفى محنته ووحدته تأمل قراقوش الجامع فوجده خرابا لا ساكن ولا ساجد فيه . فنذر لله نذرا قائلا : لئن نجانى الله من هذه الشدة وصرت شيئا ؛ عمرت هذا الجامع .

وقد توسط نائب السلطان لدى مولاه للعفو عن قراقوش ، ونجح فى مسعاه . غير أن قراقوش لم يطمئن الى ذلك ، فلم يهدأ لحظة حتى استطاع أن يحقق حلمه : أطاح بالسلطان كما أطاح بنائبه .

فلما تسلطن ؛ تذكر نذره وضروره الوفاء به ، فأصدر أوامره بتجديد الجامع ، ورتب فى شد عمارته وأوقافه بعض وزرائه . فلما سألوه تدبير النفقة ، أمرهم بالقبض على كل من

يمر ناحية الجامع ، رجلا كان أو امرأة ، أو غلاما فوق العاشرة ، للاشتراك فى عمارة الجامع حتى غروب الشمس دون مقابل الا شربة ماء . والجلد جزاء العاصى .

يقول المؤرخون : فلما شاع أمر هذه السخرة ، ضجت العامة وتجنبوا المرور من هذه الناحية ـ الا من كان غريبا ـ فاقفرت حتى من سكانها .

ثــلاث قصص قدريــة

الثعبـــان

تصايح الأطفال وهم يرفعون رءوسهم نحو رأس النخـلة الطويلة « ثعبان ثعبان ، خذ بالك من الثعبان يا عم محمد » . وكان عم محمد قد تسلق نخلة الشيخ سعداوى ليقطع جريدهـا الخارجي القديم ويلقحها بحبوب ذكر النخيل كما يفعل فى كل موسم مع عشرات النخيل .

كان قد ترك مركوبه أسفل النخلة ـ كما يفعل دائما ـ وربط حبلا حول وسطه وحول النخلة ، ثم اطمـأن الى متانتـه والى عقدته حتى لا ينفلت أو ينقطع كما حدث أكثر من مرة كان آخرها فى العام المـاضى مع جاره حسب الله الذى وقع من أعلى النخلة فلم يخسع منطقا وظل فاقدا وعيه حتى مات بعد ثلاثـة أيام ، وقيل انه لو ظل حيا لعاش مشلولا .

ثم جعل عم محمد من بقايا الجريد القديم على ساق النخلة كلابات يتعلق بها الحبل وسلالم تتشبت بها قدماه . ويبدو ان ما سببه وجوده من حركة فى أعلى النخلة قد أزعج ثعبانا كان قد جذبه الى هـذا المكان عش يمام لابد أن به صغاره أو بيضـه ،

ولابد أن الثعبان كان قد التهم ما بالعش ، وكان الآن نائما أو راقدا مطمئنا الى أن يهضم ما التهم . فلما أيقظته الحركة أطل برأسه على جموع الصبية الذين تحلقوا أسفل النخلة ، فانتابهم مزيج الخوف والنشوة ، بعضهم تسمر مكانه وبعضهم طار الى القرية يذيع النبأ ويطلب النجدة ، وسرعان ما أصبح عم محمد أشهر اسم فى القرية ، فتسابق الكبار والصغار والرجال والنساء يشهدون عم محمد وهو يتأرجح بين الموت والحياة . والنسوة اللاتى كن يخبزن فى بيت بسطاوى تركن العجين وهرولن الى حوش النخل ، والشيخ سعداوى نفسه صاحب النخلة الذى كان مريضا لا يستطيع الحركة دبت فيه الحيوية وخرج يعدو كطفل صغير حتى لا يفوته المشهد المثير . وهكذا وجدت قريتنا الصغيرة حدثا يخرج بها عن ايقاع حياتها الرتيب ؛ ويجد فيه الرجال مادة سمرهم لمدة ليال طويلة .

وعندما أخرج الثعبان لسانه الطويل الرفيع كأنه يتحدى أهل القرية زاط ألعيال رعبا وفرحا . أما عم محمد فقد سكنت حركته كأنما شل ، ربما حتى لا ينبه الثعبان الى وجوده برغم الصيحات التى كانت تنصحه بأن يضرب جسمه ببلطته فيقسمه نصفين ، ويهوى النصف الذى فيه الرأس الى الأرض .

وأخيرا أقبل شيخ خفرائنا ميهوب حاملا بندقيته ، وفى حركة بطولية تكسب الجماهير وترهبهم معا ، صوب بندقيته نحو الثعبان . وأشفق بعض الموسوسين أن تصيب الرصاصة عم محمد بدلا من أن تصيب الثعبان ؛ أو ألا تصيب الثعبان فى مقتل فيكون الضحية عم محمد . غير أن شيخ خفرائنا لم يخيب ظن الذين يثقون فى مهارته فى التصويب ، فقد أطلق عيارا ناريا واحدا بعده اختفت رأس الثعبان ، وشوهد بقية الجسد وهو

يتدلى كالحبل وان ظل يتلوى بعض الوقت حتى همد ، بينما ظلّ نصفه الأعلى منحشرا بين سعف النخيلّ .

وصفق الأطفال وزاطوا من جديد وقد انفثأ خوفهم على عم محمد ، وطأطأوا رءوسهم يبحثون فى الأرض عن رأس الأفعى ، ويتسابقون فيمن يعلن فوزه فى العثور عليهـــا قبل غيره . لكن مضت الدقائق دون جدوى وقد عـــاد الخوف يتملك الجميـــع أن تكون فى الرأس بقية من حياة فلتدغ من يقربها . بينما شوهد عم محمد وهو يهبط النخلة مسرعا دون أن يتم مهمتـــه ، فلعلّ الصدمة قد شلت قواه وما يزال أثرها عليه حتى بعد انفراجها . ولامست قدماه الحافيتان الأرض وسط تهاليل الأطفال وزغاريد زوجته وابنته ، وأصـــوات تهيب به أن يضع قدميه فى مركوبه لئلا تكون راس الأفعى هنا أو هناك فتؤذيه .

وضع عم محمد قدمه اليمنى فى فردة مركوبه الأيمن ، وما أن هم بوضـــع قدمه اليسرى فى فردة مركوبة الأيسر حتى سحبها وهو يصيح « قتلنى الثعبان » . ولم ندرك أول الأمر ماذا حدث ، غير أننا رأيناه يشير داخل مركوبه . وأدرك البعض خطورة ما حدث فانقسموا فريقين : فريق انهال بالشـــوم والعصى على المركوب حتى سحقوا الراس ـ وفردة المركوب أيضا ـ تماما ، وفريق يحاول انقاذ عم محمد أو نقله الى الوحدة الطبية أو اســـتدعاء طبيبها ، وقد انقلبت الزغاريد الى عويل . غير أنه سرعان ما تمدد بجوار مركوبه بلا حراك .

* * *

وتساءل اكثر من صوت معلقا سرا وعلنا « سبحان الله ، لمـــاذا اذن نجـــا وهو فوق النخلة ؟ » وأجابه صوت امام جامع قريتنـــا « لم يكن عمره وقتئذ قـــد انتهى ، كانت ما تزال به بقيـــــة » .

المتسابقون

حين سمعت أن زميلى بالتدريس ـ عندما كنت أعمل به سابقا ـ قد اصيب بداء فى الدم ، وجدت من واجبى أن ازوره فى أقرب وقت ، ولو انى كنت مشفقا من هـذه الزيارة ، فقد بلغنى انه يعرف مرضـه ويعرف انه بمثابة حكم قريب بالأعدام ، لهذا ظللت مترددا عدة أيام ، متهيبا كيف ألقاه ، وأى الكلمات اختار ، أم عسانا سنجلس صامتين ، لا تجد الكلمـات سبيلهـا الى شفاهنا .

اخيرا قلت انه لابد مما ليس منه بد ، وان من الواجب أن اقف بجوار زميلى فى محنته ، واننى لو كنت مكانه لتوقعت منه السؤال وما هو أكثر من السؤال . لهذا جمعت أطراف شجاعتى وقصدت منزله ذات ليلة فى حى قريب من حينا .

وما أن طرقت الباب حتى وجدته يفتحه لى بنفسه وقد اعفانى وجهه الضاحك وترحيبه الحـار من كل ما كنت قد أعددته من كلمات ظاهرها التهوين وباطنها التهويل ، بل عقدت لسانى الدهشة وانا اراجع كل ما سمعته من أنباء عن الزميل ، لعل

خطأ قد حدث ممن ابلغونى الخبر ، بل رجحت أن يكون هنـاك لبس فيما سمعت .

وجلسنا نستعيد ايام زمالتنا بالتدريس ، ثم ما وقع لكل منا منذ افترقنا .. زواجه فزواجى : عنده طفلتان .. وعندى طفلة وطفل : زملاؤنا واين تفرقوا .. ترقياتنا فى عملنا وأين نعمل الآن ، حتى سمعته يقول :

ــ المهم انني تركت التدريس منذ أسـابيع واعمـل الآن بوظيفة ادارية بالمديرية التعليمية .

قلت فى نفسى : حقا جئنـا الى المهم . وادركت ان هـذه الكلمات ان هى الا مقدمة لمـا سيتلوها . وكنت قـد تمنيت ــ بفضل ضحكاته ــ ان اكون قد أعفيت من سـماع قصة مرضه ، بل لعلها لا تكون صحيحة على وجه الاطلاق . غير انه ما لبث ان واصل كلماته التى اعرفها من قبل :

ــ فقد اعطيت عملا مخففـا بنـاء على نصيحـة الطبيب المختص .

ثم وضـع النقط على الحروف كمـا يقولون حين سمعته يقـول :

ــ لأنى مريض .

وترددت ثوان : هل اصنع الجهل وأبدو كمـا لو كانت زيارتى بريئة خالصـة من الدوافع والأهداف ، ام اشير فى سياق الحديث الى ما سبق ان نما الى علمى ، وان احدد دوافع زيارتى

وهو السؤال عن صحته . غير انه لم يدع لى فرصة الاعراب عن شيء ؛ فقد واصل حديثه :

ــ احسست بتضخم غير عادى فى جانبى الأيمن ذات ليلة ، وانتظرت اياما لعله أن يزول فما زال . فلما ذهبت الى طبيبى .. انه ابن زميل قديم لأبى اثنـاء مرحلة دراستهما الثانوية . واصبح استاذا جامعيا متخصصا . فى اوج نشاطه العلمى والعملى .. سبق ان تزوج ثم طلق بسبب مغامرة عاطفية افضت الى زواج ثان منذ اقل من عام .. سأقص عليك قصة هذه المغامرة فيما بعد ... المهم ان هذا الطبيب أعلن لى ان طحالى تضخم . وطلب منى اجراء بعض الفحوص .. وعندما عدت الى المعمل قابلنى مساعد الطبيب وسلمنى نتيجة التحاليل ؛ ولم تخطئنى نظرة الاشفاق التى بدت على ملامحه ؛ فقد كنت من اللهفة على معرفة النتيجة بحيث حاولت أن استشفها من تعبيرات وجهه قبل ان اقراها على الورق ؛ لكنه لم يطق صبرا ؛ بل أعلن لى ــ وكأنه فرح بأن لديه أخبارا حتى ولو كانت مفجعة أو حكما بالموت ــ ان كريات دمى البيضـاء قد تضاعفت تضاعفا مريبا ؛ هكذا صدمتنى صراحته التى لا لباقة فيها . ومادت بى الأرض حتى كدت اقع ؛ لكننى تماسكت وخرجت من المعمل فى طريقى الى بيتى وعندى امل ان العرض يكون لأكثر من مرض ؛ ولكنى اعود فاغوص فى ظلمة الظلمات حتى كادت تدهسنى سيارة لم أرها .. لكن يبدو أن سائقها رآنى فى اللحظة التى قبل اللحظة الفاصلة . وهكذا كانت كأنما هنـاك يدان وحشيتان تتبـادلان لطمى على وجهى بشـدة .

وفى البيت افصحت لزوجتى عن مخـاوفى ؛ ونظرت الى طفلتي وقد اغرورقت عيناى .. انها ــ كما تعرفها ــ سيدة

هادئة الأعصاب : لو كانت هنا لقدمت لك القهوة بنفسها ، لكنها ذهبت مع طفلتيها لتزور أمها .. فقد اخبروها انها على شفا الموت بسبب شيخوختها ، أما أنا فقد أحسست انى لا أقوى على الخروج ويكفى ما أبذله من مجهود فى الذهاب الى عملى صباحا ، هل تعرف انه من الممكن أن آخذ أجازة مفتوحة ؟ .. لكنى أحب أن أكون مع الآخرين ،لم تقل لى ماذا تحب ان أقدم لك .

ماذا كنت اقول ؟ آه .. كنت أقول انى أفصحت لزوجتى عن مخاوفى ، فأعلنت لى بكل هدوء ان الأعمار بيد الله ، وان اكبر كبير يموت وتظل الدنيا سائرة كما هى ، ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة : لن يترك الله طفلتينا حتى لو متنا نحن الاثنان . أنا أعرفها جيدا .. انها تتصنع الهدوء فى ظاهرها ، لكنها تكون شديدة الانفعال فى داخلها . انها من النوع الكتوم تبطن غير ما تظهر وليست مثلى ، وجهى صفحة مفتوحة تقرأ عليه كل ما بداخلى . المهم اننى عندما ذهبت الى طبيبى واطلع على نتيجة تحاليلى وعلى تعليق مساعد المعمل وعلى مخاوفى صارحنى بأن هذه أعراض المرض الذى اشك فيه ، لكنه نوعان : نوع حاد ونوع مزمن ، الحاد يقضى على الانسان فى وقت قصير ، أما المزمن فأمامه وقت طويل ، والحمد لله ان مرضك من النوع المزمن .. ثم ان الأعمار بيد الله . ثم طلب منى دخول المستشفى وبدء العلاج الذى افهمنى انه يستمر أياما اغادر بعدها المستشفى اذا سمحت حالتى بذلك .

ادركت انه يحاول أن يدخل الطمأنينة على قلبى وارتبت فى صدق كلامه . كنت أدرك بعقلى أن الموت حق علينا فى أى وقت ، وانه من الصحيح أن أكبر كبير فى الدنيا يموت فلا يتغير

فيها شيء ، كحصاة يلقيها طفل على سطح الماء فيهتز لحظة ثم يعود كما كان ، شخص يذهب وعشرات يأتون . لكني بعاطفتي لا استطيع ان امنع نفسي عن التساؤل : ولماذا يقع على انا وحدى هذا الاختيار التعس من دون كل زملائي وجيراني واقاربي ، أصدقك القول ، ليلتها لم انم ، بت ساهرا حتى الصباح ، واقلقت زوجتي معي ، وليس في فمها كلمة الا قولها : اهدأ يا مصطفى فالأعمار بيد الله ، ثم يا مصطفى وتوكل عليه . ولكن صوتها في الظلمة كان يشي بما تظن انها نجحت في اخفائه .

فوضت أمرى لله ، ودخلت المستشفى تنفيذا لتعليمات طبيبي لأبدأ العلاج صباح اليوم التالي ، وكان اساسا عبارة عن تناول حبوب معينة على فترات منتظمة . وقد أمضيت ليلة شديدة الاضطراب ، فلم يكن بغرفتي رفيق أبثه همي ، كانت زوجتي قد اضطرت للعودة الى بيتنا لتبيت مع طفلتينا فحالة امها لا تسمح بتركهما عندها . وكان واضحا ان بقية زملائي من المرضى حالهم مثل حالي . اما الطعام فلم اذق منه الا لقيمات تسد الجوع . وعندما قاسوا ضغط دمي وجدوه شديد الارتفاع مع انني لم أعان من ارتفاعه من قبل ، فادركت الى أى حد كان حزني وقلقي على مصيري المحتوم .. لماذا لم تشرب قهوتك ، لابد انها لم تعجبك ؛ طبعا انا لا أجيد اعدادها مثل زوجتي ، تحبها باردة ؟ اظن انها بردت ما فيه الكفاية .

المهم ان زوجتي دخلت علي في الصباح تحمل فيما تحمل صحف الصباح . ولم تكن شهيتي للقراءة بأكثر من شهيتي للطعام، فقد فقدت الحياة معناها بالنسبة لي ، واصبحت أقسم الناس الى قسمين : أحياء ومحكوم عليهم بالاعدام .

ـ تقصد محكوم عليهم بالموت ولا يعرفون موعد التنفيذ ، ومحكوم عليهم بالموت ويتوجسون موعدا قريبا للتنفيذ .

ـ يمكن ان تكون هذه صيغة اخرى او لعلها صيغة أدق بدليل ما حدث . فزوجتى قدمت لى احدى صحف الصباح وقد فتحتها على صفحة الوفيات وهى تقول لى : ألم اقل لك ان الأعمار بيد الله ؟ وازددت جزعا من كلماتها اكثر من جزعى على نفسى اخذت منها الصحيفة لأقرأ .. وانا لا أصدق عينى .. ماذا تظننى قرات ؟ توفى فجاة امس الأستاذ الدكتور ...

ـ من ؟ طبيبك ؟

ـ وبقدر ما بكيت بقدر ما استوعبت الدرس ، فلم يعد يهمنى أن اموت ولا متى سأموت ، فذلك أمر سيقع فى يوم ما وفى دقيقة ما ، ها .. ها .. ها .

بقية لا لزوم لها :

ولقد توفى هذا الزميل بعد حوالى سنتين من زيارتى تلك ، وكنت فى كل مرة ازوره فيها اخرج من عنده متسائلا : اينا يا ترى يكون الأسبق ؟ كأنما نحن فى سباق الفائز فيه من يصل بعد الآخر .

أما زوجته فقد كرست حياتها لطفلتيهما . وقد قابلتها منذ أيام معهما فى الطريق ، وقد اشرفتا على سن النضج وكادتا تصبحان عروسين ، وعندما سالتها عن أمها أخبرتنى أنها فقدت ذاكرتها او كادت ، لا تدرى ان كانت قد اكلت أم لم تأكل ، ولا ان كانت قد أفرزت فضلاتها أم لم تفرز فأصبحت عبئا

لا يطاق ، لا تعرف الحكمة من بقائها على قيد التنفس ، فلا هى تنتمى الى عالم الأحياء ، ولا هى تنتمى الى عالم الأموات .

وعندما استأنفت سيرى تذكرت زميلى ولازمته التى كان يكررها فى حديثه من حين لآخر وضحكته التى سمعتها منذ اكثر من عشر سنوات فانطلقت مرددا :

المهم ، ها .. ها .. ها . المهم ، ها .. ها .. هآ ..

تقاطع الطرق

فى احد ايام الجمع خرج عمى ابراهيم على دراجته قاصدا جـامع بركة الرطل كعادته . وانتظره أقاربـه بالدور الخامس ليزورهم زيارته الأسبوعية بعد الصلاة ، غير أن انتظارهم قد طال ، والذين صلوا منهم بالجامع نفسه قالوا انهم لم يلمحوه كما كان يحدث أحيانا . وانتظرت أمه عودته لكن دون جدوى ، ولم تكن لديها وسيلة للاتصـال ببركة الرطل لتستطلع أنباءه . فظلت قابعة مهمومة لا تفعل الا الضرورى ، كالذهاب الى عشش الدجـاج والأرانب وحظيرة العنزة لتنظيفها ، ووضـع الطعـام والمـاء ، وجمع البيض وحلب اللبن .

وكان عمى ابراهيم عندما بلغ الخامسة والخمسين قد قدم استقالته من وظيفته الحكومية ، ليبدأ تحقيق حلمه الذى طالمـا راوده وهيأ نفسه له طوال سنوات عديدة بعد أن قدم استقالته . كان يحلم بالحرية ، حرية من الوظيفة ومن الناس ومن قيود المجتمع . فبالحرية كان يحـلم . وكانت وسيلته الى ذلك أن يشترى ـ بما اقتصده خلال عمله الوظيفى ـ قطعة أرض بعيدا عن زحمة الناس ، فى منطقة ريفية تقع فى ضـواحى العاصـمة

وقتئذ ، حيث المزارع التى تمدها كل صباح بالخضروات والزهور، وان يقيم فيها بناء بسيطا يكفيه هو وامه العجوز التى فقدت بصرها منذ سنوات ، ثم يعد عششا للدواجن والأرانب ، وحظائر للبهائم التى يقوم على تربيتها والتى تؤدى اكثر من غرض .

فهى هوايـة تشغل وقت فراغه ، ورياضـة يحرك بهـا عضلات جسمه ، ومصدر لبعض طعامه ، وما يفيض عنه يدر له دخلا يمكن أن يضاف الى معاشـه المتواضع ، مما يضمن له معيشة فى مستوى معقول لمطالبه المتواضعة ، فقد كان يحـلم بالحرية بعد أن قدم استقالته من حياته الوظيفية .

وكان مبدؤه أنه كلما اقترب من الطبيعة اكثر كانت سعادته اكبر وصحته أفضـل . وكان يؤمن ايمانا يصل الى مستوى العقيدة بأن الطعـام كلما تدخلت فيه يد الانسـان أصبح اكثر ضررا . وكلما قل هـذا التدخل اصبح اكثر فائدة . فالسـكر الأحمر والخبز الأسمر واللبن الطـازج والزبد اكثر فائدة أو أقل ضررا من السكر والدقيق الأبيض ومن السـمن طبيعيـا كان او صناعيا ، بل كان يستخدم عسل النحل والعسل الأسـود بدل السكر ، ولا يأكل النشـويات كالخبز والأرز والمكرونة . ولا يستخدم الا اللبن المنزوع القشدة ، ولا يأكل الا اللحم الأبيض كلحم الدواجن والأسماك مشويا أو مسلوقا ، وطبقه الرئيسى على الغداء السلطة الخضراء ، وعشاؤه المفضـل اللبن الزبادى والفاكهة ، فمبدؤه أن الطعام كلما اقترب من الطبيعة كان اكثر فائدة . فضلا عن أن اكله بحساب ، فشعاره « كل قليلا تعش طويـلا » .

وكان عمى ابراهيم يفخر قـائلا : « لقد وضـعت لنفسى برنامجا لأعيش حتى المـائة أو على الأقل لأعيش ايامى سليما

وليس عالة على أحد » يقصد بذلك الا يصاب بشلل أو بفقدان احدى حواسه كالبصر أو السمع ، أما الموت فهو حق علينا جميعا . فكان الى جانب اتباع هذا النظام الدقيق فى طعامه ، يحرص على القيام بتنقلاته على دراجة كلون من الوان الرياضة ، كما كان يحرص على المواظبة على صلاة الجمعة فى نفس الجامع الذى كان يصلى فيه أيام سكنه القديم ، وقبل أن يبنى بيته الجديد على كورنيش النيل فى طريق المعادى بعيدا عن زحمة العاصمة وقتئذ . فكان يخرج صباح كل يوم جمعة من بيته ويركب دراجته ويقطع عليها مسافة تزيد على الساعة فى مثل هذه السن ، حتى يصل الى بركة الرطل بالفجالة ، وهناك يصلى فى جامع الرحمن ، بعدها يزورنا نحن أقرباءه الذين كنا نسكن وقتها بالدور الخامس باحدى العمارات القديمة التى لم يكن بها مصعد ، فكنا نشاهده ، يصعد سلمنا كأنه ابن العشرين ، واول ما نلمحه نصيح نحن الأطفال الصغار وقتئذ « عمو ابراهيم » . فقد كانت زيارته الأسبوعية كأنها جزء من النظام الفلكى . وقد علمنا فيما بعد أنه لم يكن يشترى لنا الشيكولاته — كما كان يفعل بعض أقربائنا — لا لأنه يرى فيها أذية للصغار ، ولكن حتى لا نتعود على مثل هذه المأكولات عندما نكبر وتصبح من المحظورات . وكان يجلس وقتا طويلا لا يزيد على نصف الساعة ، لابد انه كان يعرف أثناءها اخبار الأسرة ويعرفون اخباره ، ويأخذ بريده القليل ان كان له بريد ، ويدعونه لتناول الغداء فيرفض ، لأن هناك أولا والدته تنتظره ليأكلا معا ، ثم لأنه لا يوافق على طريقة طهوهم للطعام . فقد كان يفضل الطعام نصف المطهو قليل الملح أو عديم الملح لأنه كان يؤمن أن الطعام كلما كان أكثر اقترابا من الطبيعة كان أكثر فائدة .

وهكذا احتاط لصحته بنظام طعامه ورياضة جسمه ونقاء موقع سكنه بعيدا عما يلوث المدينة من ادخنة وضوضاء وتزاحم الخلق وتنافسهم على رقعة ارض لا تكاد تتسع لهم ، فهو يؤمن انه كلما اقترب هو ايضا من الطبيعية كان اكثر سعادة واحسن صحة ، فضلا عما يعود عليه ايمانه وعلاقته الصحية من طمانينة وراحة بال . لهذا كان رفيعا منتصبا كالعصا .

وكان يجد سعادته فيما يزرعه من خضروات فى حديقته الصغيرة الملحقة ببيته ، وفيما يربيه من دجاج وارانب (كان لا يربى البط ولا الأوز ولا الحمام لأن من رايه ان اكل هذه الدواجن غير صحى لكثرة ما بها من دهون) . وان كان قد أصابها الوباء مرتين ، مرة قضى على معظم الدجاج ، ومرة افنى الأرانب كلها . غير أنه سرعان ما تنبه وبدأ يتخذ وسائل الوقاية الطبية معها فيما يقدم لها من طعام ، وفى حقنها من حين لآخر بما يحميها من غوائل وباء آخر .

وهكذا كان يرى ان أعظم انجازاته فى حياته انما حققه بعد ان استقال من وظيفته وحصل على حريته بعد سن الخامسة والخمسين : حين استطاع أن يكون أكثر اقترابا من الطبيعة ، سواء بحصوله على قطعة ارض يملكها — وهو الذى لم يكن يملك حتى نفسه ايام الوظيفة — أو بنائه هذا البيت ، ثم فرحته كلما بذر بذرة ورآها بعد شهور وهى تنضج ثمرة بعد ثمرة . (وكان يرى أن عمليات نقل الخضار والفاكهة تفقدها كثيرا من فوائدها الصحية) . أو كلما فقست بيضة كتكوتا أو ولدت احدى ارانبه أو عنزته سعده (بكسر السين) ودرت له لبنا يحلبه ويشربه طازجا دافئا « انه أفضل الألبان عندى لأنه أقل أنواعها دسما ، ثم انه ثمرة جهدى وكدى » ، بينما صغارها يحومون حولها

يمأمئون بأصـواتهم الخافتة . وهو لا يذكر انه أحس يوما بثمرة عمله الكتـابى ايام حياته الوظيفية على طولها « كنت أشعر اننى نقطة فى بحر ، وجودى مثل عدمى وحضـورى مثل غيابى . اؤدى عملا غير مميز يمكن أن يؤديه اى شخص آخر ، لهذا فرحوا يوم استقلت لأنى سأحرك طابور الدرجات المنتظر بعدى » .

وهكذا حصل عمى ابراهيم على حريتـه يوم استقال من وظيفته ، واستطاع أن يحقق مبداه بانه كلما كان أكثر اقترابا من الطبيعة كان أكثر سعادة وافضل صحة ، وكانت أمه تأكل مثلما يأكل ، وتعيش فى البيئة التى فيها يعيش ، لكنهـا لا تمـارس من الرياضيات والهوايات ما يمارس بسبب بصرها الذى كف منذ أكثر من عشر سنوات ، زحفت سحابة على احدى عينيها فتضاءل نورها شيئا فشيئا ، ثم ما لبثت أن زحفت سحابـة مماثلة على العين الأخرى وبالطريقة نفسـها ، وذهبت الى أكثر من طبيب وأجرت أكثر من عملية فى محاولة لانقاذ ما تبقى لها من بصر . لكن ارادة فوق ارادة الطبيب شاءت لحكمة لا نعرفها أن تظلم الدنيا تماما فى النهاية أمام عينيها ، بعد بصيص دام سنوات . وفيما عدا هذا فقد ظلت صحتها جيدة : سمعها وذاكرتها ونشاطها ، لهذا ـ وبرغم ما أصابها ـ فهى تقوم بجميع اعمال البيت من تنظيف واعداد للطعام وغسل للملابس والمعاونة فى تهيئة ما يقدم للدجاج والأرانب ولسعدة ، وتنظيف العشش والحظيرة .

وهكذا كانت معينه وأنيسه فى وحدته ، لا يقطعها الا زيارات متباعدة لنا نحن اقارب بركة الرطل (ما ازال أذكر ترقبى لهذه الزيارات فى صباى ، فقد كانت سعادتى عظيمة عندما يصحبنى الكبار فى زياراتهم المتباعدة لبيت عمى ابراهيم فأرقب الدجـاج والأرانب وهى تهرب منى الى جحورها بمجرد أن ترانى ، ثم وأنا

الاعب العنزة سعدة وأدبت على شعر صغارها . مرة واحدة فقط أذكر أن عمى ابراهيم منعنى من الخروج الى حديقته لأن العنزة سعدة كانت حديثة الولادة فيما أذكر ، ومداعبتى لها قد تأخذها على غير حملها ، فتؤذينى برفسة أو نطحة منها ، أو قد ينقطع لبنها على حد اعتقاد جدتى والدة عمى ابراهيم) . ولما كان الفرق بينه وبين امه فى العمر يبلغ حوالى عشرين عاما ـ وكان يشبهها بأنها بمثابة سقفه الذى يحميه ـ فمعنى هذا أنه لايزال أمامه دائما عشرون عاما على الأقل على نهاية حياته . فقد كانت امه سقفا له .

« الجبل الكبير سقف للجيل الذى يليه ، فاذا انهار السقف أصبح الجيل الذى يليه بدوره سقفا للجيل الذى بعده وهكذا » .

ورغم شغفه بالعزلة وعزوفه عن الناس ، الا أنه كان دائم التبشير بمبادئه بين معارفه القليلين ، وفى مقدمتهم أقارب بركة الرطل الذين سخروا أول الأمر من آرائه ، لكنهم ما لبثوا أن تأثروا بها ، وأخذوا يمارسونها شيئا فشيئا ، دون أن يعلنوا ذلك صراحة . كما كان دائم الاطلاع على أحدث الكتب التى تعالج موضوعات الاحتفاظ بالصحة بالطرق الطبيعية ، كتنظيم الطعام والرياضة وتجنب القلق ، لكنه كان عدوا للأدوية وليس بينه وبين الأطباء ود كبير . وقد كانت تلك الكتب فى ذلك الوقت قليلة ، فاذا عرفنا أن الوعى بطرق الوقاية الصحية الطبيعية لم يكن منتشرا وقتها كما هو اليوم ، أدركنا الى أى حد كانت ريادة عمى ابراهيم فى هذا المجال . وكان يعلن أن فلسفته تتلخص فى أسس ثلاثة : نظام للطعام كيفا وكما ، ونشاط بدنى يحرق السعرات الحرارية التى يولدها الطعام ، وراحة نفسية

تتحقق سلبا بالبعد عن المشاكل ما أمكن ؛ وايجابا بايمان لا يعرف تعصبا يقلب الهدف منه .

لهذا استقال من وظيفته ، واقترب من الطبيعة سكنا ونشاطا وطعاما . وكانت أمه سقفا له . .

النهايـــة :

فى اليوم الثالث طرق باب بيت عمى ابراهيم طارق ، فلما فتحته أمه وجدت أمامها أخى الكبير يسألها عن أخبار عمى ابراهيم ، فهبط قلبها وادركت أن كارثة لابد قد حاقت به . ولما عرف منها انه لم يعد منذ اول امس ، ابلغ اقاربه فأسرعوا ينتشرون فى العاصمة يسألون أقسام الشرطة ومختلف المستشفيات ، حتى عثر عليه أخى فى اليوم التالى راقدا فى أحد المستشفيات مصابا بكسر فى ساقه اليمنى ، وقد انتابته الحمى وفقد الوعى ، اذ يبدو أن الجرح كان قد تسمم . واتضح انه كان يعبر بدراجته تقاطع الطرق المزدحم عند صيدلية الاسعاف الشهيرة ، عندما صدمته سيارة ، سمعنا أنه قبض على سائقها ، ثم أخلى سبيله فيما بعد . وكان واضحا أنه ــ بسبب عدم ظهور أقرباء له ساعة الحادث ــ لم يلق العناية الكافية ، فلم يهتم أحد بالاتصال بمعارفه برغم انه يحتفظ ببطاقته الشخصية فى جيبه . ولم يكترث من أسعفه بتطهير الجرح بعناية ، ولا وضع جبيرة للكسر ، بل مجرد قطعة خشبية بطول الساق شدها برباط رشح منه الدم حتى تخثر واسود . وعندما حاولوا نقله الى مستشفى آخر قد يلقى فيه عناية أفضل قيل لهم ان حالته خطرة ، وعندما أعيد الكشف على ساقه قيل انها يجب أن تبتر فى محاولة لانقاذه قد تنجح وقد تفشل . وقال الطبيب : لولا

سلامة قلبه لما استطاع جسمه المقاومة كل ذلك الوقت . وعولج فورا ـ اقصد بعد أربعة ايام ـ بالمضادات الحيوية عسى ان تخفف حدة التسمم ، وتهبط حرارته قليلا فيمكن اجراء الجراحة، غير ان الوقت كان قد تأخر ، فلم تبتر ساقه ولم يعد الى بيته .

بقية لا لزوم لها :

(ا) من اقوالـه :

عندما سمعت عن الحادث الذى وقع له فى تقاطع الطرق تذكرت ما قاله لى يوم مات صديقه عمى موسى ردا على تساؤلاتى المراهقة ـ وكان صديقه يطبق ما يطبقه من مبادىء ـ وقد مات اثناء عملية جراحية له . قال ردا على تساؤلاتى المراهقة :

ـ هناك ارادة فوق ارادتنا ، قد تتقاطع طرقها مع طرقنا ، وهذا لا يمنعك من أن تذاكر لتنجح ، ولا يمنعنا من الذهاب الى الطبيب عندما نمرض ، فقد يكون الطبيب هو أداة هذه الارادة لشفائنا . وبالعكس فاننا لا نذهب لنضع رقابنا على قضبان السكة الحديدية ونقول : اذا كان لنا « نصيب » فلن تمر فوقها عجلات القطار . فالعبد فى التفكير والرب فى التدبير .

(ب) فى جنازتـه :

كانت أمه أول شخص قدمت له العزاء . لاحظت أنها كبرت عشر سنوات مرة واحدة ثم .. عزيت نفسى .

اصررت على السير فى جنازته . كانت أول جنازة أسير فيها فى حياتى .. انتزعت يومها الاعتراف بأنى انتقلت الي عالم الكبار .

همس أحد المشيعين : لم يعش كما خطط لنفسه .
تحمست مدافعا : ولم يعش عالة على أحد .

نظر الى باندهاش ـ فلابد أنه لاحظ يفاعتى ـ وواصل مصرا : كان يمكن ان يكون عالة على الآخرين لو انه عاش بعد الحادثة .

اعتبرت ذلك اساءة الى ما كافح من اجله عمى ابراهيم طول حياته وأن تكون هذه الاساءة وجثمانه ربما ما يزال دافئا فوق الخشبة . فقلت بغيظ ، ولكن بينى وبين نفسى : لم يكن عالة عليك على كل حال .

ثم جرؤت أن اهمس بصوت يسمعه ، وكانت الأسرة قد آثرت أن تكون الصلاة واقامة السرادق بجوارها فى بركة الرطل :

ـ عمى ابراهيم كان يعمل لآخرته كما كان يعمل لدنياه ، ومسجد الرحمن الذى فيه صلينا عليه الآن هو المسجد الذى كان يصلى فيه كل يوم جمعة .

وقد قصدت ان أقول « عمى » حتى أوضح لهذا الغريب أن المرحوم الذى يحاول أن يتطاول عليه ما هو الا قريبى فأنا أعرف به منه .

كان قد استقال من وظيفته ليحصل على حريته ، واقترب من الطبيعة اكثر ليحصل على سعادة أكبر وصحة أفضل . وعند تقاطع الطرق وقع له حادث . وأمه التى كانت سقفه ما زالت سقفا تحته فراغ ، ولم تبتر ساقه ولم يعد الى بيته .

ثلاث قصص من ذكريات الطفولة

حمار جدى

كانت أمى تعارض دائما تحقيق امنية طفولتى فى اقتناء الطيور والحيوانات الأليفة بحجة ان شقق المدينة لا تتسع لمثل هذه الكائنات . ومن حسن حظى ان افراد أسرتنا لم يكونوا كلهم من سكان المدينة ، فقد كان جدى وجدتى ــ يرحمهما الله ــ من سكان جزيرة ريفية بمحافظة المنيا بصعيد مصر الأوسط ، ومنها كانا يرسلان لنا خزين العام من جبن وسمن وكشك الى جانب الفطير المشلتت المصنوع من رقائق العجين المغمور فى السمن ، وكان وصول هذا التموين يوم عيد لنا نحن الأطفال ، لا سيما حين نتحلق لالتهام الفطير المشلتت نأكله مع الجبن المنقوع فى المش . وكان جدى يرسل هذا التموين مع بحارة المراكب الشراعية التى ترسو على ساحل النيل بمصر القديمة ــ احدى ضواحى القاهرة ــ حيث كنا نسكن ، محملة بخيرات الجزيرة الريفية من بصل وثوم وفول وعدس وقثاء .. لبيعها لتجار القاهرة طبقا لصفقات تم ابرامها سابقا .

وفى كل صيف كنت اسافر مع أمى واخوتى الى جزيرة شارونة لقضاء الاجازة الصيفية عند جدى وجدتى ، على أن

يلحق بنا ابى ليقضى اجازته أيضـا معنا ، تعود فى نهايتهـا الى القـاهرة .

ولمـا كانت محطة القطار القادم من القاهرة تقع على البر الغربى بمركز مغاغة ؛ فقد كان على كل وافـد الى الجزيرة أن يعبر النيل فى أحد القوارب الشراعيـة المعدة لذلك . كما كانت بيوت القرية تحتل أعلى بقعة فى وسط الجزيرة حتى لا يركبهـا النيل عند فيضانه . لهذا كانت تفصلها عن شاطىء النيل مسافة من الأرض الرملية والحقول . وكان جدى يشفق علينا ــ نحن ابناء المدينة ــ ان نقطع هـذه المسافة سيرا على الأقدام فى مثل هذه الأرض المتربة حينا الموحلة حينا آخر او تحت وقدة الشمس اذا كان الوقت ظهرا . لهذا كان يرسـل لنا عددا من الحمير لنركبها ، يملك واحدا منها ويستعير الباقى من الأقرباء والأحباء . وعندما يقترب قاربنـا من شاطىء الجزيرة كنا نستطيع أن نلمح أقرباءنا من الشباب يقفون الى جانب حميرهم ملوحين لنا مرحبين بنا . ويبدو أن ارسـال الحمير كان فيه معنى من معـانى التكريم لهؤلاء القادمين من العاصـمة حيث جميـع أنواع المواصـلات واحدثهـا .

وكان جدى شديد الاهتمام بحماره ، فالبردعة (السرج) دائما جديدة ذات الوان زاهيـة ، واللجام فى فمه يوضع خصيصا يوم وصولى حتى أتشبث به فلا يسهل وقوعى وأنا ابن البندر الغشيم . واذا تسلخت بشرته نتيجة احتكاك السرج بظهره فانه يعفى من العمل مباشرة . وكان يبدو أنه يتردد على الحـلاق ــ أو المزين بوجه أصح ــ فقد كان يزينه حقا بهذه النقوش الهندسية التى يصنعها بمهارة التقاء المقص بشعر الحمار . وكنت أستطع

أن اميزه بلونه الأبيض وأذنيه الطويلتين ـ عن بقية الحمير ـ اللتين تنتصبان الى الأمام كلما لاح أن هناك خطرا يهدده .

وعلمونى كيف أركبه ، وكيف احمله على الاسراع فى مشيته بأن اهز ساقى المتدليتين الى جانبيه ولا استعمل العصا الا فى حالات نادرة ، فهو مؤدب مطيع . وكنت أحاول أن أكتشف أين تكمن فيه هذه الغباوة أو البلادة التى جعلته مضرب الأمثال ، لكنى اكتشفت أن فى هذه التسمية لونا من المبالغة . فقد سمعت أنه يذهب كل فجر من البيت الى النيل يحمل على ظهره بلاصين أو جرتين دون مرشد أو قائد ، فتعرفه الصبايا اللاتى يملأن جرارهن ، ويتطوعن لملء الجرتين ، وما يلبث أن يعود بهما ثلاث مرات أو اربع حتى تمتلىء الأزيار الموجودة فى بيت جدى .

وقد علمنى حمار جدى الحساب ـ وعلى وجه التحديد الأعداد ـ فى طفولتى المبكرة . كنت اذهب مع جدى الى حظيرة الحمار ليضع له الطعام ، فأستمتع برؤيته وهو يمضغ أعواد البرسيم أو يجرش الفول بينما يهش الذباب عن ظهره بذيله . ويتحين جدى الفرصة ويسألنى : كم أذن للحمار . فأجيب مندفعا صارخا مثبتا ذكائى وفائزا بمدحه أمام زواره : اثنان . وكم عدد أرجله ؟ أربعة . وكم ذيل له ؟ واحد . حتى لقد ارتبطت عندى الأعداد بأطراف الحمار فى طفولتى ولزمن طويل فيما بعد .

وكنت وأنا أركبه أتذكر قصصا كثيرا ما سمعتها فى ريفنا المصرى . فالضباع موجودة بالجبل فى هذه الضفة الشرقية ، ويقال انه اذا أحس بها الحمار فانه لا يلبث أن يتوقف ثم يتبول دما ، لهذا كلما وقف حمارى لسبب ما ـ لا سيما اذا كان الوقت ليلا ـ كنت أتوقع أن أراه يتبول دما رغم كثرة الأقارب والأحباء الذين كانوا فى صحبتنا .

وحين أصبحت فى التاسعة أو العاشرة رأيت أننى كبرت بما فيه الكفاية بحيث يحق لى ان اركب حمار جدى بمفردى . واصررت ان يتركونى وحدى فوق الحمار فى طريق ذهابنا من شاطىء النيل الى بيت جدى . وما أن تحققت امنيتى حتى تخيلت اننى فارس كهؤلاء الفرسان الذين كنت أشاهدهم يقومون بالعاب فروسيتهم فى أيام الأعياد فى الساحة التى يطل عليها بيتنا فى القاهرة ؛ لكن الحمار اصر على ان يسير ببطء لا يرتفع الى مستوى نشوتى وخيالى ، فأردت ان اجعل منه حصانا ، واستعنت بالعصا الى جانب الوسائل الأخرى لأحمله على الركض . ولست أعرف حتى الآن هل قصد الحمار معاقبتى على هذه القسوة الطائشة أم ان المسكين حاول الطاعة فلم تكن مستطاعه ، ذلك اننى ما لبثت ان وجدت نفسى فجأة منحنيا على مجرى من مجارى المياه وقد تغطت ساقاى بالوحل ، ولولا اننى استندت الى كفى لوقعت بطولى فى المجرى أو فى طينه ، بينما وقف الحمار الى جانبى وكأنه لم يقترف شيئا . وتفرست فى الظلمة فى ملامحه فوجدتها جامدة لا تعبر عن شيء : هل هى ملامح تشف عن رايه فى غرورى الصبيانى أو هى ملامح اسف مما ألم بصديقه الآدمى . وقد اسرع الأهل فأعانونى على الوقوف والتخلص مما لوث ملابسى ، ثم أعفونى من امتطاء هذا الحمار ، أو فى الواقع اعفوا الحمار منى ، وأردفنى أخى الأكبر على حماره .

وكما يقول المثل « ما محبة الا بعد عداوة » ، فقد كان هذا الحادث نقطة تحول فى علاقتى بحمار جدى ، لأننا من يومها أصبحنا أصدقاء . ازوره فى حظيرته كل صباح أيام اجازتى الصيفية ، والحظيرة على بعد أمتار فى مواجهة بيت جدى . وكان فى أول أمره أحيانا ما يعيرني انتباهه وأحيانا ما يتجاهلنى تماما ،

فأحاول أن أحدثه لعلي الير التفاته ؛ وكنت ألمح كأنما دموع تنساب من عينيه ، فاتساءل عما يبكيه ، هل هي يا ترى وحدته وعدم وجود حمير آخرين يلعب معهم ، وان كان جدى قد حاول أن يفهمنى انها مجرد افرازات طبيعية . لكنى اتمنى لو ان جدى أشترى حمارة تؤنس صديقى الحمار وتلد جحشا صغيرا ألاعبه :

وقد عدت ذات صيف الى قريتنا فوجدت أن حمارنا أصبح عاشقا ؛ ويبدو انه تعرف فى احدى رحلاته الصباحية الى شاطىء النيل بأنثى من جنسه هام بها وهامت به ، فرمح خلفها حتى وقعت منه الجرتان وتكسرتا . ولما تأخر عن موعد عودته خشى جدى ان يكون قد اصابه مكروه او اختطفته احدى العصابات ، لكنه لم يلبث أن عاد ــ كما يعود الابن المشاكس ــ مع احدى القريبات وكانت تملأ جرتها . فشاهدته « يبرطع » متلبسا بغرامه الجديد . ومن يومها اصبح كلما مر بمنزل معشوقته حرن ونهق نهيقا يشوبه شجى العشاق ، وأبى أن يتحرك حتى يضرب ويوجعه الضرب .

وقد شهد ظهر هذا الحمار أولى ذكرياتى الغرامية ، فقد أرسل جدى ذات يوم احدى العاملات فى بيته لتصحبنى الى شاطىء النيل وانا فى طريق عودتى الى القاهرة ، ثم تسترد الحمار لتعود به بعد أن استقل المعدية أو العبارة . كانت فتاة فقيرة فى سن المراهقة مثلى عليها مسحة من جمال الشباب ؛ تتردد على منزل جدى لتؤدى له ولجدتى بعض الخدمات . ووجدتها تجاذبنى الحديث بدلال وبطريقة تنبهنى اليها ، واذا دمعتان كبيرتان تنحدران من عينيها . وبغير كلمات كثيرة أدركت انها تتمنى أن تتزوج ابن المدينة ، مما ملأنى بالغرور والأسف . ولم يكن

هناك غير هذا الحمار الصامت المجد فى السير شاهداً على هـذا الاعتراف الذى باحت به لى انثى لأول مرة فى حياتى .

وفى احدى السنوات ؛ وكنت قد اصبحت فى الثانوية العامة ؛ سافرت الى قريتنا شتاء هـذه المرة ـ فى اجازة نصف السنة ـ لأن العلة كانت قد اشتدت وطأتها على جدى وكان لابد ان نراه : فلم اجد حمار جدى فى انتظارنا ؛ وقيل لى أنه نفق . كما علمت ان الفتاة قد تزوجت ؛

وبعد عودتنا الى القـاهرة بلغنـا نبأ وفاة جدى ايضـا رحمه الله فأتت جدتى لتقيم معنا بالقاهرة حيث لم يكن لها ابناء آخرون بالقرية . من يومها انقطعت صلتى بجزيرة شارونة ، لكن يبقى حمار جدى حيا فى ذاكرتى .

القــط مشــمش

في طفولتي كثيرا ما توسلت لأمي أن نربي قطة في بيتنا . بل انني احضرت فعلا ذات يوم قطة صغيرة كانت ما تزال ترضع من امها وتريد اسرة صــديقي أن تتخلص مما ولدته قطتهم . غضبت امي وقالت :

ـ نحن نســكن في شــقة ؛ والقطط والكــلاب لا يربيهــا الا أصحاب المســاكن ذات الحدائق ، لأنها تحتاج الى الانطلاق في الخلاء تستمتع بالشمس والهواء ؛ وتجد مكانا مناسبا لفضلاتها .

ـ لكن يمكن أن نحضر لها طبقا كبيرا أو صندوقا به رمل لحل مشكلة فضلاتها كما يفعل اصدقائي .

ـ واين نضعه ؟ وعلى أن أقوم بتنظيفه كل بضعة أيام . تكفيني اعباؤكم .

ـ ستكون هذه مسئوليتي .

ـ بل قلت لك أعدها من حيث اتيت بها .

ـ حرام عليك ، سيتخلصون منها باغراقها ـ مثلما فعلوا من قبل ـ ان لم ننقذ حياتها وناخذها .

ـ انت لا تعرف الأمراض التى تجلبها مثل هذه الحيوانات للانســان .

وفشلت محــاولات اقناعها ، فعدت بالقطة الى صــديقى حزينا محبطا . لكننى لم أيأس .

فى يوم من الأيام قلت لها : لو اننى حصلت على مجموع فى الشهادة الابتدائية اكثر من ٩٠٪ فماذا ستكون هديتك لى ؟

قالت وهى واثقة اننى لن احصل على مثل هذا المجموع : سأهديك ما تشاء .

صرخت فرحا : اريد قطة .

لم تعرف كيف تتخلص من هذا المطب الذى لم يخطر ببالها ، فاكتفت بأن قالت ضاحكة : سنرى .

لم اكتف بهذا الرد الغامض ، بل أسرعت باحضار ورقــة جعلتها تكتب عليها بخط يدها : أسمح لابنى .. باحضــار قط له اذا حصل على أكثر من ٩٠٪ فى الشهادة الابتدائية . يلى ذلك توقيعها والتاريخ .

وقد بذلت كل جهدى لأحصــل على نجاح متفوق . وعندما ظهرت النتيجة فوجئت امى باننى حصلت على مجموع ٩٣٪ . وهــكذا استطعت بمجهودى أن أحقق امنيتى التى طالمــا كنت أحلم بها .

احضرت قطا صغيرا أسميته مشمش للون فرائه المشمشى. وتعهدت ان اقوم على خدمته واطعامه وتنظيف مكان فضــلاته بعد ان دربته اياما اين يفرزها . وقد استغرق ذلك بعض الوقت كانت امي تهددني خلاله بطرد القط حين تعثر على فضــلاته تحت السرير أو فى ركن من أركان البيت المنزوية . مع انى كنت حريصا ان اسارع قبلها برفع هذه الفضلات فور عودتى من المدرسة .

وقد ادركت سر تعلقى بقطى مشمش ، فقد بدا يخصنى بالفة لا يمنحها لباقى افراد الأسرة ، مما كان يعطينى احساسا بالزهو عليهم . ولعــله كان يدرك أن أمى تنفر منه ، وأن أبى لا يحس بوجوده ، وأن اخوتى ــ وان لاطفوه أحيانا ــ الا انهم لا يولونه رعاية ولا عناية كاطعامه وتنظيف مكان فضــلاته ، فقد اطمانوا الى ترك هــذه المهمة لى . وكان مشمش يرد لى هذا الجميل بأن يتمسح بى كلما رآنى جالسا أستذكر دروس ، فاربت على راسه وهو يهزها متجاوبا معى مستمتعا بما افعل . واحيانا يجلس مطمئنا فى حضنى وهو يتلو قراءاته الخافتة بلغته القططية التى وان كنت لا افهمهــا الا اننى أحس انهــا تعبر عن مــدى ســعادته .

وحين كنت آخذه معى لينام فى سريرى كانت أمى تحذرنى مما قد ينقله من امراض . فكنت أجيبها اننى أعنى بنظافته ، بل هو يلعق فراءه دائما .. وهكذا أدركت أن أمى تتحين الفرص للتخلص من وعدها . وكانت تقول كلاما لم افهمــه الا عندما كبرت : إن شفقتى عليــك تبدو قسوة تماما كما أعطيــك دواء أو حقنه تؤلمــك لتبرأ من مرضك ، أما الشفقة المدمرة فهى إن أجنبك مرارة الدواء وألم الحقنة فيشتد مرضك وقد تموت .

ولقد حانت الفرصة لتطرد امي قطي مشمش . فقد نمت له اسنان ومخالب وبدا يمزق ستائر البيت وسجاجيده . ولئن استطعت ان اقص مخالبه فماذا استطيع ان افعل بأسنانه . قبضت عليه مرة من فروة قفاه ، ومرغت وجهه فيما مزقه ، وضربته بكفي على ظهره بشيء من العنف ، وهو يموء باكيا ثم يحاول ان يعضني أو يخمشني . لكنني لم اعد الى ذلك مرة اخرى لأنه بدا يخافني وانا لا اريد أن افقد صداقته .

وعدت ذات يوم من مدرستي فوجدت امي غاضبة اشد الغضب من قطي ومني فلا تفرقة بيننا ، وسحبتني من يدي الى ستارة غرفة الصالون الجميلة الغالية وقد تمزقت حوافها تماما .

كان على اذن ان اقوم بالمهمة الصعبة ، وضعت صديقي الشقي في حقيبة السوق واغلقتها بقبضتي تاركا له فتحة صغيرة للتهوية . واصطحبني والدى بالقطار حتى وصلنا الى حلوان آخر محطات هذا الخط (وكنا نسكن في مصر القديمة) . وهناك تركته بقلب ممزق في احد شوارعها وانا أرجو ان تلتقطه اسرة طيبة تطعمه وتدفئه .

لكن حدث في مساء اليوم التالي ما لم اتوقعه . ففي اثناء عودتي الى شقتنا لمحت قطي العزيز مشمش واقفا يموء يتشمم بابها ، وما ان رآني حتى خطا نحوي كأنما في ذل يتمسح في .. كيف عرفت طريقك ايها القط الذكي الوفي على بعد المسافة ، وقد ابعدناك بالقطار فلم تترك وراءك آثارا تعينك على العودة ، وأية أهوال يا ترى وجدتها في طريق العودة ، وهل بت ليلتك امس مع القطط الشاردة وانت القط المدلل ، ام وحيدا مصمما

على العودة . لابد وأن اقابل وفاءك بوفاء ، وأن تكون مكافاتك على ذكائك ووفائك أن تدخل معى ، لعلك تستثير شـفقة أمى عليـك .

لكننى عندما انحنيت عليه لألتقطه لاحظت قذارة تكسـو شعره المشمشى الذى حال لونه الآن فى بعض أجزائه . كمـا لاحظت هزاله وضعف عوائه . وكأنما الفترة الزمانيـة والمسافة المكانيـة التى انقضت بينى وبينـه قد أقامت لونا من الغربـة بيننـا .

وعندما اصطحبته معى داخل الشـقة بادرت أمى قائلا : انظرى وفاء مشمش رغم ما فعلناه معه ، قطع هـذه المسافـة الطويلة وعاد الينا ، وهو الآن مريض ارجوك أن يبقى معنا حتى يسترد صحته ويكون لدينا وقت للتفكير فى حل أفضل له ولنا .

مخاوف أمى اخافتنى حين اجابت : ومن أدراك أن كلبـا أو قطا مسعورا لم يعضـه ، فينقل هذا المرض القاتل اليك أو الى أبيك او امك أو أحد اخوتك ؟

ـ اذن نعرضه على قريبنا الطبيب البيطرى .

ـ بل يتصرف فيه ، فلاشك أن من بين زبائنه من يحتاجون الى قط أو كلب بدلا من قطهم أو كلبهم الذى فقدوه .

اعترضت أولا على هـذا الراى ، لكنى ما لبثت أن رضخت له عندما حاولت أن أطعم قطى مشمش فباءت كل محـاولاتى بالفشل ابتداء باللحم وانتهاء باللبن .

ولم أعرف مصير قطى مشمش حتى اليوم ، وان كنت قد انصرفت عن التعلق بالقطط بعد هذه التجربة ، فلم اكن احب أن أكررهـا .

* * *

وفيما بعد اتضح أن ذلك كان من حسن حظى . فعنـدما كبرت وتزوجت اكتشفت أن زوجتى ما ان تكون فى غرفة بها كلب أو قط حتى تصيبها نوبة سعال حادة لا تنجو منها الا بعد حقنها بدواء ضد الحساسية وابعاد الحيوان عنها أو ابتعادها عنه فورا.

مـع الحمـام

فى طفولتى كنت مغرما بصغار الحيوان والطير . وكنا نسكن شقة من شقق المدن لا تسمح بتحقيق هوايتى لكن الحـاحى على معارضى الأول ــ اقصد أمى ــ كان يفلح أحيانا قلائل .

وربما كنت فى السابعة أو الثامنة من عمرى عندما أفلحت فى اقناع أمى باقتناء زوج من الحمـام ؛ بعد أن هيأت لهما مكانا فى شرفة المطبخ . وكان يسـعدنى أن أصحو على هديلهما ، وأن ارقبهما وهما يتبادلان الرقـاد فوق البيض ، وأن افاجأ ذات صباح بتحول البيض الى أفراخ يزقها الأب أو الأم طعامهـا ، وأحيانا ما كانت أمى تقوم بهذه المهمة نفسها للأب والأم وأفراخهما على السواء فتعد طعامها وتملأ به فمها ثم تدفعه فى مناقيرها بعد أن تضغط عليهـا ضغطا خفيفا لتفسح ما بينهـا وأنا أتابعها فى شغف ونشوة .

لكن أمى كانت دائمة البرم بوجود الحمام ، فقد ملأ الشرفة بفضـلاته ، وعرقل عملية نشر الغسيل على حبالها الممتدة من سورها ، بل لوث الغسيل أكثر من مرة مما تسبب فى ضـياع جهدها ووقتها .

وذات يوم فتحت باب الشرفة لأجدها خالية من زوج الحمام وظننت السوء فى أمى اولا ، لكنها أوضحت لى بانها أهملت قص ريشهما – كما كانت تفعل من حين لآخر – ولا بد انهما طارا او ان صاحب الغية سرقهما . فقد كان لنا جار لديه مجموعة من الحمام فى برج فوق سطح بيته القريب يطلقها كل غروب – بعد أن دربها – لتطير فى سرب يجذب خلفه كل ما يستطيع الطيران من حمام الجيران لتعود بصيدها الى برجه قبيل حلول الظلام .

غير اننى انحيت عليها باللائمه : لو لم تتصرف فى افراخهما لما طارا : فالحمام الذى عنده افراخ لا يبعد ابدا عن مكانه .

– هل نسيت انك أنت الذى تحمست لاعطاء الفرخين لابن عمك ؟

– لكنك كنت انت صاحبة الاقتراح .

– لأننى رايته كلما زارنا كان يترك كل شىء ويقف عند الشرفة يراقب الحمام .

وما ازال اذكر فرحتى حين سمعت صباح اليوم التالى هديل حمامى . فأسرعت أبلغ الخبر لأمى التى عادت معى لتفتح باب الشرفة فى حذر وتقبض فى مهارة وخبرة على زوج الحمام وتقص ريشهما .

غير انها فرحة لم تطل ؛ فقد عدت فى احد الأيام من مدرستى لأجد الشرفة نظيفة خالية . فأدركت ان أمى نفذت تهديدها وذبحت زوج الحمام . يومها انفجرت باكيا ورفضت أن أشارك فى طعام مطبوخ فى حسائهما فضلا عن تذوق لحمهما .

ثلاث حكايات عن الفئران

منذ آلاف السنين وعدد الفئران فى أرض مصر ـ فيما يبدو ـ لا يتغير كثيرا . قد ينقص قليلا وقد يزيد قليـلا ، لكنهـا زيادة ونقصان لا يثيران الانتباه . كذلك الأمر مع أعداء الفئران : الحداة والصقور والغربان ، الى أن تدخل الانسان

كان الأمر متروكا للتوازن الطبيعى ، فمياه الفيضـان تقضى على جزء من التكاثر الفئرانى ، والحداة والصقور والغربان تقضى على جزء آخر ، ويبقى جزء ليستمر النوع ويمارس حياته على حساب الانسان ، كما تبقى البراغيث على حساب الفئران ، وكما يبقى الطاعون والتيفوس على حساب البراغيث . وفجـأة اختل هذا التوازن .

الحكايـة الأولى :

وقد بدأ الأمر هكذا ـ على الأقل بالنسبة للسـذج ومن يريدون تبسيط الأمور ولا يستريحون الا اذا جعلوا لكل ظـاهرة بداية محـددة ولو وهما ـ كان سليم السـلامونى طالب الطب

ألوحيد فى قريتنا جالسا امام مكتبه قبيل منتصف الليل يستعد لامتحان التشريح ، وقد وضع جمجمة بشرية أمامه وبجواره صندوق من الكرتون به بقايا هيكل بشرى . وكان قد حرم على امه ترتيب غرفته او تنظيفها حتى لا تخل بنظام كتبه ومذكراته التى تناثرت فيما يحسبه غيره فوضى حتى لكأنها مرسم فنان او مخزن مهجور . كان التراب قد علا بعض المراجع التى لابد انه كان يستخدمها فى سنوات دراسته السابقة ولم يعد يحتاج اليها اليوم فلم يمسها منذ شهور وربما منذ سنين . وكانت تتناثر فى اركان الغرفة شبه المظلمة صناديق فارغة وعلب نصف ملأى بخطابات وبطاقات قديمة وحديثة وصور تحمل ذكريات بهتت الآن من ايام دراسته الثانوية واشرطة كاسيت .. وضوء مصباحه المكتبى يضىء حيث جلس وحيث وضع الجمجمة ؛ بينما تسترخى الظلال على معظم انحاء الغرفة . وكانت امه تتشاءم اول الأمر بما يحمله ابنها الى البيت من عظام آدمية . وترى ان فى هذا اعتداء على حرمة الموتى ، وانه قد يطرد الملائكة ويجلب الشياطين . فلما حاول ابنها اقناعها بأنها ضريبة الأموات فى سبيل صحة الاحياء سكنت على مضض ؛ وان ظلت على توجسها بل توقعها ان يصيبها ـ أو يصيب ابنها ـ سوء .

وعندما دخلت على ابنها تحمل له كوب الشاى الساخن لاحظت ـ كما لاحظ ابنها ـ ان الجمجمة تتحرك . فما كان منها الا ان صرخت بأعلى صوتها ووقع منها الكوب فاندلق الشراب الساخن من يدها الأخرى ، فصاحب الجمجمة لابد انه بعث وها هى ذى الروح قد دبت فى جمجمته ، بينما تملكت الدهشة سليم لحظات . وكانت الجمجمة قد عادت الآن الى سكونها . غير أنها ما لبثت ان عادت الى الاهتزاز كأنما بفعل ريح خفية .

وبينما كانت الأم تبسمل وتحوقل ، كان سليم ـ الذى لم يجرؤ أن يمد يده الى الجمجمة ـ يبحث عن عصا رفيعة : فلما وجدها ادخل طرفها فى عين الجمجمة : مما مكنه من أن يرفعها ببطء ليفاجأ بفار صغير يقف حائرا فى اسفلها كانما ضوء المصباح الباهر قد أعشاه . غير انه ما لبث ان هرول ـ مستغلا المفاجأة التى شلت سليم لحظات ـ وابتعد عن دائرة الضوء محتميا فى عتمة الظل وفوضى الغرفة ، قبل أن يفيق سليم ويتخلص العصا من الجمجمة فى محاولة منه لينهال بها على :، لاشيء .

ومن قبل : وفى مساء احدى ليالى يونيو الماضى منذ ثلاثة اشهر ، كان عوض عوضين يهم برى حقله عندما احس بحركة اشبه بتدفق المياه بين اعواد زراعته . فى الصباح ابلغ عمدتنا الجهات المسئولة بالمركز أن قوافل الفئران غزت حقول قريتنا . وبعدها توالت البلاغات من أهالى القرى المجاورة : غزالة ، والطاهرة ، وميت ركامة . وامتد الانتشار الفئرانى من محافظة الشرقية الى محافظتى الدقهلية والقليوبية واصبح يفصلها عن المزارع التى تحيط بالعاصمة شمالا أقل من عشرين كيلو مترا فقط . ونشرت الصحف ان انشاء السد العالى الذى منع ماء الفيضان وطميه عن ملء شقوق الأرض حيث تبنى الفئران جحورها ، وكذلك استخدام المبيدات الحشرية الذى قضى على أصدقاء الفلاح : الحداة والصقور والغربان ، هى أهم أسباب هذا التكاثر الفئرانى .

وقد هاجمت الفئران زراعات الطماطم فأبادت مساحات شاسعة منها ، ثم اغارت على زراعات البطيخ والتهمت سنابل القمح ، وتسلقت أعواد الذرة لتقشر كيزانها من أعلاها والتهمت ما بها من حبوب ، بل انها اكلت بذور الذرة وهى ما تزال مزروعة

تحت الأرض فلم تنبت أصلا ؛ وصعدت ابراج الحمام لتقضى على الأفراخ مما اضطر اسرابه الى النزوح الى ابراج اخرى . وهاجمت حقول الأرز واويزات القطن وزراعات البرسيم وحدائق الفاكهة ثم ظهرت ـ وهى الحيوانات الليلية ـ نهارا ؛ فاعلن علماؤنا ان ذلك دلالة على وجودها بكميات كبيرة جدا تخالف ـ بسبب شدة زحامها ـ طبيعتها وسلوكها المعروفين . ثم تسللت الى مواقع الكتاكيت ومزارع الدواجن . بل هاجمت دجاجة كبيرة فى وضح النهار هى ترقد على البيض فالتهمتها كما التهمت بيضها . ووصل الأمر الى حد مهاجمة بعض صغار الماشية ؛ فاتت على حمار رضيع . كما التهمت فخذا كاملا لعجل صغير وهو ما يزال على قيد الحياة .

الحكاية الثانية ـ (بعد اسبوع) :

بجوار كوبرى النوبارية ؛ كمن المقدم سامى البرامونى مع افراد قوته الصغيرة فى انتظار تاجر المخدرات على عليوة . كان يرقد ممددا على بطنه فى ظل حائط صغير الى خلفه . وقد نبتت بعض الأعشاب القصيرة حوله . وكانت قد مضت عليه قرابة الساعة وهو ساكن فى رقدته وحواسة كلها متيقظة لأى همس أو حركة . يلحظ من رقدته حركة الضوء والظل حينا ؛ والشقوق التى تتفاوت فتحاتها فى التربة الجافة حينا . وثمة غراب وحيد حط على الأرض على بعد أمتار منه ، ثم قفز عدة قفزات والتقط ما يشبه الدودة ، ثم طار بعيدا حتى اختفى . كان يعرف أماكن رجاله الذين يكمنون معه على القرب منه بحيث يمكن ان ينجدوه لو تعرض لأية مقاومة أو مكروه ، فلم تكن هذه أول مرة يقوم فيها بمثل هذه المهمة . كان الآن يسترجع خليطا من الذكريات القريبة والبعيدة فى قفزات بغير نظام متسائلا هل

تراه اخطأ باختيار هذه المهنة الشاقة ، والترقيـة الوشيكة ، وابنه الوحيد الذى بلغ سن المراهقة وبدأ يثير المشاكل فى الداخل والخارج ؛ وذكرياته الحلوة والمرة فى الصعيد عندما كان ملازما اول حديث التخرج .. وفجـأة أحس بحركة فى المسافة الضيقة بينه وبين الحائط .. لم يبق الا خمس دقائق على الموعـد المتوقع لوصول التاجر طبقا لمعلوماته ، رفع راسـه ببطء وحذر ونظر عن يمينه ؛ لدهشته لمح فارين يتعاركان .. تذكر مدرس الحساب فى مرحلته الابتدائية ، كان فخورا بهوايتـه للعقارب ، كان يحضر معه بعضها احيانا فى أوان زجاجية أشبه بتلك الأوانى الموجودة بمعمل العلوم بالمدرسـة الثانوية فيما بعد وكان يمسكها بملقاط ليخرجها من هـذه الأوانى ويدخلها فيها وهو يحـاول أن يبث الشجاعة فى نفوسهم المرتعبة ، وذات مرة ظهر فار صغير جدا مرق كالبرق فى ارضـية الفصل الدراسى فاضطرب هذا المدرس نفسه اضطرابا وصـل الى حد الهرب خارجا من باب الفصـل وسط ضحكات الطلبة الصغار الذين يتشفون الآن فيه ، ولم يعد الى الدخول الا بعد أن تأكد تماما أن الفار ذهب الى غير عودة .. رأى الفار اذن أكثر من مرة لكنه لم ير فارين يتعاركان .. الخطأ خطؤه .. كان قد أكل ساندويتشا ــ كانت زوجته قد أعدته له خوفا عليه من الجوع اذا طال تربصـه ــ وقد التهمه الآن خوفا من أن يجوع فى وقت غير ملائم ، وفى نهاية الساندويتش كانت هناك قطعة من الخبز لم تصلها قطعة اللحم التى حشى بها فالقاها بعيدا عنه .. وهكذا جذب بفعلته الفارين ليفسـدا عليه خطته ، لكنه قرر الا يأبه بشجارهما وأن يعود الى وضعه مترقبا متحفزا . غير أن الفـارين اللعينين ما لبثا أن قفزا فوق ظهره يستأنفـان معركتهما ، اذن فهما يعاملانه باعتباره شيئا .. لو يعلمان أن الروح تدب فيه لإختفيا تماما ، بذل جهدا اراديا مضنيا حتى

لا يتحرك فيكشف موقعه راجيا الا تزداد المعركة اشتعالا . وقد نجح فلم ينتبه الفأران اليه ، ولكن فى الوقت الذى كانت السيارة المتوقعة تهدىء من سرعتها بالقرب منه كانت المعركة قد انتقلت فوق راسـه ، وفى حركة لا ارادية مد يده فوق راسه يهش بهـا الفأرين كما يهش ذبابة ، وكانت من العنف بحيث أطاح بهمـا بعيدا فقفز كل منهما فى اتجـاه ؛ وكانت كافية أيضا لكى ينتبه اليه سائق السيارة ـ وهو راكبها الوحيد ـ فعاد يزيد من سرعة سيارته ، فى الوقت الذى كانت السيارة الأخرى قد وصلت ؛ غير انها ما لبثت ان اقتفت اثر السيارة الأولى ؛ واختفت بدورها عن الأنظـار .

وقد اعلنت المحافظات التى غزتها الفئران عن مكافأة قدرها خمسة قروش لكل من ياتى بفأر حيا او ميتا ، فاقبل الأهـالى على شراء المصـايد حتى ارتفعت أسـعارها . بينما أعلن أحد المحافظين انه على كل عريس فى محافظته ان يسلم خمسين فأرا لعمدة قريته كشرط لاتمام زواجـه . ولـما كان هـذا الشرط متعذر التحقيق بالنسبة للعريس المشغول بعروسـه وبالاعداد لاقامة حفل زواجه ، فقد أسرع شباب القرى باصطياد الفئران وبيعها لراغبى الزواج . وكانت حصيلة الشراء فى الأسـبوع الأول ثلاثة آلاف فأر ، تضاعفت فى الأسبوع التالى . وقد تبين أن هذه الأعداد كان مبالغا فيها اما اظهارا للنشـاط واما لأن البعض كان يريد ان تتضاعف المكافآت دون أن يتضاعف الصيد . فتوالد الفئران كان أكثر كثيرا مما قضى عليه منها . وكما ازدادت عددا فانها ازدادت حجما حتى أن مصيدة جارنا سويلم اصطادت فأرا كبيرا فاستطاع أن يسير بمصيدته بضـع خطوات ربما فى محاولة للاختفاء بها فى مكان بعيد عن الأنظار .

الحكاية الثالثة ـ (بعد يومين) :

تمددت جارتنا فاطمة عبد الغنى ـ وهى أم لستة أطفال ـ بجوار أصغر اطفالها تهدهده الى أن يستغرقه النعاس ، لكنها ـ فيما يبدو ـ اغفت بدورها حتى أيقظتها قرصة فى خدها . اعتقدت فى غبشة الادراك ، وهى ما تزال تحت خدر النوم ، ان ابنها يهبشها بقبضته التى اخذت تشتد اخيرا ، فمدت يدها تزيح يده وهى تعاتبه : كده صحيتنى يا محمد ؟ لكنها فوجئت بصرخة حادة ثاقبة خاطفة لم تألفها اذناها فسحبت يدها فى سرعة مفزوعة ، وثمة جسم ملمسه يختلف قطعا من ملمس كف طفلها الرخصة ؛ انزلق على بطن يدها كالريح .. كالحلم .. ككابوس خاطف . وعندما مسحت هذه الطراوة الغريبة التى احست بها تنتشر على خدها ، ثم لمحت ـ فى دغش المساء ـ لونها الدموى ، عندئذ فقط استيقظت حواسها لتدرك أن طفلها برىء مما اتهمته ، وصرخت تستنجد به هذه المرة : الفار عضنى يا محمد . وعلى صوت صياحها ـ فلابد انها صاحت ـ هرول اليها زوجها ليستطلع جلية الأمر ، وكان يجلس مع ضيوفه فى قاعة البيت فى انتظار ان تعد الشاى لهم بعد تنويم طفلها . وهكذا انتشر الخبر ، وانتشر وراءه الفزع : ان الفئران بدأت تهاجم البشر . وكان معنى ذلك ان على كل أن يتخذ مزيدا من الأهمية والحذر .

وقد ضبطت الشرطة فى مدينة الزقازيق ـ بجوار المحطة الرئيسية لسيارتها العامة ـ جماعة من القرويين يحملون أجولة تتحرك فيها أشياء مريبة ، فلما فتحوا أجولتهم وجدوا بها مجموعات من القطط . فساقوهم الى مركز الشرطة ، وفى التحقيق اعترفوا بأنها قطط ضالة جمعوها من ازقة الزقازيق بقصد

بيعها فى القرى لمكافحة الفئران التى ضايقت الخلق هناك فأكلت اكلهم واقلقت منامهم . فحرروا لهم محــاضر تحرى ، واطلقوا سراح القطط ، ولمــا لم يكن مع القرويين بطاقاتهم الشخصية فقد حجزوا فى مركز الشرطة الى اليوم التالى حين اطلق سراحهم بعد التأكد من شخصياتهم .

اما قطنا مشمش فقد فاجأنا ذات يوم وهو يقف مرتعدا أمام فأر ــ وان لفت انظارنا ضخامة حجمه النسبية ، الا انه كان ما يزال اقل حجما من مشمش ــ لكنه كان من الواضح أنه اكثر منه شراســة وتوحشا ، فقد وقف أمام القط فى شبه تحد حتى حين سمع حركتنا ولمح اجسامنا ، وكان هــذا كافيا لأن يجعل مشمش يقف أمامه كمــا يقف امــام كلب غريب او قط اقوى منافس .. ظهره مقوس وشعره منفوش ويخرج مواء هو أقرب الى العواء ، بحيث عدل الفأر عن مهاجمته وفر هاربا . غير ان هذا لا يعد نصرا لقطنا الذى طالمــا دوخ الفئران ولاعبهم لعبة الموت فى تفوق ملحوظ قبل أن يقرقش عظامهم . وقد ظل مشمش منزويا منطويا على نفسه عزوفا عن الطعــام أياما كثيرة بعدها كانما اصابته حمى خفية او هزة نفسية ، ولعله خجل من هزيمته أمام فريسته الأزلية التى لم يتصــور أن ترقى الى مســتوى عدوه يوما من الأيام .

وروى سالم سالم ــ مؤلف المواويل ومغنيها فى قريتنا ــ انه قلق ذات ليلة قبل آذان الفجر ، ففتح نافذة بيته المطل على حقول قريتنا ــ فرأى ــ فى ضــوء بقايا قمر على وشك الغروب ــ فأرين كل منهما فى حجم قطنا مشمش تسلقا جذع نخلة مقطوع ، حتى وصلا أعلاه ، وهنــاك مضيا يتداعبان ويتلاطفان على نحو ما تفعل الكلاب فى شــوارع قريتنا ، ثم انتصب كل منهمــا على

قائمتيه الخلفيتين وأخذا يتراقصان ـ فى ضوء القمر الشاحب ـ وما لبث ان انضم اليهما فأر ثالث فرابع ، وهى تتقافز وتتصادم وتتفرق فى مرح كأن الدنيا لا تسعها . حتى اذا شقشق الفجر لاذت بالفرار وابتلعتها الأرض .

واستوردت احدى الشركات أجهزة تطلق موجات فوق صوتية تدفع الفئران الى الجنون ، فتترك أماكنها وتهرب الى مناطق اخرى بعيدة ، مما يدفع بفئران المنطقة الأخرى الى مهاجمة الفئران الغريبة الغازية والفتك بها . غير أن الأجهزة ما لبثت ان تعطلت لسوء استخدامها وقلة صيانتها مما جعل تكاليفها باهظة، ومما ترتب عليه توقف الشركة عن استيراد مزيد منها .

ومن قرية دهشور التابعة لمركز البدرشين جنوبى العاصمة اعلن الأهالى فى ركن الشكاوى باحدى الصحف اليومية البلاغ التالى : قامت مئات الآلاف من الفئران الكبيرة بمهاجمة حقولنا ومنازلنا وتصدت لها مقاومة الأهالى ، لكن المقاومة فشلت وتفوقت الفئران وتقدمت واحتلت الآن معظم حقول القرية ومنازلها وما زالت المقاومة مستمرة .

وكان معنى هذا ان العاصمة أصبحت محاصرة بالفئران من شماليها وجنوبيها معا .

وفى العاصمة نفسها اعلنت المصلحة البيطرية بوزارة الزراعة ان مسئولية مكافحة الفئران من اختصاص مديريات الصحة التابعة لوزارة الصحة ، بينما أعلنت مديريات الصحة انه ليس اختصاصها بل اختصاص وزارة الزراعة .

ولقد ضمدت فاطمة جرحها ـ أو على الأصح ضمده لها زوجها ـ وبحثا معا عن الفأر وقد امسك كل منهما بمقشة فى

يده ، بينما اطفالهما ـ الذين كانوا يلعبون خارج الدار وعادوا عندما علموا بما حدث لأمهم ـ مضوا يرقبون ويترقبون نتيجة البحث بقلق ولهفة ؛ لكنهما لم يجدا أثرا فى كل ارجاء البيت . « فص ملح وداب » . حتى ان أبا محمد كاد يشك فى وجود الفأر اصلا لولا ما تركه من أثر واضح على خد زوجته . « الحمد لله انه عض أم محمد ، لو كان عض محمد كان راح فيها » .

* * *

بعد اسبوعين كان سليم السلامونى عائدا من آخر امتحان له بعد ان اجاب على اسئلة اجابة رضى عنها حين تذكر الفأر الذى افزع أمه منذ أيام فابتسم ابتسامة خفيفة . وكان الجرح الذى سببته عضة الفأر على خد فاطمة عبد الغنى قد اندمل لكنه ترك ندبة واضحة عليه ، أما ضابط المباحث المقدم سامى البرامونى فكان يقرأ تحقيقا صحفيا عن التكاثر الفئرانى فى مصر جاء فيه ان الفئران تتجمع فى جحورها السرية الآن فى مطالع الشتاء لتتكاثر فتلد كل أنثى منها ما بين خمسة وستة بطون ، فى كل بطن ما بين ستة وثمانى فئران ، وذلك استعداد لفصل الربيع حين تخرج زاحفة على العاصمة .

ديسمبر ١٩٨٠

الفـــأر

عدت الى مكتبى بعد اجـازتى الصيفية ، لأفاجأ بوجود فأر ــ لابد ــ فى ادراج المكتب . كان قد ترك لى آثاره فضـلات جافة فى حجم الديدان الدقيقة السوداء : لمحتها متجمعة فى غير نظـام فى أحد اركان الأرضية الخشبية لأوســط ادراج مكتبى واكبرهـا .

وترجع خبرتى بهذه الفضـلات الى صباى ، حين كنـا نسكن فى بيت عتيق ، وكانت أمى تضـع خزين البيت ــ الذى ترسله لنا جدتى من الصعيد ــ فى أحدى شرفاته ، فنعثر من حين لآخر على هذه الفضلات .

لم أعر الأمر كبير اهتمام ، فسرعان ما نسيت ذلك الموضوع اذ انشغلت بموضوعات اكثر اهميـة تتعلق بعملى الذى كان قد تراكم . لكن يبدو ان الفأر لم تعجبه منى هـذه اللامبـالاه ، وكأنما اراد أن يؤكد لى وجوده ان كنت فى شك منه . فقد عثرت بعد أيام على علبة سجائر ــ اقدم منهـا لضيوف المكتب فأنـا لا ادخن ــ وقد تآكل نصفها بطريقة غير منظمة ، وخرجت احشاء

السجائر الصفراء الداكنة لتختلط بمزيد من الفضلات الدقيقة السمراء .

عندئذ أدركت ان الفأر يتحدانى وانه على ان أقبل التحدى، بادرت بفتح جميع أدراج المكتب متوقعا أن يقفز الفأر من احدها ، لكنى عبثا عثرت عليه ، وان كنت قد انتهزتها فرصة لجرد أوراقى والقاء الكثير منها فى سلة المهملات . وعندما كنت أعيد ترتيب ما تبقى منها كنت أعجب كيف يمكن أن يتسلل فأر له سمك ولابد من مسافات ضيقة للغاية هى التى تسمح ـ بالكاد ـ للأدراج ان تنزلق عند فتحها وغلقها .

بعدئذ استدعيت الساعى وشرحت له الموضوع ، وأمرته أن يشترى مصيدة يضعها فى الحجرة حالما اغادرها ، فلن أعود للعمل هذا المساء ، وان يضع فيها ما يغرى الفأر بزيارتها : نصف خيارة أو نصف ثمرة طماطم ، واضاف عم فتح الله : بل خبزا مدهونا بالسمن .

وفى الصباح كانت المصيدة مازال فارغة فاغرة فاها كأنها فم الفأر يضحك ساخرا منى ، فقد ترك الطعم الشهى وفضل أن يقرض أطراف الأوراق المصلحية والمستندات التى لايمكن اعادة نسخها ، والتى احتفظت بها داخل أدراج مكتبى لأهميتها . قال لى فتح الله : الفأر حيوان ذكى ليس من السهل خداعه . عندى قطة فى بيتى سأنقلها فى مكتب سيادتك الليلة وأحبسها مع الفأر ونجرب .

فى اليوم التالى لم نعرف ما اذا كانت القطة قد التقت بالفأر والتهمته لحما وعظما ، فلم نجد أية بقايا منه كما لم يبد على القطة انها ازدادت وزنا ، لكن لم نعثر على آثار الفأر التقليدية .

اطمأن قلبى بعض الشيء وان كان الشـك ما يزال يسـاورنى . فطلبت من فتح الله أن يترك القطة ليلة او ليلتين أخريين . اختفت آثار الفأر فاطمأننت الى مفعول القطة : فاما أن تكون قد التهمته وادت بذلك واجبها . واما أن يكون الفأر قد خاف منها فغادر مكتبى الى غير رجعة . وهـكذا أعاد فتح الله القطـة من حيث أتى بهـا .

عندما عدت بعد اجازة نهاية الأسبوع لمحت آثار الفـأر الملعون بجميع انواعها : فضلاته السمراء وبقع صغيرة صفراء على الأوراق لابد انها كانت قد ابتلت ببوله وجفت الآن ، ونشارة ورقية ... الخ . كنت أريد ان أراه مرة واحدة ، ولو المحه يمرق كالبرق أو السهم من ركن الى ركن ، حتى أعرف ان كان فأرا أو اثنين ، صغيرا أو كبيرا ... الخ . لكنه رفض أن يلبى رغبتى ويشبع فضـولى . تنازلت عن رؤيته وتعمدت أكثر من مرة أن أفتح باب مكتبى فى هدوء داخـلا على اطراف أصـابعى علنى اسمع صوت حركته ، خشخشة اوراق ، أرجله الدقيقـة تعبث بها أو أسنانه الحادة المدببة تقرضها . لكنه فضل ان يظل فى الخفاء ، بعيدا عن الأنظار والاسماع .

عندما زارنى احد أصدقائى ورويت حكاية الفأر معى اشار على بسم موصوف مجرب للفئران : مسحوق اسود ترش منه على قطع صغيرة من اطعمة الفأر المفضلة ، وستعثر حتما على جثته الملعونة فى صباح اليوم التالى . جربته فى بيتى بعد أن ضجت زوجتى من الفئران ، فاختفت تماماً بعد أيام . ليس هناك أطفال أو حيوان تعتز به تخشى عليهم ان يقتربوا من الطعـام المسـموم .

وافقت على الفكرة فورا . اشترى فتح الله المسحوق . رش على قطع صغيرة مما يفضل الفار ان ياكل ، ووزعه فى اركان الغرفة وادراج المكتب . فى اليوم التــالى بحثت فى قلق وحب استطلاع مع فتح الله عن جثة الفار ولكن عبثا . انتظرنا يوما آخر فيوما ثالثا فأسبوعا . وفى كل يوم اتوقع من فتح الله ان يفاجئنى بالخبر المنتظر . لم تظهر جثــة الفار ، لكن انقطعت آثاره ايضا . تعمدت ان اترك علبة السجاير فى مكانها بالدرج ــ بعد ان اصبحت آخذها معى يوميا ــ فظلت بلا خدش كما اتركها ، لا فضلات ، لا بقع ، ولا ورق متآكل .

ارتحت من مشاكل الفار ، لكن راحت فرصتى فى ان أراه حيا او ميتا . ومع ذلك فمن يدرى ، فطالمــا لم أر جثته فهناك احتمال دائم : أن تعود آثاره للظهور يوما ، وقد يتاح لى أن ألمحه حينئذ ، فأنجح فيما لم أوفق فيه هذه المرة .

اربع قصص عن الثار

الثـــأر

الخلفيـــة :

قريتى ـ كبقية قرى الصعيد ـ ما تزال مريضة . دخلتها انابيب المياه ومصـــابيح الكهرباء والوحـــدة المجمعة بمستشفاها ومدرستها ومشرفيها الزراعيين والاجتماعيين .. لكنها ما تزال مريضـــة . ولمرضها أعراض كثيرة لعل أهمها الأخذ بالثـــأر . فالاحقاد ـ كالبذور التى يبذرها أهل قريتى ـ لا تدفن الا لكى تعود وتنمو . يصبرون على بذورهم شهورا وعلى احقادهم سنين حتى تنضج الثمار وتفرخ المـــآسى ، ما أن تشـــتد أعواد الذرة أو القصب وتعلو فوق قامة الانســـان حتى يكون كل شىء قد نضج : الثمار والاحقاد ، وأوشك موســـم الحصـــاد . وتسير الحياة والموت جنبا الى جنب ، بل ان احدهما يحتمى فى الآخر ، فيخرج كل من له ثأر او يرى أن الوقت قد حان لغسل عـــاره ويختبىء بين أعواد الذرة الفارعة الخضراء متربصـــا بعدوه .. ومن حين لآخر تسمع صوت طلقات أعيرة نارية تعقبها خشخشة بين العيدان التى تتكسر بعضها تحت هرولة الأقدام المسرعـــة

الهاربة . ثم يسود الصمت لحظات ، حتى يجد المارة طريقهم الى جثة الضحية ومن بعدهم اهله وقد طيرت الانباء اخبار المأساة اليهم : فيحملون جثة قتيلهم لا يبلغون الشرطة ولا يتقبلون عزاء .. فبمصرع قتيلهم ستنمو فى قلوبهم بذرة حقد جديدة سوداء ، تتعهدها الأمهات فى قلوب أطفالهن سنين وسنين حتى يصبحوا شبانا قادرين على تصويب السلاح ، ويتعهدها الأعمام والأخوال والعرف والبيئة .

غير أن هناك أفرادا ـ هم الطلائع والرواد ـ أقدر من غيرهم وأكثر شجاعة على مقاومة هذا التيار الجارف . من هؤلاء عمدتنا ميهوب ، شاب فى الثلاثين ؛ أسرته الميسورة أتاحت له تعليما مبكرا قبل ان ينتشر التعليم ـ الذى ساهم هو فى نشره ـ فى قريتنا . لكن وفاة والده الفجائية وعصبية أسرته منعاه من اتمام تعليمه الجامعى ـ الذى كان قد أوشك على نهايته ـ بكلية الحقوق بالقاهرة . فاستدعته أسرته ليعود مسرعا ليتقلد منصب العمودية حتى لا يفوز به أحد من الأسرة الكبيرة الأخرى التى تنافس أسرته . لكنه عاد وقد تنفس جوا غير جو قريتنا ، جو المدينة الذى لا تنمو فيه أعواد ذرة ولا أعواد قصب ، ويلجأ الناس فيه لفض خلافاتهم الى المحاكم والقضاء بدلا من تنفيذ أحكام الاعدام بأنفسهم فى أنفسهم .

وككل الدعاة والمصلحين لقى ميهوب معارضة شديدة . ابتداء من شباب القرية وشيوخها حتى أقرب الناس اليه : أمه وأخوته واخواته . اتهموه بالجبن وبأن المدينة جعلته أقرب الى النسوان ، وبأنه وقع فى حب بنت مصرية وأصبح عوده ـ مثلها ـ طريا . ومع ذلك فقد استطاع أن يجذب حوله عددا من المؤيدين . غير أن الدعوة الجديدة ما لبثت أن كانت موضع امتحان عسير

حين وقع حادث هز القرية من أولها الى آخرها ، ليس لأن القتيل كان شابا محبوبا مسالما شهما فقط ، بل لانه تبين أن القتلة كانوا من خارج قريتنا .. من قرية طناش الجبل المواجهة لنا .

فقريتنا كانت ــ قبل انشاء السد العالى ــ شبه جزيرة طوال فصول الخريف والشتاء والربيع ، تحيطها مياه النيل من جميع الجهات ما عدا خور ملىء بالرمال الناعمة بيننا وبين طناش الجبل ، طالما لعب فيه أطفال القرية فى الليالى القمرية . يجرون وراء بعضهم البعض يلعبون المساكة والاستغماية ويقعون ويقومون ولا خوف عليهم من الرمال الناعمة . لكن الويل لمن يتخلف منهم عندما يتحرك الركب عائدا الى القرية . فالضباع تتحفز فى أعلى الجبل ، تعوى طوال الليل باحثة عن فريستها ، متربصة بمن تستطيع الانفراد به . هكذا حدث للولد عادل أبو اسكندر ، ولمحمد أبو عوضين عامل التراحيل .. ثم يأتى فيضان النيل كل صيف فيركب البلد ويمتلىء الخور بالماء وينقطع الطريق بين قريتنا ــ التى تصبح الآن جزيرة ــ وقرية طناش ، ويتنفس أهلها الصعداء ، فسيرتاحون شهرين أو ثلاثة أشهر من أسرة الجرابيع التى تسكن طناش ــ ولا عمل لها الا الاغارة على جزيرتنا ــ حتى تعود المياه فتنحسر . ولم تكن هذه هى فقط فائدة مياه الفيضان ، كانت فائدتها الأهم ان أهالى قريتنا لا يتعبون فى رى أراضيهم ولا فى تسميدها ، فقد كانت مياه الفيضان بطميها تتكفل بذلك ، بل ان الحكومة كانت تعتبر أرضهم ارض جزائر ، أى غير صالحة لزراعة القطن فتعفيهم من حصصهم فى زرع هذا المحصول الذى تفرضه على القرى المجاورة ، وبهذا تصبح لهم حرية زراعتها بأنواع الخضار التى

لا يحتاج اليها المركز فقط ؛ بل تسافر على المراكب النيلية حتى تصل الى مصر أم الدنيا . وكان العجور هو زراعتهم المفضلة ، عرفوا كيف يبذلون الجهد فى العناية به ، فهو يحتاج الى وقاية خاصة من برد الشتاء ؛ وتلك مهارة لا يبرع فيها الا الجزايرة . وفى أوائل الصيف ـ وقبل ان يفيض النيل ـ يتم تحميل عشرات المراكب فى طريقها الى القاهرة لتعود بالأوراق الخضراء التى تستحيل الى بيوت مبنية بالحجارة ـ وليس بالطوب النىء كبيوت القرى الأخرى ـ والى افراح وجلاليب جديدة وقفاطين وخير كثير يخزنونه لتموين العام من سمن وجبن وفريك وكشك حتى الملوخية الجافة والبامية الجافة .

وكانت قرية طناش الجبل لا تخلو كذلك من نعمة من نعم الله . فقد كانت ترقد فى حضن الجبل . وكان الجبل هو المكان المفضل لدى اجدادنا الفراعنة ـ ولايزال حتى الآن لدينا نحن احفادهم ـ لدفن موتاهم . لكنهم لم يكونوا يدفنون موتاهم كما ندفنهم نحن اليوم بلا زينة ولا توابيت حجرية من داخلها توابيت خشبية محفور عليهـا جميعا كتابات مصورة ملونة وفوقها اقنعة مرسوم عليها وجوههم بكل وجه عينان من الحجر الكريم جعلا سعداوى حين رآهما يصرخ حاسـبا انهما لعفريت من الجن ، ثم تماثيل صغيرة وأوانى ذهبية وضعوها خصيصا ليأتى اليوم أهالى طنـاش الجوعانين فيضربون بفؤوسهم مرة بعد مرة حتى تصطدم الفأس بحجر ، وتكون لصـدمة الفأس رنة كأنها ملايين الزغاريد فى ملايين الأفراح . بدأ الأمر صدفه فى بيت سعداوى ، وقد ظل يبيع مما أعطاه الله ، وفى حذر ، لتاجر الآثار اليونانى بالمركز الخواجة بنايوتى حتى وقعت عركه بينه وبين ابن عمه فوشى به للحكومة . وأسرعت الحكومة لتجد انه احرق التوابيت

الخشبيـة واخفى كل ما يمـكن حمـله من آثـار ، ولم تتبق الا التوابيت الحجرية الضخمة . وحكم عليه بالسجن سنتين عاش فيهما كملك . من يومها بدأت الفئوس تنبش فى الأرض أملا فى سماع تلك الرنة . غير أن هـذه كانت حالات فردية ، أما معظم اهل طناش فكانوا فقراء يعيشون على ما يقتطعونه من ملح من الجبـل يبيعونه لبقـالى القرى المجـاورة ومنهـا جزيرتنـا . او ما يتصدق عليهم به اهالى الموتى الذين يفدون ـ كأجدادهم الفراعنـة ـ فى قوارب من الشاطىء الآخر يحملون موتاهم عبر النيل ليدفنوهم فى حضن الجبل . ثم يقبلون كل عيد ليقضوا بعضه معهم فيؤنسون بذلك وحشتهم ويطمئنون انفسهم الى انهم سيجدون بدورهم من يؤنسهم يوما ما . غير أن قلة معظمهـا من أسرة الجرابيع لم تشأ ان تنتظر الحظ ولا ان تعيش على الكفاف والفت عصابات السطو ليلا ـ وأحيانا نهارا ـ على جزيرتنـا التى اثقلتها خصوبة ارضها وذكاء أهلها ونشاطهم حتى ترهلوا . كما كان يستأجرهم بعض اثريائنا للقتل اخذا بالثأر ، وكانوا عندئذ يخرجون وقد تجردوا من ثيابهم تماما ، ارهابا لاعدائهم واعلانا عن عزمهم على القتال . وكانوا احيانا ما يقتلون ضحيتهم فى وضح النهار ، مضاعفـة فى اذلال أسرته ، وهم مطمئنون تماما الى ان احدا لن يجرؤ على أن يشى بهم ، ولم يكن أهل قريتنـا جبناء ، غير ان المـال علمهم أن يكونوا أكثر حرصـا على حياتهم وحياة ابنائهم ، بينمـا أسرة الجرابيع لم يكن لدى أفرادهـا ما يحرصون عليه ولا حتى على أرواحهم .

الحـادث :

خشخشة مريبة ، تنبه ، أرهف أذنيه ، ليست حفيف الريح التى تذرو بقايا التبن . قدماه العاريتان تلمسان بقايا التبن التى

تغطى ما حول الجرن وتمتد الى مساحات تذوب حدودها فى حلكة الليل . ايقظ اخاه الأصغر فى صوت مسموع كأنه بصيص نور يشرخ شحوب الليل :

ـ مهران ، مهران .

انتفض مهران واقفا مستفسرا :

ـ هل حان موعد نوبتى ؟

ـ لا انت بالكاد نمت .. لعله حيوان مفترس ، ولعله آدمى مفترس .

انقطعت الخشخشة الآن ، نباح كلاب يصل خافتا متقطعا حيث تربض القرية وقد أطفأت انوارها . السماء صافية ، والريح نسيم متهافت . الخشخشة ذابت ، ابتلعها شحوب الليل. لا قمر ولا هلال ولا محاق ، لكن ثمة نجوم ، عشرات النجوم ، مئات النجوم ، آلاف النجوم تتزاحم .. تتناثر خافتة متلألئة ، تسكب أشعتها الضنينة ، فتبدو ـ ولا تبدو ـ كومة القمح وأخشاب النورج وأحطاب الخص . هذا حصاد شهور ، عرقه وعرق اخيه وابيه وامه .. ينتظران عودتهما فى الصباح وقد اديا واجبهما كما يؤديانه كل ليلة .

الخشخشة عادت ، ليست وهما اذن ، سمعها مهران كما سمعها هو أول مرة وثانى مرة . ومن بعيد بدت كتلة من الأشباح المتحركة المتقدمة . اذن فهم ليسوا واحدا ، واذن فهم آدميون مفترسون . وكان محمود قد سحب بندقيته الميزر وعبأها ثم صاح فى صوت اختلط فيه التوجس بالشجاعة :

ـ من هناك ؟

لم يرد عليه سوى حفيف الريح . وكان هو واخوه قد اتخذا من اخشاب النورج ساترا يحميهما من اى غدر متوقع . وظلت الكتلة المتحركة تتقدم فى سواد الليل الباهت . اذن فقد وضحت نياتهم : فصاح للمرة الأخيرة :

ـ من هنـاك ؟

ثم غير مكانه بسرعة حيث انبطح خلف الجرن : واطل برأسه مع بندقيته . ثم صـوب وشد الزناد .

لم يكن ثمة مفر مما وقع . انبعث مع الرصاصة صفير حاد مقتضب وهى تشق الصمت المعتم . وقد نفذت الى انفه رائحة البارود . لعلهم فى القرية قد سمعوها . الخفراء يجوبون شوارعها الآن لكنهم لا يجرؤون على الخروج الى العراء . لم تكن الطلقـة محددة الهدف ؛ لم يكن يقصـد الا الاعلان الواضح عن نيته فى الدفاع حتى الموت عن جرنه وانه موجود ومستيقظ ومتنبه . كيف يسرقون جرنه وهو حى ، ماذا عساه يقول لوالديه ؟ كيف يواجه فاطمة التى تعتبره رجلا من ظهر رجل . قالت له مرة : أحب رائحة عرقك . وقد شم الآن رائحة عرقه وهو يسيل من تحت ابطيه متلكئا فى خط متعرج ، يلفحـه الهواء تحت جلبابه الواسع الفضفاض فيحس لسعة برد خفيفة تجتاح جسده .. قشعريرة لا يدرى ان كانت بردا أم انفعالا . كان يتمنى أن يعرفوا عبث محاولتهم فيعودون من حيث أتوا أو يبحثون عن جرن آخر بلا حارس . لكنهم اسـتمروا فى تقدمهم الحـذر البطىء . اذن فهم يعرفون انه هناك ، وقد بيتوا النية على اغتصـاب جرنه . هل تراه ابو العينين الجربوعى وعصابته من قرية طناش الجبل التى ترقد فى حضن الجبل تحسد قريته على زمامها الخصب ؟ أم تراهم من البدو الذين يسكنون الجبل ، لا يعرف أحد مكان

سكناهم على وجه التحديد ، لكنهم يشاهدون وهم يتدحرجون هابطين الجبل نهارا يحملون أكياس ملح اقتطعوه من براثن الكتل الصخرية (ذكر له مدرس العلوم بالمدرسة الابتدائية ان البحر المالح كان يغطى هذه المنطقة فى غابر الأيام ، وبرهن على قوله بهذا الملح الجبلى ، وبالأصداف البديعة التكوين المتباينة الأشكال والتى تتناثر على التلال الرملية المطلة على قرية طنـاش الجبلية المجاورة) ، كانوا يبادلونه من بقالنا الشيخ عوضين بالشاى والسكر والمغسل والدخان .

ازدادت أشباحهم قربا ، لعلهم ثلاثة ، بل اثنان ، لا بل ثلاثة ، ينفصلون ويتصلون وينفصلون . وأطلق رصاصته الثانية ، وكانت فى المليان هذه المرة . واعقب صفيرها الحاد صرخة خاطفة اشد حدة . وتاهب محمود ومهران لأى شىء وكل شىء حتى الموت ، ودع محمود فاطمة ووالديه ونطق بالشهادتين . فلما لم يتلق رد فعل سريع قرأ الفاتحة وتأهب لاستقبالهم . فلابد أن يأخذ بثاره ميتا قبل ان يأخذوا بثأرهم . وصوب بندقيته سريعا نحوهم ، لكنه رآهم يحملون جريحهم ـ فيما يرجح ـ ويهرولون به مبتعدين . اذن فلم يقتل مصابهم والا لجن جنونهم وما انشغلوا فى محاولة انقاذه . وأحس براحة تجتاحه ، سيخفف هذا من نتائج فعلته ، فلو أن المصاب مات لما انتهت المسالة عند هذا الحد ، سيتربصون به حتى يأخذوا بثأرهم . سيكون اعجاب والديه بشجاعته مقرونا بلوم أو تأنيب . لماذا لم يعالج الأمور بطريقة اكثر حذرا ؟ ماذا يمكن أن يتصرف أى شخص آخر فى مكانه ؟ لم يكن أمامه الا احد أمرين : ان يفعل ما فعل وهو الذى نبههم الى وجوده ، والى انه متنبه مستعد لملاقاتهم ، لكنهم ـ فيما يبدو ـ استصغروا شأنه وشأن أخيه

واستغلوا عزلتهما ، فأثبت لهم العكس . أما التصرف الآخر فهو ان يترك لهم الجرن يسرقونه (كاد يقول أن يترك لهم الجرن كالمراة لولا انه تذكر قصة سمعها عن جدته مصطفية حين كانت تبيت وحدها ذات ليلة سافر فيها جده بعيدا عن القرية لقضاء بعض مصالحه : فظنها احد اللصوص فرصة لسرقتها ، لكنها ما ان أحست بحركته حتى هجمت عليه وقبضت على خصيتيه وهى تصرخ مستنجدة بالجيران حتى هرعوا اليها ليجدوه ملقى تحت قدميها بين الحياة والموت) .

ما بعد الحادث :

فى الصباح ـ بعد يومين ـ دق باب الحاج مكاوى ثلاثة غرباء رفضوا التحية والسلام ، أو الافصاح عن شخصياتهم .

ـ ابنكم محمود قتل ابننا حمدان والقاتل يقتل .

ـ متى كان ذلك ؟

ـ لا داعى للانكار .

ـ من قال لكم ذلك ؟

ـ الخبر شائع على كل لسان .

ـ محمود كان يسقى البهائم فى الحوض القبلى وعاد بهما فى الليلة التى تتحدثون عنها .

ـ بل كان فى الجرن ليلتها .

ـ بل لم يكن .

ـ اذن بيننا وبينكم البشعة .

ـ الولد صغير ولا ...

ـ لكنه ليس صغيرا ان يقتل ...

ـ لم يقتل ...

ـ لا فائدة من الكلام ؛ قلنا البشعة بيننا وبينكم .

وهكذا اجبر الحاج مكاوى على الرضوخ .

بعد ثلاثة أيام شدوا رحالهم الى عرب الزاوية فى الطريق ما بين قريتنا وساحل البحر الأحمر . محمود ووالده واثنان من اعمامه وخاله الوحيد ؛ وثلاثة من الجرابيع حسبهم محمود من أقرباء القتيل حمدان ؛ غير انه تبين له فيما بعد انهم من أفراد عصابته . كلهم مثله فى سن الشباب ؛ ربما لم يبلغ أصغرهم العشرين ولم يتجاوز اكبرهم الثلاثين . وجوههم لا تعبر عن شىء . الحاج مكاوى يتساءل فى حيرة عن مدى بجاحة هؤلاء المجرمين : يريدون ان يسلبوا الناس اموالهم ولا يعجبهم ان يدافع الخلق عن انفسهم .. قرص الشمس يقترب من الأفق الغربى ، فاستطالت ظلال القافلة باهتة على رمال الصحراء . كانت تتكون من خمسة جمال : ثلاثة عليها محمود وأقرباؤه ، استعاروها من جيرانهم ؛ والجملان الآخران يحملان أفراد العصابة . وحين أصبحت الشمس أكثر انخفاضا واشد احمرارا، والظلال اكثر استطالة وأقل قتامة ، كانوا قد وصلوا الى نزلة الزاوية ، فأناخوا جمالهم فى باحة تناثرت حولها بضع خيام واكواخ من خليط من القش والصفائح ، وخرج لاستقبالهم شيخ القبيلة من خيمة لا تتميز عن بقية الخيام المضروبة حولها الا بامتداد سقيفة من القماش أمامها مقامة على اربعة أعمدة خشبية . وبقدر الترحاب الذى قوبل به أفراد العصابة حتى

لكانهم بين اهليهم ؛ بقدر ما احس محمود واقرباؤه انهم فى مكان غريب معاد ومزدحم بالمفاجآت . ثم تولى أحد البدو نزع سلاح الفريقين ليضعه فى خيمة قريبة . جثا الجميع فى شبه حلقة متسعة على رمال صحراء ذات ليل خريفى ، محمود واقرباؤه فى جانب وافراد العصابة فى الجانب المواجه ، وقد انضم الى الحلقة رجال القبيلة الصغيرة . وكانت تتوسط الحلقة حفرة صغيرة ضحلة بها آثار وقود محترق دلالة على سبق استخدامها فى مناسبات مماثلة . وقد تقدم الآن من احضر وقودا وضع بعضه فيها واحتفظ بباقيه ـ كاحتياطى ـ على جانب منه . ثم وضع قالبين من طوب على جانبين متقابلين من الحفرة بحيث يسمح للريح ان تغذى النيران ولا تعاكسها ثم أحضر طاسة حديدية مستديرة قطرها فى حدود الشبر ذات يد واحدة خشبية تشققت بفعل الحرارة المتكررة وحال لونها ـ شأنها شأن الطاسة ـ الى لون كاب .

اشعل البدوى الوقود وما لبثت السنة اللهب ان ارتفعت بفعل ريح هينة ، ثم وضع الطاسة فوق اللهب بحيث تكاد السنته الزرقاء تمسها ولا تمسها ، وهو ممسك بمقبضها الخشبى ، يقلبها حتى يعرضها للهب من جانبيها . وما لبث وهجها ان شع شيئا فشيئا فى غيشة المساء حتى أصبح احمر قاتما كالجمرة المتقدة . وبالرغم من ذلك ؛ وكأنما لكى يثبت انه لم يغش طرفا على حساب طرف آخر ، فانه صوب الى الطاسة بصقة تبخر رذاذها ربما قبل أن يمس الطاسة . واستدعى محمود أمام النار فتراقص لهبها على وجه بدا ثابتا شجاعا . وسأله شيخ القبيلة بصوت مرتفع :

ـ جتلت حمدان الجربوعى ؟

فاجاب فى اقتضاب ولكن بصوت واضح :

ـ مجتلتـوش .

عندئذ جثا البدوى وقد نصب جذعه فاصبح فى مستوى محمود الذى كان جاثيا منتصب الجذع بدوره ، وقرب الطاسة المتوهجة من وجهه ـ وقد أدار مقبضها الخشبى الى أسفل ـ كما تقرب الحسناء مرآتها من وجهها . كان الصمت يجثم الآن ثقيلا كثيفا كأن الجمع المتحلق يمارس طقسا وثنيا مقدسا ، لا يجرحه من حين لآخر الا هفيف ريح هينة تربت على السنة اللهب لتشرئب متوهجة لحظة أو بعض لحظة . وفجأة صاح شيخ القبيلة آمرا محمود ان يخرج لسانه ، وفى هدوء اخرج محمود لسانه ليمرره من أسفل الى أعلى على سطح الطاسة على مرأى من المشاهدين ، ولابد ان الوهج كان كافيا وحده لاغراق وجه الشاب فى صهد يشبه الحريق . ومع ذلك فحين طلب منه ان يخرج لسانه مرة اخرى لم تظهر عليه أية آثار ، وقد تولى عملية الفحص أولا شيخ القبيلة ثم زحف محمود على الرمال على ركبتيه متجها نحو أفراد العصابة ليستوثقوا بأنفسهم مما تحقق منه شيخ القبيلة . وحين عاد الى مكانه بجوار النار أعلن الشيخ حكمه : اشهد الله ان محمود أبو مكاوى برىء . فظهر الوجوم والامتعاض على فريق العصابة ، بينما سرت همهمة ارتياح بين أقرباء محمود ، والحاج مكاوى يردد فى شبه عصبية : ظهر الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا . ظهر الحق وزهق الباطل .. وطلب محمود كوب ماء ليبلل به طرف لسانه ، ثم ما لبث ان احتساه على مهل وهو يرشفه رشفا . (يحاول مثقفونا أن يحللوا ظاهرة البشعة بأن من اقترف ذنبا يكون من الفزع بحيث ان لعابه يجف ، فاذا قرب لسانه من هذا الجسم

المعدنى المتوهج فسرعان ما يحترق ، أما البرىء فان لعابه كفيلٌ باضعاف اثر الحرارة على لسانه . وفى حالة محمود الشاذة يبدو ان ايمانه بأن تصرفه كان عين الصـــواب هو الذى انقذه من ان تدينه البشعة . والله أعلم) .

وقد دعا شيخ القبيلة الفريقين الى العشاء ، غير أن الحاج مكاوى اعتذر بلطف لأن مشوارهم طويل والوقت قد تأخر . كان يريد فى الواقع ان يسرع بابلاغ النبأ السار الى أم محمود ، وان كان ما يزال يتوجس فى مدى تمسك تلك العصابة بما اعلنتــه البشعة الليلة .

الجريمة والرد على الجريمة :

فى الظهيرة ، بعد أسبوع ، كان محمود وابوه فى الحقل ، نفس المكان الذى كان فيه محمود ليلا منذ أيام ، ولم يتبق من الجرن الآن الا بقايا قشـــور الحب من آثار التذرية .. حين سمع دوى طلقة اعقبتها صرخة من محمود كلها لوعة وهو يحتضن أباه صارخا : جتلونى يا بوى ، جتلونى يا بوى ، وهو يرفرف رفرفة الدجاجة الذبيحة وابوه يحتضنه وهو ينظر الى الأفق البعيد حيث لمح الجناة ينسحبون مهرولين . اذن لم يكن غرضهم من البشعة ان يقبلوا تحكيمها بل ان يتعرفوا على وجه محمود ، وان يتعقبوه ، وان يفجاوه ـ هؤلاء الجبناء ـ من الظهر ، فلم يجرؤوا أن يواجهوه . وما لبث ان خارت قوى الشاب حتى ثقل جسده الدافىء وهو ما يزال فى حضن أبيه وبين ساعديه ، كمــا خارت قوى ابيه فلم تقو ساقاه على حمله كما لم تقو ذراعاه على حمل ابنه وهو يدرك شيئا فشيئا هول ما حل به ، بينما نزيف الدم كان قـــد تفجر من ظهر محمــود ولطخ ثيــاب أبيـــه ثم

أخذ يتلكأ ويتخثر حتى انقطع وهمد الجسد . وكان الجيران قد تجمعوا من الحقول المجاورة على اثر سماعهم طلقات النار ، ومشاهدتهم محمود وهو يصارع الموت . بينما حاول فريق اللحاق بالقتلة ، غير انهم اطلقوا النار وهم يفرون هاربين حتى اختفوا عن الأنظار .

وفى العصر كانوا قد واروا جسد محمود . عبرنا الخور الذى طالما لعب فيه محمود فى طفولته مع اصدقائه ، ثم واريناه التراب فى القرافة الخاصة بنا نحن الجزايرة ، والتى تقع فى سفح الجبل المطل على قرية طناش . حيث تسكن أسرة الجرابيع التى لا يأتينا منها الا الشر كل الشر . عند عودتنا حرصت أن اكون برفقة مهران مواسيا . لم يذرف دمعة واحدة على أخيه منذ سمع النبأ الفاجع حتى فارقناه فى منتصف الليل .

فى المساء ، لم يكن هناك سرادق ولا تقبل عزاء فى بيت الحاج مكاوى ، بل تجمع كثير من شباب جزيرتنا ــ بعضهم أقرباء محمود وبعضهم اصدقاؤه ــ ليقرروا الأخذ بثأر جزيرتنا . وحضر عمدتنا الشاب . لم يناقشهم ليلتها لانه كان يعلم مدى الثورة التى تجتاحهم وقد وقع الحادث ظهر اليوم ودفنت ضحيته عصرا . لكنه ــ حضر ولابد ــ بحكم مركزه ومشاركة منه لمشاعر اسرة محمود ومشاعر اصدقائه الملتهبة ، وربما حتى تكون هناك ارضية مشتركة حين يدور حوار بينهم وبينه فى يوم من الأيام .

وقد دار ذلك الحوار بأكثر من طريقة وفى أكثر من مكان . كان عمدتنا ينصح جدعان قريتنا بعدم الاندفاع والتهور وعليهم ان يسألوا انفسهم أولا وقبل ان يقدموا على أى تصرف ، هل

سيؤدى هـذا التصرف الى اسكات الآخرين ؛ أم سيكون حلقة اخرى فى سلسلة لا تنتهى ؟ فتتزاحم عليه الاجابات المحتجة .

ــ وهـل سـكوتنا سـيؤدى الى كسـوفهم أم يضـاعف شهيتهم ؟

ــ بل سيتهموننا بالجبن والضعف .

ــ ستمضى اذن جريمتهم بلا عقاب .

ــ لن نعرف كيف نحمى نساءنا واطفالنا بل وكبارنا .

ــ لن نستطيع ان ترفع رؤوسنا بعد اليوم ؛ سيطمع فينا الصغير قبل الكبير .

بل يجرؤ صوت أن يرتفع ساخرا :

ــ يبدو ان عمدتنا يريد ان يذهب الى أسرة الجرابيع حاملا لهم كفنه مسـلما نفسه الى كرمهم مع أن القتيل قتيلنا .

بل صاح آخر ذات مرة بكلمات لا يخفى ما بها من تهديد :

ــ حتى لو كان القتيل قتيلهم ؛ فسنقتل من يفعل ذلك منا.

ومع ذلك فان عمدتنا لم ييأس . كان يشعر ان له رسـالة فى هـذه البقعة الصغيرة من الأرض ؛ وان الطريق أمامه ليس سهلا ؛ وان رياح التغيير لا تتم من خلال حوار . هو نفسه ــ قبل أن يغادر قريته ــ كان يؤمن بما يؤمنون ؛ بل هو نفسـه عندما عاد بعد غربته واستنشق رائحة التراب المختلط بروث البهائم كما يستنشقون ؛ وأكل البتاو الذى يأكلون ؛ ولبس الجلباب كما يلبسون ؛ أحس انه يلبس أيضـا تفكيرهم ؛ تفكيرا ليس غريبا عنه ؛ فقط غاب عنه فترة كما غاب عن جلبابه ثم عاد اليه.

هنا أدرك لماذا اختلف عنهم ولماذا يحس بغربته فى قريته وسط أهله ، وكيف يمحو هذه الغربة . اما أن يكون مثلهم واما أن يكونون مثله ، وبغير ذلك ستظل نفسه منقسمة علىنفسها، قدماه مغروستان فى تراب قريته وروث بهائمها ، وعقله وفكره مشرئب نحو سماء العاصمة ، يستنشق دخان مصانعها وعادم سياراتها وجلسات أصدقائه الطلبة ومناقشاتهم حول الممكن والمستحيل .

قصد أولا خطيب الجامع ، رجلا لم يجاوز الأربعين ، من أصل غريب عن القرية وان كان قد استوطنها . عندما طلب منه معاونته فى مكافحة عادة الأخذ بالثأر سرعان ما وجد تجاوبا منه ، معلنا ان الاسلام يدع القصاص لولى الأمر ؛ ووعده الا يدع فرصة سواء فى خطبة بالجامع او فى حديثه بين الناس الا واوضح موقف الدين من هذه العادة الجاهلية .

وفى الوقت نفسه اتصل ميهوب بالسلطات على مستوى المركز والمحافظة لاقناعهم بافتتاح مدرسة اعدادية فى قريتنا ـ فقد كانت هناك مدرسة ابتدائية ـ وانشاء مدرسة ابتدائية فى قرية طناش الجبل . فلم تكن بها أية مدارس ، وكان على الأسر الحريصة على تعليم ابنائها هناك ـ وما أقلها ـ أن ترسل أطفالها الى جزيرتنا ، يذهبون ويعودون على ظهور الحمير ، وكانت مخاوف الطريق كثيرة من بينها ـ ان لم يكن أهمها ـ ما بين الأسر من ثأر يغرى بخطف الأطفال أو حتى قتلهم كما حدث ذات مرة . وبقدر ما لقى اقتراحه بافتتاح مدرسة اعدادية فى قريتنا قبولا وارتياحا بل تحمسا ممن كانوا يرسلون أبناءهم الى مدارس المركز ليواصلوا تعليمهم ، بقدر ما لقى اقتراحه بافتتاح مدرسة ابتدائية فى قرية طناش الجبل معارضة شديدة .

فكيف يخدم قرية العصابات والقتلة ؟ وهل بهذا يأخذ ثأرا لنا لم تجف دماؤه بعد ؟ لكن الرجل مضى فى مشروعه لا يأبه للمعارضة التى بلغت حد التهديد أحيانا . فما بدأ العام الدراسي حتى كان هناك فصل للأولى الاعدادية قد ألحق بالمدرسة الابتدائية فى قريتنا ؛ ومدرسة ابتدائية كاملة قد انشئت فى قرية طناش الجبل .

وكان عمدتنا يعلم أن وجود مدرسة ليس سببا كافيا لتدفق الأطفال عليها ؛ ففى جزيرتنا مدرسة ابتدائية منذ عشرة اعوام ، ومع ذلك فلا ينتظم فيها الا عدد قليل بالنسبة لمجموع أطفال الجزيرة لأن اهلهم يحتاجون اليهم فى كل موسم من مواسم زراعاتهم . لهذا كان لابد من محاولة رفع مستوى معيشتهم — كما هو الشأن فى المدينة — حتى يمكن الاستغناء عن الأطفال فى مرحلتى الدراسة الابتدائية والاعدادية على الأقل . فدعا كلا القريتين الى اقتناء مناحل لتربية النحل واستخلاص عسله . وتعهد لكل من يشترى صندوقا للخلايا ان يمده بملكات النحل بعد أن يرسل فى شرائه من العاصمة . وسرعان ما تعلم فلاحونا هذه الصناعة الجديدة ، وأصبحت كالعدوى يقلد فيها كل جار جاره لما تدره من دخل اضافى ، تعلموا كيف يزودون الخلايا بالاطارات الخشبية حتى يتيحوا للنحل أن يبنى أقراصه فيها . ثم أعلن عن مشروع للانوال اليدوية لنسج أقمشة وسجاجيد حائط . وظهرت مواهب ابدعت فى الرسم والعمل بعد أن استجلب عمدتنا مدربين لهم من اخميم باقصى الصعيد ، وكان يقرض كل من لا يملك ثمن النول على أن يسدده من انتاجه ليصبح فى النهاية ملكا لمن يعمل عليه . وسمعنا ان العدوى انتقلت الى بعض أسر قرية طناش الجبل وان كان على نطاق ضيق .

واستطاع الشيخ زهران ابن عم العمدة اقناع المسئولين عن الوحدة المجمعة بتحويل قاعة الوحدة مساء الى قاعة للسينما ، ويكون هو مسئولا عن تدبير مقاعدها . وقد تبرع هو والعمدة بحوالى نصف ثمنها والقادرون بالقرية بالنصف الآخر . وكان يوم الافتتاح يوما مشهودا لا ينسى فى تاريخ قريتنا . فقد ازدحمت عن آخرها بالرجال والأطفال والنساء اللاتى خصص لهن مع أطفالهن نصف الجانب الأيمن الأمامى . وحدثت أكثر من معركة صغيرة للتسابق على الدخول ؛ وسمح يومها للكثيرين بالوقوف فى الممرات الجانبية للقاعة ؛ فقد بيعت تذاكر أكثر من عدد المقاعد . وحضر هذا العرض الأول عمدتنا بصحبة ابن عمه . وشوهد فى القاعة بعض أبناء قرية طناش الجبل .

بعدها بشهرين اشترى عبد الرازق ابو عوف صاحب المقهى الوحيد ــ وقتئذ ــ فى القرية أول جهاز للتليفزيون . اشتراه من محلات الاخلاص أكبر المحلات التجارية بالمركز . فتزاحم جمهور كبير للفرجة على هذا الجهاز العجيب الذى سمعوا عنه أخيرا وربما رآه البعض فى المركز فى مقهى مماثل أو عند قريب له . ثم أخذ ينتشر فى منازل القادرين شيئا فشيئا ، القادرين القدامى من أصحاب الأرض والقادرين المحدثين من أصحاب المناحل والانوال .

وفى الصيف حول الطلبة مدرستهم الابتدائية الاعدادية الى ناد لهم ، كل من يفرغ منهم ــ وبعضهم يزوغ ــ من عمله مع اهله فى الغيط أو المنحل أو النول يسرع الى النادى الذى زودوه بألعاب البنج بنج والطاولة والكوتشينة ... الخ .

وتحمس الطبيب البيطرى بالوحدة لمشروع تربية ابقار الفريزيان بالقرية . وبينما كان يعرض اقتراحه ــ لـ « مضاعفة الثروة الحيوانية » على حد تعبيره ــ على عمدتنا واعيان القرية ؛ سرت اشاعة فى جزيرتنا ذات يوم ان ابو العينين الجربوعى قتل فى عز الظهر على الطريق الزراعى المفضى الى الخور شرقى البلدة . وخرجت القرية كلها نحو مكان الحادث ليروا مهران ابو مكاوى يرقص بعصاه مغنيا فى فرح شبه جنونى :

نصفنى زمانى وخذت تارى
غسلت عارى بردت نارى

والى جواره ابو العينين الجربوعى ملقى على الارض ممددا على ظهره وراسه تشخب دما . وعندما تأملوه وجدوا ان الحياة ما تزال تدب فيه وان كانت عيناه شبه مطفاتين . ورأوه يمد يده فى جيب جلبابه فتوجسوا خيفة ، لكنه بدلا من ان يخرج مسدسا ، اخرج لدهشتهم علبة دخانه التى تحوى تبغه وورق البفره ويلف سيجارة ثم الصق الورق الشفاف الرقيق بلعابه ؛ ثم اخرج علبة كبريت وشط عودا اشعل به سيجارته ثم مضى يدخن بشراهة ملحوظة كأنما لم يدخن منذ شهور ، وينفث دخان السيجارة بكثافة من فمه وانفه ليتصاعد فوق وجهه المتقلص فى صمت . وقد ظلت الروح تدب فيه وقتا أتاح لنسائنا العاقرات ان يخطين فوق جثمانه نصف الحى نصف الميت ، معتقدات ان ذلك من شأنه أن يفتح ارحامهن المغلقة . وكان عمدتنا قد استدعى الشرطة ثم النيابة غير انهم ما ان وصلوا حتى كان الشقى قد أسلم الروح.

قبضوا على مهران أبو مكاوى الذى اعترف بما ارتكب ؛ وان علمنا فيما بعد ان جدعان قريتنا كانوا يتربصون معه

بنبابيتهم وغصيهم ، فبين أبو العنين وكثير منهم ثار ، وقد كاد يفلت منهم لولا ان خوفهم من بطشـه منحهم مزيدا من القوة والتصميم ؛ فواصلوا ضربه بالعصى والنبابيت على رأسه ـ تماما كما تضرب الحية ـ حتى ترنح وسقط على الارض . وقد رجا مهران شركاءه أن يتركوه يتحمل وحده المسئولية ، فقبض عليه واقتيد مكبلا الى سجن المركز ؛ مشيعا بزغاريد أمه .

وفى المساء اقيم سرادق صغير امام بيت الحاج مكاوى تتقبل فيه الأسرة العـزاء فى محمـود ؛ لكنهم كانوا يوزعون الشربات بدلا من القهوة .

شخص واحد فى قريتنا تردد فى الذهاب الى الحاج مكاوى معزيا أو مهنئا . كان يدرك ان هذه العصى والنبابيت موجهـة الى محاولاته ومحـاولات مؤيديه . كان يحس ليلتها بالوحـدة والغربة وانه فى محنة عليه ان يتجاوزها والا يدع للاحباط سبيلا وان يتماسك ليواصل ما بدا . فهو مشوار طويل لم يكد يخطو فيه أولى الخطوات . ونظر حوله فرأى انه حتى امه واخته وزوج اخته كانما قد ارتفعت روحهم المعنوية وعـادت الثقة الى نفوسهم بعد ان كانت رؤوسهم منكسة منذ مصرع محمود . اذن فقد خذله الجميع . شخص واحد وقف الى جواره يشجعه وان كان خائفا عليه : هو زوجته . كانت تحثـه على أن يبقى هنا ويواصـل رسالتـه ، وفى دخيلتهـا كانت تريد ان يفر لينجو من هـؤلاء المتوحشين المتعطشين لسفك الدماء . واخيرا قر قراره أن يذهب الى الحاج مكاوى برفقة شابين ما يزالان طالبين بالجامعة أحدهما فى كلية الهندسة والآخر فى كلية الآداب هما رسولاه فى اجـازة الصيف لتسويق منتجات القرية لدى تجـار الجملة فى المركز والمحافظة والعاصمة أحيانا .

هل تسرع عمدتنا وحاول أن يسبق الزمن حين أعلن لجمهور المعزين المهنئين انه سيقصد خلال ايام اسرة الجرابيع حاملا معه كفنه ليضع حدا لهذه السلسلة المتصلة من الانتقام . فوجم الرجال . واثناء عودته حاول رفيقاه ان يقنعاه - بمنطقه هو - بالعدول عن تنفيذ ما اعلنه ، فأمثال هذه المحاولات مجرد اندفاعات عاطفية تتم تحت تأثير احداث مؤقتة ؛ والحل الوحيد هو ان تقترب القرية من المدينة . فيلجأ الناس الى المحاكم فى فض منازعاتهم ويعترفون بالحكومة قاضيا بينهم بدل ان يجعلوا انفسهم قضاة انفسهم .

النهايـــة :

لا يعرف احد من قتل عمدتنا . هل هم عصابة الجرابيع انتقاما لمصرع زعيمهم ، فصمموا على ان يأخذوا بثأره من أكبر راس وارجح عقل بقريتنا ؛ فراح ضحية مبدأ كان هو أول الواقفين ضده .

أم ان قتلته من جزيرتنا ممن يقفون ضد كل ما هو جديد ومفيد ، يخشون ان يصبروا لئلا تثبت الأيام لهم خطأ تفكيرهم ، فقضوا عليه قبل أن يقضى على فكرهم .

كان خارجا من بيته فى طريقه لصلاة الفجر بالجامع القريب من بيته ، حين اطلق عليه مجهول طلقة رصاص واحدة من مسدس كاتم للصوت فى طريق لا تدب فيه قدم فى مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ، فلم يكتشف الحادث الا بعد فرار الجانى أو الجناة . وقد بكته القرية كلها ، احباؤه واعداؤه على حد

سواء . وكانت جنازته مشهدا رهيبا قل ان يتكرر فى قريتنا ، شارك فيها مشيعون من جميع القرى المجاورة .

لقد ظن البعض ان كل شىء سيتوقف بعد مصرع عمدتنا ، لكن الطلبة ظلوا يذهبون الى مدارسهم ، وواصل النحالون رفع الأقراص الممتلئة بالعسل ووضع اخرى فارغة مكانها ، بينما استمرت الأنوال تنسج اقمشتها وسجاجيدها ، وانجبت ابقار الفريزيان جيلا ثانيا وثالثا . وهكذا بدا أن البذرة التى زرعها ميهوب فى قريتنا قد اخضوضرت بل اثمرت .

أما الحكومة فقد الغت بعد هذه الأحداث المؤسفة نظام العمودية من قريتنا وقرية طناش الجبل ووضعت بدلا منه لأول مرة نقاطا للشرطة فى محاولة منها لحفظ الأمن والحد من سفك مزيد من الدماء .

تذييل :

تلك هى قصة الأحداث المريرة التى مرت بها قريتنا منذ عشرين عاما . واذا كان اهل قريتنا ـ والقرى المجاورة ـ ينعمون اليوم بالأمن والسلام وبمستوى معقول للمعيشة ، فلاشك ان لعمدتنا ميهوب ـ آخر عمدة لها ـ فضله الذى لا ينسى . فقد ابحر ضد التيار واطلق شراعه لتدفعه رياح التغيير التى كان يدركها .

ديسمبر ١٩٨٠

الثـــأر

ثلاثون عاما راح خلالها ثلاثون قتيلا أخذا بالثأر فى قريتنا الجبلية الصغيرة . آخرهم كان ضحية لصبى فى الرابعة عشرة من عمره ؛ سبق ان مات أبوه مقتولا وهو ما يزال جنينا فى رحم أمه ؛ فلما ولدته لم ترضعه ولم تطعمه الا هدفا واحدا فى الحياة : أن ينتقم من قاتل أبيه . وكما انتهت مأساة قريتنا ـ حتى الآن على الأقل ـ بصبى فانها بدأت بصبى .

* * *

كان رفاعى من أسرة أبو دومة يصطاد العصافير ـ فى أحد العصارى ـ بنبلته فى الحقول المجاورة لبيوت القرية ، غير انه أخطأ ـ ذات مرة ـ هدفه وأصاب عين طفل من أسرة الدرمللى . كانت عينه اليسرى هى التى فقأها فيما يروونه لنا . وقد ثار سالم الدرمللى والد الطفل ـ الذى لم يكن قد بلغ العاشرة ـ وحلف بالطلاق الا يكون انتقامه باقل من ان يذبح الصبى رفاعى ، ابن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وقد توسط أهل الخير وحاولوا عبثا أن يفهموا الوالد المكلوم ان الاصابة غير

مقصودة وأنها من صبى لا يدرك عواقب الأمور ، وعرضوا عليه دفع دية أو تعويض ، غير أن الوالد الثائر ركب راسه كما يقولون ، وقد اقسم فكيف يحنث فى قسمه ؟

وحين فشل وسطاء الخير واتضحت خطورة العواقب لهذا الموقف المتصلب ، تدخل عمدتنا واقترح حلا قد يرضى الجميع ، فما دام الرجل قد أقسم فلينفذ قسمه ، ولكن على شرط ان يمر بالسكين على رقبة الصبى بحدها غير المسنون ، أو بمعنى آخر ان يمثل عملية الذبح كما يفعل الممثل فى المناظر المشابهة على المسرح ، بذلك يبر بقسمه دون أن ينفذه . وعندما بدا أن سالم الدرمللى قد اقتنع بهذا الحل بعد أن فقد الجميع الأمل ، اضطرت أسرة أبو دومة الى قبوله أيضا وان كان على مضض ، فقد كانوا فى شك أن ينفذ سالم الدرمللى تعهده ، والا يستغل طيبة العمدة لينفذ قسمه ، فدماغه كانت ناشفة مثل دماغ الحمار .

وفى الموعد المتفق عليه ذهب كبار اسرة ابو دومة بصحبة رفاعى الى المكان المتفق عليه وهو دوار العمدة ، كما ذهب سالم الدرمللى وبعض أقاربه ، وبعد أن شربوا الشاى دورين ، صنع الرجال حلقة ووقف رجال كل أسرة فى مواجهة الأخرى . وادرك رفاعى أن دوره قد حان ، فهم بالبكاء فزعا وتشبث بأبيه لولا ان أخرسته نظرة منه ، فاستجمع شجاعته وتقدم وسط الحلقة ، بينما قدم العمدة السكين بنفسه ـ ولكن مقلوبا ـ الى سالم الدرمللى .

ووسط جو مشحون بالتوتر امسك سالم السكين ، وفى لحظة أقل من اللحظة ، عدل السكين ومرره بكل عنف على رقبة

الصبى المكشوفة المستسلمة لتتفجر دماؤه بشدة حتى أصاب رشاشها الواقفين : ثيابهم ووجوههم . وترنح الصبى وهو يرفرف كدجاجة مذبوحة .

وفى لحظة خارج الزمن انطلقت الرصاصات من اسرة ابو دومة تتهاوى متسابقة مرشوقة فى جسد سالم الدرملى : ثلاثون رصاصة ـ كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى ـ اخترقت جسده من راسه الى اسفل بطنه حتى اصبح كالغربال .

تلك كانت البداية ...

الانتظـــــار

فى حجرة التحقيق جلس صابر ـ ابن تلك القريـة شـبه الجبلية شبه الريفية حيث يضيق وادى النيل ـ يروى للمحقق كيف استراح اخوه فى قبره :

منذ اربعين سنة سهرت قريتنا احتفالا بزفاف اخى عامر . ووسط انطلاق الزغاريد والرصـاص ابتهاجا بالزفاف ، انطلقت رصاصـة فى قلب أخى ، وسـالت دماؤه أمامنـا فوق ملابس عرسـه .

اغمى على العروس وولولت النساء ، وأعلن شهود الحادث ان القاتل زيدان ، انتقم من عامر لأنه تزوج سعدية التى كان يحبها .. عندما أفقنا من ذهولنا حاولنا الفتك به ، لكنه كان قد اختفى عن القرية كلها . اربعون عاما لا نعرف عنه شيئا . لكننى كنت قد أقسمت على الانتقام ولو بعد مائة سنة .

واليوم عاد زيدان ـ بعد ان أصبح تاجرا كبيرا من تجـار الاسكندرية ، وجدا لأحفاد ، والبياض فى شعر رأسـه ـ محملا لأهله بالهدايا وبالشـوق لرؤيتهم ويتوهم الأمان بعد سـنوات

الهرب والخـوف . تغير كل شيء ، حتى سـعدية ماتت ، كلّ شيء .. الا انتظارى . راح يعانق أقرباءه لتنهال عليه قبلاتهم ، ووسط انطلاق الزغاريد انطلقت رصاصتى فى قلبه . كان عائدا يظن ان دم اخى عامر راح هدرا ، لكنى كنت أنتظر . قضيت على فرحتهم كما قضـوا على فرحتنا منذ أربعين عاما . والآن يمكننى ان اقيم العزاء فى وفاة اخى .

واخرج صابر ــ ذو الستين عاما ــ مظروفا من جيبه ناوله للمحقق قائلا : هذه مائتا جنيه ــ هى كلّ ما ادخرته خـلال هذه السنوات ــ لهذه المناسبة ، سلمه لأهلى ليقيموا سرادقا للعزاء ويشيعوا جنازة عامر ويتقبلوا التهانى .

فجأة سقط راس صابر على مكتب المحقق ، وعندما جاء الطبيب أعلن أنه فارق الحياة .

نصف رجل

بالأمس فقط وضع شاب ممن يجيدون الحساب فى قريتنا حدا لثأر استمر قرابة السنوات العشر حصد خلالها ثمانية رجال وامرأتين .

وقد بدأ مسلسل الثأر ـ على ما يروون ـ هكذا : أطلق عشماوى بن محمدين الشرقاوى رصاص بندقيته تحية فى حفل زفاف أحد ابناء عمومته فأصاب خطأ احدى نساء أسرة الغرابوه اللاتى كن يطللن من فوق سطح بيت من بيوتهن على زفة العروس وهى فى طريقها من بيت اسرتها الى بيت العريس . استقرت الرصاصة ناحية الأذن اليسرى لزينب الغرباوية ـ كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى ـ فخرت صريعة على الفور والدماء تتفجر منها ملطخا وجهها ومن حولها ، بينما تعالت الصرخات فوق سطح البيت مختلطة بزغاريد الموكب المصاحب للعروس فى الشارع أسفل . ومع أن الذى ارتكب القتل الخطأ معروف الا أن احدا لم يتقدم ليشهد عليه ، وانتهى التحقيق الى أن الفاعل مجهول .

ذلك أن اسرة الغرابوة كانت قد قررت أن تقتص لنفسها

بنفسها من احدى نساء الشراقوة . لكن ذلك كان معناه أن يصبروا على دم اسرتهم بضعة اسابيع وربما بضعة أشهر حتى يتمكنوا من الأخذ بثارهم . فنساء قريتنا ـ شراقوة وغرابوة ـ قلما يخرجن ؛ واذا خرجن فمتلفعات لا تكاد تبين وجوههن . لهذا فان أحد شباب الغرابوة المتعجلين تربص فى أعواد القصب للشيخ احمد الشرقاوى كبير أسرة الشراقوة واطلق عليه رصاصة وهو على حصانه (كانت عنده سيارة يابانية لكنه كان يفضل الحصان الذى تعود عليه منذ الصغر) وذلك أثناء عودته الى القرية قبيل الغروب مع حاشية له كانت تستقبله فى محطة السكة الحديدية بالبندر .

لكن لما كان الرجل فى قريتنا يساوى امرأتين فمعنى هذا ان اسرة الشراقوة اصبح لها بدورها ثار عند اسرة الغرابوة يساوى امراة أو نصف رجل . وهكذا أصبح القتل المتبادل بين الأسرتين لا ينهى الثأر بل يجدده ، فنصف الرجل يطالب دائما بثاره حتى راح ثمانية رجال دون جدوى . وكان عشماوى ـ أول من أطلق رصاصته ابتهاجا وقتل دون قصد ـ من بين هؤلاء الثمانية ، فضلا عن ضحيته زينب الغرباوية .

اخيرا استطاع أحد شباب أسرة الغرابوة أن يضع حدا لسيل الدماء بفكرة بسيطة لم يتفتق عنها ذهن غيره . كانت أسرته تقيم حفل زفاف ؛ وكان موكب العروس يمر فى طرق القرية ، وكانت نساء الشراقوة يتفرجن من فوق سطح أحد بيوتهن على الزفة . فصوب عوضين الغرباوى رصاص بندقيته الذى انطلق مختلطا بالزغاريد وصخب الموسيقى نحو احدى النساء المطلات . بذلك صفى الحساب الذى لم يستطع غيره تصفيته ، وتوقف سيل الدماء فى قريتنا الى حين .

شكوى الموظف الفصيح

عندما ذهبت لأعزى فى وفاة قريبى زيد بن عبيد همس فى أذنى أكبر أبنائه — وهو صديقى ومن جيلى — بأنه يريدنى فى أمر هام فى أى وقت أحدده .

وحين ذهبت اليه بعد أسبوع أطلعنى على مجموعة من الشكاوى كان المرحوم قد تركها فى درج بمكتبه فى منزله . وقال لى انه وأخوته قد اكتشفوا بطريق الصدفة هذه الكومة من الرسائل بعد وفاته : فلم يكونوا يعلمون عنها شيئا قبل ذلك . وكانوا قد وجدوا الدرج مغلقا بمفتاح سرى لم يستطيعوا العثور عليه حتى اضطروا لاستحضار نجار لفتحه بالقوة ، ولما فوجئوا بكومة الأوراق مضوا يقلبون فيها بلهفة وهم يخشون أن يكتشفوا فى أبيهم جانبا مخفيا عنهم كأن تكون هناك زوجة أخرى فى حياته أو شىء من هذا القبيل ، لكنهم بدلا من ذلك وجدوا هذه المجموعة من الشكاوى التى ظل يكتبها فيما يبدو على مدى سنوات ولا يرسلها الى من يوجهها اليهم بل يحتفظ بها فى هذا الدرج المغلق . وقال لى ابن المرحوم انه وأخوته قرروا اننى

باعتبارى كاتبا قد أجد فى هذه الشكاوى ما يهمنى . فهذا أفضل من القائها فى سلة المهملات . فرغم ان المرحوم كان عزيزا عليهم وكل ما تركه بالتالى عزيز لديهم ، الا أن كلا منهم يسكن فى شقة لا تكاد تتسع له ولأولاده ؛ فلا مكان لمزيد حتى ولو كان بضعة أوراق للذكرى .

وهكذا عدت الى بيتى حاملا هذه المجموعة من الأوراق لأتصفحها على مدى ليلتين كاملتين ، فاذ انا امام عشرات من الشكاوى كتبها قريبى فى موضوعات مختلفة كل الاختلاف ، فبعضها يمس مسائل عامة جدا وبعضها يمس مسائل خاصة بأسرته أو اقربائه أو أصدقائه . كما أنها موجهة الى مختلف الجهات من ناظر مدرسة ابتدائية أو مدير مكتب بريد الى رؤساء وزارات ورؤساء دول عربية واجنبية بل الى الله سبحانه وتعالى .

والحق يقال ان الخطابات لم تكن جميعها فى باب الشكوى ، فقد عثرت على ثلاث رسائل بالتحديد كلها ثناء وتقدير لعمل انجز أو اشادة بدقة ونزاهة كانت موضع اعجاب زيد ابن عبيد . ومع ذلك فيمكن القول بأن هذه الرسائل الثلاث كانت وجها آخر للشكاوى ، لأن ما بها ليس الا اشادة بانجاز كان يجب أن يكون أمرا عاديا لا يثير دهشة ولا اعجابا ، لكن التنويه به دلالة على ندرته بحيث يستحق الالتفات والتشجيع .

وأنا وان كنت لا أعرف على وجه التحديد ما الذى دعا زيد بن عبيد الى ان يحجم عن ارسال كل هذه الشكاوى التى لاشك انه سهر وتعب فى تدبيجها ــ وقد عثرت على مسودات لبعضها ــ الا انني اعتقد انه اذا كان السبب هو تهيب ارسال

بعضها لا سيما تلك الموجهة الى أصحاب السلطات العليا ، فربما كان السبب بالنسبة لاكثريتها هو اعتقاده بان ارسالها أو عدم ارسالها يتساويان حيث قرأ ولابد فى الصحف آلاف الشكاوى المماثلة التى لم تلق اية استجابة والتى بدت له ـ كما عبر فى احدى رسائله ـ انها للتنفيس لا للتنفيذ . بل لعله رأى كيف ان بعض هذه الشكاوى تنقلب على رأس مرسلها فتتعطل تماما مصالحه ـ كما حدث فى حالة زوجة ابنه المدرسة بوزارة التعليم ـ أو تعطل تنفيذ اقتراحاته عقابا له على شكواه بعد أن كان لا يثيره الا سوء التنفيذ او بطئه .

ملاحظة اخيرة احب أن أذكرها هى أن زيد بن عبيد لم يكن موظفا عاديا ، فقد كانت له هواية أنفق عليها معظم دخله المحدود ، هى هواية القراءة . ولا ازال أذكر فى طفولتى كيف كنا نتسلل ـ نحن اصدقاء ابنه ـ الى هذا المحراب المنعزل فى بيته المكدس بالكتب فى رفوف من الأرض حتى تكاد تمس السقف ، وذلك عندما لا يكون فى المنزل . ونختلس النظر الى هذه الأرفف مبهورين ، وعندما كنا نتسامر او نلعب فى الشارع الذى تطل عليه مساكننا ؛ ونرى الضوء يسقط علينا من نافذة فى هذه الغرفة ؛ ندرك ان زيد بن عبيد يمارس هوايته المفضلة ، ولاشك ان هذه الذكريات التى ترسبت فى أعماقى منذ طفولتى المبكرة كانت من أكبر العوامل التى وجهتنى فيما بعد الى عالم القراءة والكتابة .

وعندما اعددت للنشر هذه الشكاوى لم يكن لى اى دور الا دور محقق النسخ الخطيه الذى قد يصعب عليه قراءة كلمة هنا أو كلمة هناك فيجتهد فى استنتاجها من سياق النص ، كما اننى فضلت حذف الاسماء الحقيقية التى ذكرت فى الشكاوى

واكتفيت بالاشارة اليها بالحروف الهجائية ، فلم استأذن اصحابها ولست اعرف مدى موافقتهم على نشر اسمائهم التى وردت فى هذه الرسائل .

والشكاوى التالية نماذج تقدم صورة ـ ارجو ان تكون متكاملة ـ من مجموع الرسائل ؛ فبعضها شديد العمومية وبعضها شديد الخصوصية ؛ كما ان بعضها فصيح الأسلوب بينما بعضها الآخر عادى الأسلوب بل ربما كان أقل من العادى .

وبعد ، فاني ارجو أن أكون قد وفقت ، والله المستعان .

مرثيـــــة

حبيبتى القاهرة :

من ذا الذى أخرج أمعــاءك ، ونثر اشــلاءك ؟ هــل حفرت شوارعك أظافر مجنون ؟ هل قطع مواصــلاتك ، ولوث مياهك ، ورفع اســعارك غريب مخمور أو عــدو مأجور ؟ هل شخت أم شــاخ سكانك ؟

أين جمــالك وزينتــك ، وعبقــك وخضرتك ، وهــدوؤك ونظــافتك ؟

كيف شوهوا حسنك ، ملأوا بالبثور خدودك ، وبالتجاعيد والأخــاديد وجهــك ، واصبح كل من يســاوى ولا يســاوى يسخر منك .

كيف استباحك أبناؤك ، وفعلوا بك ما لم يفعله أعداؤك .

كيف أطلت ــ يا قاهرة ــ مآذنك وأبراجك الطاهرة ، على الف الف قاذورة ، والف الف مستنقع ؟

كيف خرج من رحمك خونة عقدوا معاهدة ملعونة مع الذباب ، صديق الموت والعذاب ، بمقتضاها هيأوا له من النفايات فراشا وثيرا ، ومن المقرفات المعديات طعاما هنيئا وفيرا ؟

كيف ضاقت مبانيك ، على البسطاء من احفاد احفاد بانيك ، واتسعت لغير بنيك ؟

حبيبتى ، هل لم يعد امام عشاقك الشعراء الا أن يتباروا فى رثائك ؟

آه ... لم يكن يومك يا قاهرتى المقهورة »»

امضاء

العاشق الحزين

زيد بن عبيد

الى السيد وزير المواصلات :

باسم الاف الموظفين الغلابة دافعى الضرائب ، وباسم أبنائهم وبناتهم الطلبة فى الجامعات والمدارس الثانوية والاعدادية والابتدائية ، وباسم العمال ومصانعهم التى تتوقف كلما تعطل هذا الشريان الحيوى المسمى مترو حلوان . باسم باعة الخضار الذين يملأون ردهات المترو بقففهم وزكائبهم المبتلة بالجرجير والنعناع والخبيزة والسبانخ ، باسم الجمهور البسيط الذى

تزخم عربات المترو فى كل عيد باحثا عن رئة يتنفس من خلالها أيام عطلته ، باسم رواد المسرحيات والأفلام وركاب آخر الليل من سكان هذا الخط .. باسم كل هؤلاء اتوجه اليك يا سيدى الوزير لعلك تتعطف وتتنازل وتركب معنا هذا المترو اللعين لترى كيف نحشر فيه كالبهائم وكيف تذل آدميتنا . السنا ندفع ضرائب مقابل خدمات ؛ فلماذا نستمر فى دفعها وقد توقفت الخدمات وعلى رأسها بند المواصلات ؟ ومع ذلك فنحن لا نركبها مجانا ، بل نحن نتعذب فيها يوميا مقابل تذكرة ندفعها ثمنا لهذا العذاب .

لا تصدق يا سيدى الوزير ما يقولونه لك عن قلة الامكانيات، فهذه شماعة يعلقون عليها اهمالهم وما هو أكثر من اهمالهم . فالسادة المسئولون عن تسيير هذا المترو يعلقون ارتباك حركته أحيانا على انقطاع التيار او انقطاع سلك كهربائى أو وقوع حادث : انقلاب احدى عرباته او اصطدامه بسيارة عند أحد مزلقاناته .. ولكن هذا هو الاستثناء ، اما المألوف فهو ما نراه من اندفاع قاطرات المترو واحدة وراء الأخرى أمامنا على الخط المقابل بينما تزدحم محطتنا بالركاب وكأننا يوم الحشر : طالب أوشك أن يفوته موعد امتحانه ، مريض يسنده أهله على موعد مع طبيب ، مسافر ازف موعد قيام طائرته ؛ عاشق على موعد مع حبيب وكلاهما على موعد مع فيلم قد حجزا مقعدين ليشاهداه أو يشاهدهما . ونسأل أهل الذكر : هل هو عطل أم تأخير ؟ فيجيبنا صوت غير مكترث : مجرد تأخير ، كلها دقيقتان . اما الفرق بين اصطلاحى العطل والتأخير ، فهو ان الأول معناه وقوع حادث يترتب عليه تعطل الحركة نصف يوم على الأقل ، وعلى كل من كان فى نيته الركوب تدبير أمره أو فليضرب رأسه

فى حائط المحطة ، فنحن امام مسـائل تتعلق بالقضـاء والقدر ولا دخل فيها لارادة انسان .

اما التأخير فامره بسيط : نصف سـاعة او ثلاثة ارباع الساعة فقط نتيجة ارتباك واهمال وعدم اكتراث بمشاعر الناس. ويقفز احدهم صائحا وهو يكاد ينفجر غيظا : هـذا تخريب متعمد حتى يكره الناس الحكومة . بينما يتساءل آخر : هل هنـاك جاسوس لاسرائيل ؟ واخيرا تهل علينا عربات المترو التى طالما اشتقنا لرؤياها وتعطلنا لمجيئها حتى التوت رقابنـا وجحظت عيوننا ..لقد وصلت القاطرات التى رأيناها على الخط المقـابل بعد ان اكملت رحلتها الى محطة حلوان وها هى ذى الآن تعود مكتظة لا تستطيع أن تزدرد فردا واحدا . وهكذا لا يكون وصولها وقيامها الا لزيادة غيظ خلق الله المطوعين فى حر الصيف وبرد الشتاء . ومع ذلك فلا يعدم الحـال ان يتقدم مغامر جرىء محاولا أن يجد مكانا لذراعه او قدمه ، ولكن فجأة وبلا سابق انذار ينطلق المترو بينمـا النسـاء والأطفـال والشيوخ ما يزالون يغادرونـه أو يحاولون ركوبه ، وتطير فردة حذاء لتستقر فوق القضبان ، وينقطع زرار من جاكتـة رجل انيق ، وتسقط باروكة احـدى السيدات ، بينما تصرخ أم أو طفلة لأن المترو الغدار قد فرق بينهما ، احداهما التهمها زحامه والآخرى لم يسعدها الحظ ، ويقع من يقع وينكسر من ينكسر فما أرخص البنى آدم ؛ ولعلهـا محاولة لحل مشكلة التكاثف السكانى .

وتطل على هذا جميعه فى ختـام الرحلة بالنسبة لبعضنا واستفتاحها بالنسبة للبعض الآخر ساعتان كبيرتان مثبتتان فى مكانين مرتفعين احداهما داخل المحطـة النهائيـة والاخرى على الحائط الخارجى تعلن كل منهما عن وقت مخالف للآخرى تمشيا

مع هذا الذى تطلان عليه ، وحتى لا تشذان عنه . فقد كانتا ذات يوم مضى تقومان بالمهمة التى تقوم بها كل ساعات الدنيا . تحديد الوقت بالثانية والدقيقة . فلما أفلت العيار وأصبح الوقت لا يقاس بالثوانى والدقائق بل بربع اليوم ونصف اليوم ، وجدتا الا جدوى من تحركهما ، فآثرتا التلكؤ فالتوقف ــ فلماذا تشذان ؟ ــ واعلنتا متضامنتين انهما لن تستأنفا حركتهما الا اذا رد للوقت اعتباره .

ولن أحدثك عن الأتربة التى تغطى مقاعد العربات الخارجة لتوها من مخازنها لنساهم نحن الركاب بثيابنا فى مسحها ، فضلا عما يتجمع فى أرضيتها من نفايات لا تجد من يشرف على ازالتها فى نهاية الخط وبدايته .

ولن أحدثك يا سيدى الوزير عما يحدث فى هذا الزحام لأمهاتنا وزوجاتنا واخواتنا وبناتنا ، ولا عن حوادث النشل يتفنن فيها محترفوها الطلقاء فتجمع بين الطرافة المضحكة والمأساة المبكية . اذا كان لديك الوقت فدعنى أقص عليك احداها لا لأنها أطرفها بل لأنى كنت أحد شهود العيان ، فقد طلب أحد الواقفين على الرصيف ــ ومن خلال النافذة والقطار يهم بالقيام ــ حقيبته التى نسيها فوق شبكة العربة بالداخل ، وبكل انسانية وشهامة لبى الجالس بجوار النافذة حاجته . وما أن تحرك المترو حتى دبت فى العربة معركة بدأت بصياح أحد الواقفين صياحا أقرب الى الخوار لأن حقيبته التى كانت فوق الشبكة وبها أوراق هامة مصلحية وخاصة قد اختفت ، ويكتشف الجالس الشهم انه كان ضحية شهامته وانسانيته ، ووسط تبادل الشتائم والاتهامات لا تعرف من اللص ومن الضحية .

ولن أحدثك يا سيدى الوزير عن النوافذ التى تستعصى على الفتح أو الغلق فينفذ منها برد الشتاء الى نخاعنا وغبار

ألصيف وصهده الى كل فتحات وجوهنا حتى حلوقنـا يضاعف منها سرعة القطار ؛ ونطل منها على جانبين تؤذى العين رؤيتهما ، ولكن هـذا خارج عن اختصاصك يا سيدى الوزير .

ولن احدثك عن الأبواب ـ شقيقة النوافذ ـ نصف المغلقة كعيون الخبثاء : تتضـافر مع شقيقتها فى تعذيبنا ببرد الشـتاء وغبار الصيف وصهده . وعند المحطـات يكون على الآلاف ان يتدفقوا اليها خلال ثوان ، فاذا وقع ـ لا قدر الله ـ حادث ، فهناك شماعة القضاء والقدر معدة نعلق عليها فوضانا وتقصيرنا . ولقد اكتشفت ـ يا سيدى الوزير ـ ومن خلال مترو حلوان ان للعصر الحديث ميتافيزيقاه ، اى تلك الأشياء التى نلمس اثارها ولا نلمسها ونتحدث عنهـا ولا نراها مثل : القول ، التنفيـذ ، الروتين ... الخ .

فـاذا تدفق الاف الركـاب على الرصيف كان عليهـم أن يهرولوا هابطين فوق خمس أو ست درجات كأنما وضعت خصيصا لكى ينزلق فوقهـا من بقى سليما منهم ـ وهم ما يزالون ألوفـا بحمد الله ـ بسبب سطحها المـائل الذى يغرى بالانحدار فوقها ، ييسر لها مهمتها ما انتشر عليها من حبات رمل دقيقة ذات صرير منذر عند احتكاكها بأحذيتنا المتلكئة : فقد انحشرنا فى منافذ محدودة ضيقـة سدتها احيانا اكوام القمامـة أو مستنقعـات المجارى . وأحيانا قام بهذه المهمة ماسحو الأحذية وبائعو الكشرى بل ومن استوطنوها فنصبوا فيها أكشاكهم وخيامهم يصنعون فيها الشاى أو يصلحون الأحذية .

امر واحد احب ان اشيد به ـ فلست أحب أن أنظر الى الأمور كلها بمنظار سود وانا رجل يحب العدل ـ ذلك هو النظام

الموضوع لتاخذ به المصلحة اجرها المستحق من الركاب وسط هذه الزحمة الخانقة وبالرغم منها . فكل راكب بلا تذكرة يحصـــل منه المحصل اجرها مضافا اليها غرامة للمحصل نسبة منها ، بذلك يكافأ المحصـــل على جهده وتأخذ المصلحة حقهـــا وزيادة ويعاقب الراكبون بلا تذاكر . لكن الذى يحيرنى ان شبابيك قطع التذاكر تضاءلت فى بعض المحطات الى شـــباك واحد مع أن أعداد الركاب تضاعف والعمالة زائدة بحمد الله ؛ وتكون النتيجـــة ارغام البعض على الركوب بلا تذاكر او تعطلهم وتكدســـهم فى طوبير طويلة أمام الشباك اليتيم .

المهم ان القاطرات ما تلبث أن تتوالى حتى ليكاد أن يكون آخرها خاليا ثم تعود دورة ما يسمى بالتأخير . اذ تتجمع كل قطارات الخط فى محطة الوصـــول لتعود تتدافع وراء بعضها فى ايابها لتأخذ خلق الله الذين جاء عليهم الدور فى التكدس والزحام واللاآدمية . فالركاب ــ كالأيام ــ دول ، قطار لك وقطار عليك .

يخيل الى يا سيدى الوزير ان المسئولين عن حركة هـــذا المترو يريدون أن يثبتوا لنا ولغيرنا اننا ما نزال قوما ريفيين ، ولهذا كان الديزل اقل مشـــاكل من المترو الكهربائى والقطـــار البخارى اقل الجميع مشاكل ، وهكذا نظل نتقهقر حتى نصـــل الى الحمير فلعلها تكون أسلم المواصلات لأنها أكثر تناســـبا مع عقلية هؤلاء الذين يديرون مثل هذا الخط وما يشبهه من آلات ومصانع تخسر بدلا من أن تربح ، فهى لا تتفق ونمط عقليتهم الريفية التى تقيس الوقت بالفصول وليس بالدقائق والثوانى . فلا يزعجهم ان يتعطل الناس عن مصالحهم ساعة أو ساعتين .. عندما تعطـــل بنا المترو فى منتصف الطريق ذات مرة قـــال لى سائقه . لا تقلق ، كلها دقيقتان يا والدي . فلمـــا مرت نصف

ساعة عاتبته فأجابنى : وهل كنت تريدنى ان أقول لك انه سيتأخر كل هذا الوقت واغضبك وانت فى سن والدى ؟ وكان يبتسم وانا اكاد انفجر غيظا .

لهذا أقشعر رعبا يا سيدى الوزير كلما قرات عن نية انشاء مترو الانفاق . فلست أستطيع ان اتخيل ما عساه يحدث لو تمت ادارته بالطريقة الريفية التى يدار بها مترو حلوان .. وتدافعت قاطراته فى جانب ليخلو منها الجانب الآخر المقابل .. لو انقطعت الكهرباء وتعطل المترو المزدحم فى منتصف الانفاق المعتمة الضيقة محـدودة الهواء فى ظهر نهـار صيفى قائظ .. سيختنق المرور ويختنق معه الأطفال والمرضى والشيوخ .

لست احب الشكوى فأنا اومن بمبدأ الجهود الذاتية . فهل اقترح أن يشترى كل راكب حمارا ؟ ومع ذلك فالحمـار يحتاج الى بردعة والى علو برسيم كل يوم والى اصطبل خاص به لا تتسع له شقق اليوم الضيقة .

انا أعرف يا سيدى الوزير انك ستقول ان المشكلة ليست على هذا النحو الضيق الذى انصوره ، فهى متعددة الأسـباب متعددة الحلول : فما كان ينبغى ان تتركز المصـانع فى منطقـة واحدة ، وعربات المترو تنوء باضعاف حمولتها ، والعين بصيرة والميزانية قصيرة . لكن ما علاقـة هـذا كله بالقطـارات التى تتدافع فى جانب ليخلو منها الجانب الآخر ، وما سر هذه الظاهرة المحيرة ، وقـاك الله شر الأسرار ، انه الحليم الغفـار ، والعليم السـتار .

سـيدى الوزير ، المشـكلة تزداد سـوءا يوما بعد يوم : الوحدات تستهلك وتتناقص ، والركاب يتضـاعفون بلا رابط ،

والقاطرات تتدافع بلا ضابط ، ولا احد يستطيع ان يتخيل المصير .

فاقد الوقت والاعصاب

زيد بن عبيد

الى من يستطيع التنفيذ :

كنت اهم أن أوجه هذا الالتماس الى من يهمه الأمر ، حين اكتشفت ان كل من يحب مصر يهمه الأمر . مشكلتنا ليست فى ان الأمر يهمنا او لا يهمنا ، بل مشكلتنا فى التنفيذ . فكلنا فى جلساتنا نتكلم وننتقد ونقترح الحلول ، فاذا طلعت علينا شمس الصباح وذهبنا الى أعمالنا محاولين ان نضع كلامنا موضع التنفيذ ، ادركنا ان المسالة تتجاوز قدراتنا الفردية المتواضعة ، كانما هناك أخطبوط وحشى خفى يجثم على قدراتنا ويشلها ، واننا لسنا الا تروسا فى آلة ، وما عساه يفعل الترس الجيد فى آلة صدئه . هناك هوه بين النظرية والتطبيق ، أو جدار بين « من يهمه الأمر » وسيادتك يا « من تستطيع التنفيذ » وكأنك كائن هلامى « مزفلط » كلما حاولنا الامساك بك تسربت من بين أيدينا ، فنتحدث عنك ولا نراك ، ونراك ولا نستطيع الامساك بك ، ونمسك بك لتفلت منا .

نتحدث جميعا عن ضرورة محو الأمية باعتبارها نقطة البداية لكل اصلاح ، نعتمد الميزانية وننشىء الفصول ونعين المدرسين

ونحضر الطلبة وتنتهى الدورة الدراسية ونعقد الامتحانات ويجتاز الأميون امتحان محو اميتهم ؛ ثم يتضح ان نسبة الأمية قد زادت . ونكتشف ان خللا قد حدث بين الفكرة والتنفيذ . وان العملية كلها اسفرت عن مجرد تمثيلية : قبض فيها المدرسون اجورهم دون ان يمحوا امية مواطن واحد ؛ وعند عقد الامتحان ارتدى بعض المتعلمين ثياب المفترض محو اميتهم وادوا الامتحان نيابة عنهم ؛ وهكذا بين الفكرة والتنفيذ انتصب جدار فتعطل مستقبل امة ؛ وبين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع فتحت هوة فاها ابتلعت مصلحة المطرفين .

وانا اعلم يا « من يستطيع التنفيذ » اننا نمر بفترة حرجة متعددة الأسباب متعددة النتائج . لعل أهمها سببان : العدوان الخارجى وهو قدرنا منذ الاف السنين بحكم موقعنا الجغرافى ؛ وهذا يكلفنا جهدا ماديا وبشريا واجتماعيا ... الخ . فى سبيل الدفاع عن حدودنا وشخصيتنا ؛ ثم عدوان داخلى اسمه تضاعف السكان نتج عن تقدم الطب وانتشار الأطباء حتى الريف ؛ فتراجع الموت دون مقابل فى تراجع من المواليد . ومع ذلك فنحن نضاعف من اثر هذين العاملين بثالث يبدأ بالروتين الجامد المعقد وينتهى بالفوضى وما اصطلحنا على تسميته بالتسيب .

لقد شاهد ابنى الأكبر عندما اوفد اخيرا فى مهمة رسمية بالخارج دولا تعانى مثلما نعانى من نقص فى مواردها وامكاناتها ؛ لكنهم لا يضاعفون معاناتهم بالتسيب والفوضى . فى موقف لسيارات الأجرة وقف ينتظر ؛ كان واضحا ان هناك ازمة فى هذه الوسيلة من المواصلات ؛ فالمنتظرون اضعاف الامكانات المتاحة ؛ لكنهم لا يتنافسون على ركوبها الى حد التشابك بالأيدى كما يحدث عندنا بحيث لا يستفيد بها المحتاج اليها فعلا كالمرضى

والحوامل والمرضعات والمسنين ، بل وقف ابنى ينتظر مطمئنا الى انه مهما طال به الوقت فسيأتى دوره ويستقل سيارة بلا ادنى احتمال أن تتعرض كرامته ولو لخدش بسيط . وهكذا أصبحت المشكلة فى حجمها الحقيقى ، لا يضخمها احساسك بانك فى غابة ، الفائز فيها هو الأوقح والأغلظ .

وانا أرفع التماسى هذا اليك ـ يا من يستطيع التنفيذ ـ لأن احدى حفيداتى تخرجت منذ ثلاث سنوات من كلية الآداب قسم الفلسفة . وبصراحة لم تكن هذه الدراسة باختيارها ، بل ان ما يسمى « مكتب تنسيق الجامعات » رماها فى كلية الآداب ، وتنسيق كلية الآداب رماها بدوره فى هذا القسم بعد نجاحها من السنة الأولى للثانية . وقد اكتشفت حفيدتى ـ كما اكتشفت معها ـ فيما بعد أن التنسيق من أسماء الاضداد فى بلدنا ، اى اللفظ الذى يتضمن المعنى وضده فى وقت واحد . ذلك انها عندما قصدت وزارة التربية بعد تخرجها اكتشفت انها ستعمل فى غير تخصصها ؛ اللغة الانجليزية أو التاريخ أو الجغرافيا ، فتفتيش الفلسفة قد تشبع بمدرسيه . ووجدت ان تدريس مادة لم تتخصص فيها جناية على نفسها وعلى تلميذاتها ، واذا كانت وزارة التربية تقبل هذا الوضع ـ لمبررات لديها ـ فان ضميرها لم يتقبله . فلما عينتها القوى العاملة بعد سنتين فى وظيفة حكومية ، تأكدت ان أجمل سنوات حياتها قد ضاعت هباء ، فلا عمل لها الا التوقيع بالحضور والانصراف ، ثم الثرثرة مع زميلاتها ـ وبين أصابعهن أبر التريكو وخيوطه ـ حول طعامهن وشرابهن وازيائهن ومشاكل الأزواج والأطفال . وقررت البنت أن تثور على هذا جميعه ، فانقطعت عن عملها وصرخت فى أفراد أسرتها المحتجين : يكفيكم انكم اخترتم لي حياتي

حتى اليوم ، دعونى أختار لنفسى من الآن . سأفترض اننى ما ازال بالثانوية العامة والغى من حياتى السنوات السبع التى تلت ذلك وأبدا من جديد . وهى الآن تتلقى دروسا فى اللغات الأجنبية والاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة لعلها تلتحق باحدى الشركات التى تعلن كل يوم عن حاجتها الى مثل هذه المهارات والتخصصات فى مقابل أجور مضاعفة لأن الطلب اكثر من العرض ولأن الانتاج فيها حقيقة لا وهم .

ولقد وقفت الى جانب حفيدتى مؤيدا مغامرتها الصغيرة بين دهشة الجميع معلنا ان التنسيق لا يقوم على اى تنسيق ، فيكثر من قبول طلبة الكليات النظرية لأنه ـ ظاهريا ـ لا يكلفنا كثيرا ، لتكون النتيجة فاقدا فى المال والبشر ، ونحن فى فترة أشد ما نكون حاجة الى كليهما .

نلتمس منك يا « من بيدك التنفيذ » ان تستمر سياسة التوسع فى التعليم والتوسع فى العمالة فنحن فى حاجة الى كليهما ، ولكن بشرط أن تتغير خريطة التخصصات فى ضوء خريطة الاحتياجات الفعلية محليا وعربيا وافريقيا حتى نهاية هذا القرن على الأقل .

الحالم بما لا يستبعد على الله

زيد بن عبيد

ايضـــاح

زيد بن عبيد موظف توفى اخيرا بعد احالته على المعاش بقليل. وقد عثر فى أحد ادراج مكتبه على تسعين شكوى ، وكان سلفه الفلاح الفصيح قد رفع منذ اكثر من خمسة آلاف عام تسع شكاوى فقط كانت كافيـة للنظر بعدها فى موضوع شكواه وانصافه ـ أما موظفنا الفصيح فانه لم يكترث بأرسال ما تعب فى كتابته بل ظل محتفظا به الى أن وافاه الأجل المحتوم . وهى شكاوى مرسلة الى جهات مختلفة وأشخاص متباينين منهم الاحياء ومنهم الأموات بل منهم من لم يولد بعد . كما انهـا شكاوى تتفاوت موضوعاتها ما بين شديدة العمومية وشديدة الخصوصية ؛ وهو يهتم احيانا بتناول المبادىء العامة وأحيانا اخرى بالتفاصيل والجزئيات . كما أن هناك اكثر من فكرة تلح عليه فى معظم شكاويه آثرت الا احذفها فى حالة تكرارها مثل ترديده انه لا يحب الشكوى ـ والدليل على هذا انه لم يرسل واحدة منها الى أية جهة موجهة اليها ـ وانه يؤمن بمبدأ الجهود الذاتية ... الخ .

وقد سبق ان نشرنا ثلاث شكاوى ونحن نواصل اليوم تقديم نماذج من هذه الرسائل وهى نماذج بعضها حديث الكتابة ، أما بعضها الآخر فلئن كانت قد مضت سنوات على كتابتها وبالتالى لم تعد موجهة الى من سبق ان وجهت اليهم ، الا اننى اعتقد ان بعضها ما يزال صالحا لتوجه الى من يشغلون اليوم مناصبهم . ولهذا سمحت لنفسى بنشرها ـ طبعا بعد استئذان ابناء المرحوم ـ بالرغم من حرص صاحبها على عدم ارسالها ، ربما لاننى استشففت من تحمسه لكتابتها دليلا على انه لم يكن من اليأس والقرف بالدرجة التى قد يوحى بها عدم تحمسه لارسالها . بهذا الفهم وهذا التفسير ننشر شكاوى هذا اليائس الآمل .

السيد وزير التربية :

اعرف ان مشاغلك كثيرة مثل كل مسئول فى هذا البلد وربما اكثر ، ابتداء من طفل يريد أهله أن يدخلوه دار حضانة مهما كلفهم ذلك ومع هذا لا يجدون له مكانا ؛ حتى ترقية كبار موظفى وزارتك الى مناصبها العليا . وفى كل يوم اطالع فى الصحف شكاوى الذين تمتد اليهم مظلة رعايتك : طلبة ومدرسين وموظفين واولياء امور ؛ يلجأون اليك لتحميهم مما يقترفه بعضهم فى حق البعض الآخر . مولد كبير يا سيدى الوزير اعانك الله على الخوض فيه .

بعد هذه المقدمة الصغيرة استأذنكم فى الدخول مباشرة فى الموضوع . بصراحة لقد تكونت لدى عقدة من كلمة تنسيق فى بلدنا ، فمكاتب تنسيق الجامعات والكليات والمدرسين ، كلها من اسماء الاضداد يا سيدى الوزير ، هل تصدقون ان قراراتكم

الوزارية التى تصـدرونها ـ أو التى اصـدرها وزراء سابقون عليكم ـ لانصاف العاملين بوزاراتكم تفسرها ادارات التنسـيق تفسيرا ينتهى بعكس المقصود منها ؟

قلت سأدخل فى الموضوع مباشرة . الموضوع يتعلق بزوجة ابنى السـيدة ق . كان امامهـا يا سـيدى الوزير فرصـة النقل من وزارة التربية أكثر من مرة ؛ لكنها لشغفها بالتعليم ـ للأسف ـ فضلت ان تبقى فى مهنـة التدريس ، فكان الجزاء ان الوزارة عند كل ترقية تعاقبها (يبدو من سياق الكلام التالى ان زيد بن عبيد ينحت الفاظا جديدة فى اللغة فكون هذا الفعل من النصف الأول من الفعل يكافىء والنصـف الأخـير من الفعل يعاقب ، ومعناه يعاقب شخصا عن عمل يستحق عليه المكافاة) ، وكأنما باستحقاقها الترقية ترتكب جريمـة تستحق عقوبة عليها أبسطها ابعادها عن زوجها وأولادها لتعمل فى مدينـة أخرى ، ولابد ان عندك فكرة عن مأساة المواصلات فى بلادنا ، لمـاذا توقع عليها هـذه العقوبة : لأنها رقيت من التعليم الاعدادى الى التعليم الثانوى أو من مدرسـة الى مدرسة أولى وهكذا .. ويشـهد أولادها هذه التصرفات ، فتترسب فى نفوسهم المتفتحة مخـاوف من وزارة التربية ، حتى اذا انهو تعليمهم يوما ما فضـلوا أن يظلوا عاطلين على أن يلتحقوا بوزارة التربية .

هل تعلم يا سـيدى الوزير مدى شغفهـا بالتدريس ؟ ان طالباتها يعبدنها ، يتبادلن معها بطاقات التهنئة فى الأعيـاد ، ويقدمن لها الهدايا ، لست أقصد وهن طالباتها ، كلا ، بل بعد أن يتخرجن ويعملن ، فالصـلة تظل معقودة بينها وبينهن . ذات يوم كنت أزور ابنى فى بيته عندما طرق الباب ودخلت آنسـة حلوة الوجه أناقتهـا فى بسـاطة ملابسـها ، ذات شعر اسـود

مسترسل ، وبصحبتها شاب أنيق مثلها . وبعد زيارتهما فهمت انهما خطيبان وان الآنسة كانت طالبة منذ سنوات لزوجة ابنى وانها تخرجت من كليتها الجامعية وتعمل معيدة بها الآن وهـذا زميلها وخطيبها ، وقد اقبلت الآن بصحبته لتعرفه بمدرستها السابقة وحتى تطمئن الى حسن اختيارها ، فرغم ان والديها على قيد الحياة وقد باركا علاقتهما الا انها تعتبر مدرستها أما ثانية لها . ولهذا فانها استحقت ــ فيما يبدو ــ ان تعاقبها وزارة التربية على اخلاصها وتفانيها فى عملها الذى تمارس فيه العملية التربوية فى اوسع واسمى صورها .

قلت سادخل فى الموضوع مباشرة . لقد تخلفت زوجة ابنى عن احدى ترقياتها لأن طفلها كان مصابا بالحمى الروماتزمية يوم عرضوا عليها الترقية المصحوبة بعقوبة النقل الى مدينـة أخرى ، وكان عليها أن تختار بين حياة طفلها وترقيتها ، وطبعا فضلت أن تتنازل عن الترقية .

ثم صـدر قرار وزارى لتسـوية المتخلفين فى الترقيـات بزملائهم الذين سبقت ترقيتهم . ان القرار ينطبق عليها ، لكنها فوجئت بتطبيقه على من لا ينطبق عليهم ومن يعملون بالوظائف الادارية أى من غير المشتغلين بالتدريس بينما أغفلت هى تماما ؛ مع انها يا سيدى الوزير الأحق والأقدم والأكفأ بحكم اشتغالها الفعلى بالتدريس . فلما استفسرت عن سبب اغفالها كان الرد عجبا : ان القرار لا يطبق الا على المشتغلين بغير التعليم لمساواتهم بالمشتغلين بالتعليم . وبهـذه الفتوى العبقرية تجـاوز الطرف المتخلف الطرف الآخر الذى كان من المفروض ان يتساوى به . بل رقى من لا يستحق وحرم من الترقية من يستحق . واصبح اللامعقول معقولا والمعقول لا معقولا . وعندما قدمت زوجة ابنى

الشكوى تلو الشكوى من هـذا الظلم الفادح الواضح وهددت برفع شكوى الى الجهات القضائية قوبلت بلا مبالاة كاملة . ففى بلدنا يمكن لأى بيروقراطى ان يظلم اى موظف ثم يقف منه موقف الشامت وهو يراه يتخبط بين المحـاكم سنوات دون أن يخشى عقابا حتى لو اتضح فى النهاية ظلمـه . فالقضـاء هنـا ينصف المظلوم ولا يعاقب الظالم .

ولقد رفعت زوجة ابنى شكواها الى القضـاء المختص منذ اكثر من عامين حيث ما تزال قضيتهـا تزحف من مرحـلة الى اخرى . ورغم انها حصلت على احكام لصالحها فى كل مرحلة ـ لأن حقها واضح ـ الا انها ليست احكاما نهائية . والبطء فى العدل ظلم يا سيدى الوزير .

وفى اثناء هذا كله لاحظت ان هناك جرثومة خفية تنخر فى هذه النفس الحساسة لتدمرها شيئا فشيئا . فرغم انها احتفظت بحماسها الظـاهرى ، الا انها ـ فيمـا يبدو ـ قد اقتنعت أن اخلاصها فى عملها يتناسـب تناسبا عكسـيا مع حصـولها على حقهـا ، وانه لابد وان هنـاك طرقـا أخرى ـ غير الاخـلاص والتحمس ـ تمكن الآخرين من أن يحصلوا حتى على ما هو اكثر من حقوقهم .

واذا كان تخريب النفس الانسانية للمشتغلين بتعليم ابنائنا امر لا يهم . . . (هنا كلمـات قاسية اثرنا حذفها) فلست اشك أنه موضع اهتمامك يا سيدى الوزير ولن يرضيك أن يكون الظلم أطول عمرا من العدل . أما اذا كان مصـير شكواى هو مصـير شكاوى زوجة ابنى فالأولى ان اطويها بين جوانحى ، فهذا افضل من أن تتنقل من مكتب الى مكتب تحمل تأشيرة هنا وتأشيرة هناك تبرر اللامعقول وتتجاهل الحق والعدل .

يا مرشد كل غارق الى البر نج من غرقت سفينته ، ولن يكون هناك شيء يماثل استقامتك . واذا وضع قارب المعدية على البر فبماذا اذن يمكن للانسان أن يعبر ؟ وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة للعبور . لقد حدث صدع فى السد فتدفق منه الماء : وانفتح فى الكلام . ان مكيال القمح قد طفح ، وكلما اهتز فان الفائض منه ينتشر على الأرض ، وكل من يظلم آخر فهو كمن يكتم انفاسه .

كن يا سيدى الوزير كالشبع يقضى على الجوع ، والكساء يقضى على العرى ، وكالسماء تصفو بعد العاصفة وتدفىء كل من يحس البرد ، وكالنار التى تطهو الشىء ، وكالماء الذى يطفىء الظمأ . أقم العدل ، والذى عدل عدالته موجود . وعندما يكون الحسن حسنا فالأمر اذن حسن .

زوجة ابنى يا سيدى الوزير ، زوجة ابنى ، زوجة ...

سليل الفلاح الفصيح

زين عبد عبيد المتفاصيح

دعـــــاء

اللهم أصلح ضمائرنا حتى نصلح مواصلاتنا .

اللهم نظف عقولنا وشوارعنا من المستنقعات والقاذورات .

اللهم طهر قلوبنا حتى تطهر أيدينا من الرشوة ، والسنتنا من النفاق ، وتصرفاتنا من الاهمال واللامبالاة .

اللهم اجعل ايماننا بك فى السوق مثل ايماننا بك فى المسجد.

اللهم اعطنا القدرة حتى نصفق للمتفوقين ، لا نضع العراقيل أمامهم ولا نحقد عليهم ، بل نهىء لهم كل فرص التفوق فتزيدهم تفوقا . واعطنا اللهم الحكمة حتى ندرك ان الأمة التى يحكم فيها متوسطوها على متفوقيها بالاعدام أمة محكوم عليها بالعدم .

اللهم علمنا ان مصلحة الفرد لا تزدهر الا من خلال مصلحة المجموع وان مصلحة المجموع لا تزدهر الا من خلال مصلحة الفرد .

اللهم اعطنا الايمان بأن قدوة الكبار للصغار ، والتخطيط والنظام ، والجهد والانتاج ، والثواب للمحسن والعقاب للمسىء وليس العكس ، واحترامنا حرية الرأى مع اختلافنـــا معه هى العصى الســحرية فى عالم اليوم : تنصرنا على أعدائنـــا ، تهبنـــا المهابة ، ترفع عنا كابوس الغلاء وازمة السكن والمواصـــلات ، تشفى تعليمنا من امراضـه ، تنقذ مستشفياتنا من وهدتها وترفع عنها غمتها ، تنظف شوارعنا ومياهنا .

اللهم اجعل اقوالنا أفعالا ، ونياتنا تنفيذا .

اللهم ذكرنا أن آخرتنا تراب فى العين ومتر فى مترين .

انك السميع المجيب .

الراجى عفو الخلاق
زيد بن عبيد المشتاق

رسالة عاجلة من العالم الآخر

يبدو ان أبنـاء زيد بن عبيد قد عـدلوا عن موافقتهم على مواصلتى نشر رسائل المرحـوم والدهم ، والتى كان قد كتب العشرات منها لكنه احتفظ بها فى درج مكتبـه الى أن وافـاه الأجل المحتوم . وقد كان هـذا هو سبب تأخرى فى مواصـلة نشرها . فقد طلبوا منى استردادها لانهم ـ على نحو ما جاء على لسان اخيهم الأكبر وصديقى ـ راوا ان بها مساسا لأمور شخصية يحرجهم نشرها . ومع ذلك فقد استطعت استبقاء بعض رسائله بعد اقناعهم بانها ـ وان كانت رسائل شخصية حقا ـ الا انه ليس فيهـا ما يمس كرامتهم او يسبب لهم حرجـا من قريب أو بعيد .

ولكن يبدو انه كان لزيد بن عبيد رأى مخالف لرأى أبنائه. فقد تصادف انى ذهبت لأول مرة فى حيـاتى ـ ومن باب حب الاستطلاع ـ الى جلسة من جلسات تحضير الارواح . ومع اننى أقف موقفـا محايدا بالنسبة لهذا الموضوع ، الا اننى فوجئت بروح زيد بن عبيد تحضر الجلسـة وتملى على الوسيط رسالتها

التالية طالبة منى أن أنشرها فيما أنشر من رسائله . ويبدو أن الحديث الذى كثر هـذه الأيام عن الضرائب قد أثار شجون زيد بن عبيد وأقلق روحه بحيث اضطرها أن تخرج عن صمتها الأبدى . ومما يلفت النظر ان ما يعذب هذه الروح ، ولعله كان يعذب صاحبها أثناء حياته . ليس مقدار ما يؤخذ منه من ضرائب ، فهذا لم يناقشه أبدا فى رسالته التى أملتها روحه ، ولكن طريقة اداء هـذا الواجب الوطنى هى التى تؤرقه . فواضح انه كان يلاقى الأمرين فى هـذا السبيل ، وهذا هو ما يريد لأبناء جيلنا والأجيال التالية تجنبه ، فهو مهموم بهمومنا حتى وهو فى العالم الآخر . واظن ان أبناء زيد بن عبيد لا يستطيعون أن يدعوا ملكية والدهم ولا ملكية ما يمليه من رسائل بعد ان توفاه الله . ويلاحظ ان زيد بن عبيد فى رسالته التى أملاها من العالم الآخر ما يزال يحاول الاحتفاظ بروحه المرحة الساخرة التى سادت رسائله التى تركها قبل وفاته وان كانت الجدية قد غلبت على معظم الرسالة . وفيما يلى هـذه الرسالة مع رسالتين اخريين مما كتبه وهو فى عالمنا .

سيدتى الجليلة مصلحة الضرائب :

ليس من شك انك فى غاية السعادة لأن سيرتك اليوم على كل لسان ، والمستقبل امامك ، وخطاب ودك كثيرون ، والمعذبين بك اكثر ، وانت تزدادين تدللا على عباد الله الذين يتطلعون الى نظرة عطف منك .. نظرة يا سيدة السيدات وجميلة الجميلات .

وطلابك مستعدون أن يلبوا لك طلباتك ـ وان كانوا يطمعون ان ترد لهم خدمات عامة يلمسون آثارها ـ وهم يقصدونك

بكل رهبة وخشـــوع أملين أن تتنازلى وتتقبليها منهم ، لكن يبدو انك تتلذذين بتعذيبهم ، وتضعين بينك وبينهم متاهات يشقون فى سراديبها قبل الوصـــول الى اعتابك السامية والحصـــول على رضائك العزيز الغالى .

ثم ان لى عتابا معك ارجو ان تتقبليه برحابة صـــدر ، فليس مصدره الا غيرة المحب على محبوبه ـ حتى وان كنت فارقت هذه الديـــار : لمـــاذا تفرقين فى المعاملة بين احبـــائك ، فانت تمرين بالموظفين كالطيف الهفهاف : تأخذين ما تريدين منهم لا يكادون يسمعون لك حسا . فتحصلين على حقك من مرتباتهم دون اقرارات ولا محاسبين ولا لجان داخلية أو خارجية .. الى آخر هـــذا الصداع الذى تسببينه لارباب المهن التجـــارية وغير التجـــارية وغيرهم . لمـــاذا لا تريحين الكل أو ـ على الأقل ـ من يعلن رغبته فى الراحة والبعد عن الصـــداع . وتتعلمين درسا من ابنة عمومتك مصلحة التليفونات ، حيث الفرصـــة متاحة لكل من يرغب أن يســـدد اشتراكه السنوى دفعة واحـــدة ، فيخف بذلك عبء المتزاحمين على مكاتب التليفون لدفع اقساط اشتراكاتهم مرة كل ثلاثة اشهر . لمـــاذا لا تتيحين الفرصـــة امام الراغبين فى خصم المستحق لك كله من المنبع وليس جزءا منه كما يحدث الآن ، بحيث يكون موقفه موقف الموظف الذى لا تطالبينه فى نهاية العام بتقديم اقرار أو دفع أية مبالغ اخرى لا تتحملهـــا ميزانيته المتواضعـــة .

ثم ان لى تجربة مريرة يا سيدتى الجليلة حين عذبتنى فى شيخوختى وقد تجـــاوزت السبعين ولا استطيع ان اتحرك تلك

الحركات الرشيقة التى لأبد أن يجيدها كل من يتعامل معك ؛ فلابد أن يكون ممولك سليم البدن سليم العقل سليم الاعصاب ـ وان انتهى الى غير ذلك فما هو الا من فرط حبك له ـ وأنا شيخ مصاب بداء القلب وتصلب الشرايين وضعف الذاكرة ، ومع ذلك تطالبيننى بما تطالبين به شبابا كله حيوية وخصـوبة وقدرة على المنح والعطاء وارواء ظماك الأبدى الى المـال . فلماذا لا تتكرمين بالاعلان عن تكريم كل من جاوز السـبعين باعفائه من التعـامل معك مكتفية بما يهبك الشباب من حيويتهم وخصوبتهم ؟ واذا كان الشيوخ يهربون أموالهم الى ابنائهم فان العكس لايمكن ان يحدث ، فلن يهرب أحد أمواله لشيوخ اشرفوا على نهايتهم ، أرجو أن تكونى كريمـة مع كل من جاوز السبعين فتعفينه من التعامل معك ولو من ضريبـة المهن الحرة . فأنا وان كنت قد غادرت دنياكم الفانية الا اننى لا أريد لأجيال الشيوخ من بعدى ان يلاقوا ما لقيته منك حتى لقد اضطررت ذات لحظة الى ايقاف نشاطى القليل ذعرا مع اننى كنت وقتها فى أشـد الحاجة الى أن يشعر الناس باننى ما أزال موجودا .

وختاما فاننى أمل أن يزودك أولياء امرك بالآلات الحاسـبة والأرفف والدواليب والبطاقات التى تفتقدينها مع انها أوليات العمـل المنظم فى أصغر وحـدة حسابيـة ، فما بالنـا وانت تتعـاملين مع ملايين المواطنـين . أخشى اذا بقيت فى وضـعك المتواضع ان يحدث أحد أمرين لا ثالث لهما : أما انك لن تنجزى شيئا ، واما انك ستتعذبين وتزيدين عشاقك عذابا فوق عذابهم الحـالى .

ثزيني يا سيدتي الجليلة وتعطرى حتى يصبح موعد المحاسبة

الضريبية عيداً قومياً كما يحدث فى كل بلد متقدم . أعانك الله واعان احياء هذا البلد معك .

زيد بن عبيد
دافع ضريبة الحياة
والمنتقل الى نعيم بلا ضرائب

الى طبيبى المصرى العظيم :

فى الصيف الماضى سافر ابنى الأكبر الى أوربا بدعوة من احدى الهيئات لمدة ستة اشهر . وقبل سفره ـ وبمناسبة سفره ـ جلسنا نتذاكر قصة الصدام واللقاء بالحضارة الغربية الحديثة . اغضضنا الطرف عن الصدام القديم أيام الحروب الصليبية ، ونفذنا سريعا الى ما نسميه بداية العصر الحديث حين جاءنا الأوربيون غزاة ، وذهبنا اليهم نتعلم منهم ونتعرف عليهم عسانا نصد غزوهم بأسلحتهم . لم تكن أول مرة يسافر فيها ابنى الى أوربا ، لكنها كانت زيارات سريعة قصيرة يكون فيها اقرب الى السائح . اما هذه المرة فسيقيم فيها كما أقام قبله أسلافه المحدثون ابتداء من رفاعه رافع الطهطاوى الذى لخص لنا رحلته فى كتابه تلخيص الابريز فى تلخيص باريز حتى يحيى حقى فى كتابه « حقيبة فى يد مسافر » وبينهما صف طويل من مفكرينا على رأسهم المويلحى الابن صاحب حديث عيسى بن هشام وطه حسين وتوفيق الحكيم .. كل هؤلاء قد

بهرته هذه الحضـــارة فى جانب منها وان انتقدها فى جانب آخر . ولعل النظام والدقة والنظافة واحترام الانسان للانســـان بل للحيوان على رأس قائمة ما يشيدون به . وعندما سافر ابنى كنا نتساءل عما عساه يلقاه من جديد يبهره .

وجاءتنا خطاباته تترى ، وكانت خطابات قصيرة مختصرة ليس فيها الا أخبار عادية يعلن فيها انه لم يجد شيئا لم يتوقعه . فالنظام والنظافة والدقة وحسن الأداء واستخدام آخر ما وصل اليه الانسان من مخترعات وتذوق الفنون متوفرة حقا لكنهـا لا تبهره لانه يتوقعها . وهو على عكس أســلافه لا يبهره ما يراه بل يصدمه ما لم يتوقعه حين لا يكون على المستوى المنتظر : ورقة على ارض الطريق ، تصرف بوليسى مع أحـد الغرباء ، ســلعة يشوبها عيب .. وفجـأة وصلنا منه أول خطاب مطول يقص فيه علينا قصة اقلقتنا جميعا . فقد اصيب بكحة أهمل أمرها على مدى ستة أسابيع كاملة . واخيرا قرر ان يزور الطبيب ، وهو طبيب عينته الهيئة الداعية . سأله الطبيب :

ـ هل تشكو من أمراض البرد ؟

ـ لا .

ـ وهل سبق أن شكوت من ارتفاع ضغط الدم .

ـ نعم وعالجته وكان عاديا قبل مجيئى .

ـ اذن انت لا تأخذ ادوية تخفض ضغطك حاليا .

ـ لا .

ـ آه .. هذه الكحة اذن من ذلك الضغط .

وقاس له الضغط فوجده فعلا مرتفعا ، واتبعه برسم للقلب . ثم اعلن له ان ما تنبأ به من علاقة الكحة بالضغط واكده له قياس الضغط وكشفه عليه بالسماعة قد وضح فى رسم القلب . وامره بتعاطى اربعة ادوية منها ما يخفض الضغط ونسبة الماء فى الجسم ، ومنها ما يقوى عضلة القلب ، ومنها ما يهدىء الأعصاب المتوترة . وبعد اسبوع من العلاج كان الضغط قد اصبح عاديا .

وبمجرد وصول خطابه اتصلت بصديقه وطبيبه الذى كان يشرف على علاجه قبل سفره ، وهو طبيب يحاول خلق جيل جديد من الأطباء المهرة المخلصين قبل أن يبحث عن شهرة أو مال لنفسه ، يجمع بين الذكاء والتواضع والاخلاص . فبادر بارسال خطاب — او محاضرة — الى ابنى من أربع وعشرين صفحة يؤكد فيها على البعد — ان هذا التشخيص خطأ مائة فى المائة . فلكى يتسبب الضغط فى الكحة يجب أن يكون قد ادى الى تضخم عضلة القلب ثم هبوطها مما يؤدى الى رشح فى الرئة يتسبب عنه الكحة . وهذه تطورات تحتاج الى سنوات من الاصابة بضغط الدم المرتفع . وكان على طبيبك الأجنبى ان يسألك : هل تنام نوما عاديا ؟ فالمصاب بهبوط القلب لا يستطيع النوم الا جالسا او شبه جالس . هل تحس بالتعب عقب بذل اى مجهود ؟ هل كشف على رئتيك بالأشعة ؟ هل طلب فحص قاع العين ليتأكد من وجود ضغط مرتفع مستمر .. فلا يكفى أن يكون هناك سعال وضغط لكى يكون هذا من ذاك .

ومع ان ابنى راجع الطبيب الأوربى — على ضوء تفسيرات صديقه — الا انه ازداد تشبثا برأيه وما توصلت اليه الاته قائلا : طبيبك المصرى يشخص حالتك من على بعد آلاف الأميال اما انا

قبالكشف عليك وأنت أمامى . وتحديا للطبيب المصرى قـام بعمل اشعة على الصـدر ثم كتب تقريرا وقعه بامضـائه يردد ويؤكد فيه تشخيصه مما هز ثقة ابنى ـ ذات لحظة ـ فى صديقه وطبيبه المصرى ، وافسد عليه متعة ايامه الباقيات فى غربتـه رغم ما كان يلقاه من حفاوة وتقدير .

فلما عاد الى مصر المحروسة ، وكشف عليه طبيبه المصرى العظيم ، اتضح ان الطبيب الأوربى قد اولى الآلة كل ثقته وعطل تفكيره فوصـل الى استنتاجات خاطئة . تماما كمـا يعتمدون على الآلة فى رفع اثقالهم فلا يستطيعون رفع عشر ما يرفعـه حمالونا ، وكما اعتمدوا على الآلات الحاسـبة فيضيقون بالاعتماد على عقولهم امام عملية حسابية بسيطة .

وقد ذكرنى هـذا بنفس هـذا الابن عندما كان صبيـا لا يجـاوز العاشرة واصيب بسخونة لم تزايله اكثر من عشرة ايام . فلما استدعينا له الطبيب المختص امر بعمل تحاليل معينة رايت ان اضيف لها من عندى تحليل حمى التيفوئيد ، وكانت النتيجة سلبية كل التحاليل ما عـدا التحايل الذى لم يطلبـه الطبيب . ومع ذلك فعندما علم النتيجة لم تهتز شعرة فى راسه واعلن بكل ثقة ان هذا التحليل غير دقيق لانه كان يجب أن تكون هناك اعراض مصاحبة لهذه الحمى لو انه كان صحيحا واعلن أن الأمر لا يعدو ان يكون اصابـة بسيطة بالانفلونزا . ورغم اننى شككت فى هـذا التشخيص ، الا ان شفاء ابنى فى اليوم التالى مباشرة اكد لى صحة راى الطبيب .

تحيــة الى طبيبنــا المصرى العظيم ، والعقبى لمرضــينا وممرضــاتنا .

زيد بن عبيد

الفخور بطب بلده

الحزين على تمريضه

الى القرن الحادى والعشرين :

انا الفرد المسحوق فى القرن العشرين .

فى القرن التاسع عشر سحق الفرد المجموع .

فى القرن العشرين سحق المجموع الفرد .

انا الفرد المسحوق المنسحق ، المطحون المنطحن .

كالأرانب توالد الناس ،

العرض اصبح اكثر من الطلب .

أصبح الفرد رخيصا فى سوق المجموع ،

افترســه تنين المجموع .

كتبت شــكوى ،
قيل لى اكتب ألف شكوى .
انت واحد ونحن تسعة وتسعون .
انت فرد ونحن ملايين الأرقــام .

انت رقم فى سجلاتنا ،
ما قيمة ان تأتى ، ما قيمة ان تذهب .
انت فرد فان ، ونحن الجمع الباقى .
من قبلك كنا ، من بعدك نبقى .

انــا الفرد فى البيت ،
فى المقهى وفى الملهى .
الواقف أمام المكتب ،
امام بــابه المكتب .

ونحن المجموع الجالس خلف المكتب .
نحن الأبواب المغلقــة .
نحن اللجان داخل الأبواب المغلقة .
نحن المخفى المرئى ، المجرد الملموس .
نحن مجمــوع أفراد ،

لكن المجموع فينا يسحق الفرد منا .
نحن الآلة ،
نحن تروس الآلة وازرار الآلة .

انا المتهم انا المدان ،
ونحن الاتهام نحن القضاة .
انا الفرد المسحوق المطحون ،
ونحن المجموع الساحق الطاحن .

وانا احلم ...
احلم بعصر بتصالح فيه الفرد والمجموع .
عصر يزدهر فيه الفرد من خلال المجموع .
ويزدهر فيه المجموع من خلال الفرد .

القصيدة ناقصة الوزن
لمؤلفها ناقص الموهبة
زيد بن عبيد

المقــرف المضــحك
او
من تاريخ حياة مؤخرة

تعــريف :

الياء آخر حروفنا العربيــة ، واول حرف فى اسم مؤلف قصتى ، لكنه اسمى أنا كاملا « ياء » ، غير انه يكتب وينطق هكذا « ى » ، ولطالمــا تساءلت عن مدى العلاقة بين اسمى ومؤخرتى وما اذا كانت تتجاوز العلاقة الموضعية ، فاسمى فى مؤخرة الحروف ومؤخرتى فى مؤخرتى .

حدث فى مصر ذات عام ان شح الورق بمختلف أنواعه ، فارتفعت أسعار الكتب ، وكان التلاميذ يعثرون على كراريسـبهم بما يشبه المعجزة ، اذ كان تجار الورق يخزنونها ثم يبيعونهــا ــ كالممنوعات ــ سرا وبأسعار مضاعفــة ، بينما انخفضت صفحات الصحف والمجلات الى النصف وارتفعت أسعارها الى الضعف . وادي ذلك الي ارتفاع سعر ثمن الكيلو من أوراق الصحف القديمة

والأكياس الورقية حتى اضاف الباعة ثمنها على بضاعتهم التى كانوا يغلفونها فيها ، بينما امتنع البعض عن تغليف بضـاعته . وعادت الفئات التي كانت قد تعودت على استخدام ورق التواليت الى عادتها القومية المـألوفة فى الاقتصار على استخدام المـاء .

* * *

فى طفولته ارتفعت درجة حرارته ذات يوم ، بعد يومين اكتشفت أمه أن عنده امساكا . فى الليلة الثالثة لاحظ انهم يعدون له شيئا .. يعدون الحقنة الشرجية ذات الخرطوم الأحمر الغامق الطويل والمبسم الأسود المنساب المثقوب فى نهايته . رآها اول مرة حين استخدموها مع اخيـه الأكبر ولاحظ نتيجتهـا الفعالة السريعة بمجرد أن سحبوا الحقنة من مؤخرته . وها هو ذا قد جـاء دوره ، بكى ، لكنهم ارغموه ، هددوه أنه سيموت ان لم يأخذ الحقنة : ستتعفن بطنه ويتعفن معها جسـمه كلة .. لم يحس بما كان يتوقعه من الم ، فقط بانتفاخ بسيط فى تجويفـه الداخلى ظل يزداد شيئا فشيئا حتى خشى أن يستمر الانتفاخ فينفجر . وعندما تخيل النتيجة المرعبـة صرخ ، ولكن يبدو أنهم كانوا قـد انهوا مهمتهم . ما أن سحب والده الحقنـة من مؤخرته حتى أحس فى الحـال برغبة لا تقاوم فى اخراج فضلاته ، وكانوا قد وضعوا ذلك فى حساباتهم على ما يبدو ، فقد وجد الى جانبه ــ فى نفس العرفة ــ قصرية ، افرغ فيهـا محتويات الحقنة ومعها محتويات أمعائه المتعفنة منذ ثلاثة أيام .

* * *

فى مراهقته دخن « ى » أول سيجارة (وكان أبوه يدخن لكنه حرم عليه التدخين) ورشف أول رشفة من مشروب كحولى

(كان كوبا من البيرة المثلجة لم يستسغ طعمها يومئذ) وتذوق اول قبلة من ابنة الجيران (قبلة سريعــة على خدها وهو لا يدرى هل هى سعيدة بجراته أم غاضبة لفعلته) كما تعامل لاول مرة مع مؤخرته بورق الصحف . ولئن كان قــد عدل بعد ذلك عن كل ما ارتكبه من حماقات فى مراهقته : فلم تكن الا من باب الخبرة والتجربة (حتى ابنة الجيران تزوجها فيما بعد) الا انه احتفظ بتعامله مع ورق الصحف ، وان لم يستغن عن استخدام الماء فهذا يكمل تلك ، تماما كما تكمل المنشفة عمليــة غسيل اليدين بعد الأكل . واذا كان ابوه ما يزال يدخن ، فلماذا لا تكون له هو عاداته الخاصة المتميزة (هــذا مجرد تحليل وتعليل منا) لاسيما وان هذه الأوراق ذات فائدة مزدوجــة : فهو يقرأ مزقها متسليــا بسطورها المبتورة محاولا أن يستنتج بقايا الجمل الناقصة :

.. المظاهرات تهتف بحياة

.. انت مشتركة من البوليس

.. الانجليز الرصاص على السط

.. اثنين هما عبد الـ ...

.. المستشفى واعتقل

وفى ورقة أخرى ...

اعــلانا ...

شقة للايجار وسط ..

صالة وثلاث غرف و ..

٢٥٠ قرشا والمخابرة مع ..

* * *

غرفة فى بنسيون بشارع ...

الخامس بالافطار ويمكن ...

بدون اطفال او حيوا ...

وهى فرصة لا تتاح له مثلها لقراءة ما لا يتسع له غير هذا الوقت ، كما ان هذه القراءة من شأنها ان تجعل طبيعته تسير سيرا طبيعيا ، لا تتقدم ولا تتأخر لأن ذهنه منصرف عنها ، فلا افتعال ولا ارغام . فاذا قضيت حاجته ، عندئذ يكون للورق استخدام آخر ولسطورها مصير آخر .

وكان « ى » يعترف أنه اذا لم يستخدم الماء فى هذا المكان بعد اخراج فضلاته فانه يحس تماما بما يحس به اذا لم يستخدم الماء فى تنظيف فمه بعد الأكل . ولكن لئن كان استخدام الماء ضروريا لمدخل الطعام ومخرجه فان هذا لا يغنيه عن استخدام ورق التواليت ، كما يستخدم المنشفة لتجفيف فمه ويديه بعد غسلهما .

* * *

فى مراهقتى كان أبى يصحبنى احيانا الى قرية أبى النمرس على بعد ساعة من القاهرة بالقطار البطىء ليشترى من نحال هناك عسلا طبيعيا لا غش فيه ، وكان علينا أن نسير فى طريق طويل تظلله اشجار النخيل ، قال لى أبى فى احدى هذه الرحلات

محذرا ومنبها : الرجـل لا يسمح لرجل آخر أن يقترب من مؤخرته . كن رجلا ولا تدع احدا يضحك عليك أو يخدعك ، فتفقد رجولتك وتصبح كالبنت سواء بسواء . وقد وعيت الدرس جيدا ـ دون أن أفهمه تماما ساعتها ـ حتى اننى كنت أعتبر كل غريب يقترب منى انمـا يحـاول أن يلمس مؤخـرتى فأهرول مبتعدا عنه .

***

ذات يوم اصطحبنى والدى الى مـولد السـيد البدوى بطنطا ، لست اذكر الآن من هذا المولد غير زحامه وحادثة واحده لا انساها . كان الوقت ساعة الغروب ، حين لاتكون الدنيا نهارا ولا ليلا ، واردت أن اقضى حاجتى ، فاشاروا على بدورة مياه فى مكان منزو رطيب بعيـد عن الزحـام . وقد دفعتنى حـاجتى الشديدة الى ولوج هذا المكان المنحدر نحو الظلمـة . وعندما اقعيت تركت الباب نصف مفتوح حتى لا افقد صلتى بالنـاس تماما . ويبدو أن شيخا كفيف البصر اراد أن يفعل مثلما فعلت وفى دورة المياه نفسها . لقد طرق الباب الموارب بعصاه ، ويبدو انه كان على ان افعل شيئا لأنبهه الى وجودى ، أتنحنح مثلا كما افهمونى فيما بعد ، لكننى لم اكن اعرف وقتئذ آداب التعـامل فى هذه الأماكن ولا لغته ورموزه . فاطمـأن الرجـل الى فراغ المكان ، واذا بى أواجه بمؤخرة ضخمة امامى وهى تتقهقر نحوى توشك أن تصطدم بأنفى . لست اذكر الآن الا ضخامتها وكثافـة شعرها حتى بدت لى كأنها حيوان خرافى ضاعفت شبه العتمـة من أسطوريته ، حتى وجدتنى أصرخ مستنجدا بأبى ، بينمـا الرجل ينتفض وهو يبسمل ويحوقل مستعيذا بالله حتى تختفى هذه العفاريت التى بدا لها أن تداعبـه هذه المداعبـة السمجة

فى تلك اللحظة الحرجة . وقد تجمع الناس ليلتها ، بعضهم يؤنبنى على شقاوتى بل يهم أن يصفعنى أو يلكمنى وبعضهم انتابته نوبة ضحك حتى اغرورقت عيناه الى أن أقبل والدى فانقذنى .

* * *

وكان « ى » يستخدم فى طفولته ورق الصحف ولا يجد فى ذلك ما يؤذى مؤخرته . تماما كما كان يذاكر على المصباح الغازى ولا يجد فى ذلك ما يؤذى بصره ، وكما كان يشرب من ماء القلة ولا يجد الا ما يروى ظمأه . وعندما كبر مع جيله ، وأصبح له بيت مستقل (بعد أن تزوج جارته) استخدم المصابيح الكهربائية بدلا من الغازية ، والثلاجة بدلا من القلة ، والبوتاجاز بدلا من وابور الجاز ، بل والمكنسة الكهربائية بدلا من المقشة . وحلت أشياء لم تكن فى بيت أبيه الف رحمة عليه : الراديو فالتليفزيون فالتليفون .. واستخدم البانيو بدلا من الطشت ، والمرحاض الافرنجى يجلس عليه كما يجلس على المقعد بدلا من المرحاض البلدى الذى كان يقعى عليه كما يقعى الحيوان (وان كان ذلك قد استغرق وقتا لأن أمعاءه لم تتعود افراز فضلاتها الا تحت هذا الضغط الذى يصاحب جلسته الأولى حيث تنحشر فخذاه ومؤخرته بين ساقيه وجذعه الأعلى ، مما أصابه بامساك عانى منه عده أسابيع) ، كما استخدم الشطافة بدلا من الكوز ، وورق التواليت بدلا من ورق الصحف .

* * *

عندما نشبت الحرب الثالثة بين العرب واسرائيل ، كنت مجندا فى القنطرة غرب . ذات مساء سمعت صفارة الانذار .

كنت فى عربة جيب مع ثلاثة من زمـلائى وسائق العربة ، فادرنا العربة فورا وانبطحنا على الأرض الرملية وهى ما تزال تحتفظ بدفء الشمس الغاربة . وجدت نفسى أمام بقايا خندق لا يتسع الا لنصف جسد انسانى مزدحم بفضـلات اخوتى من البشر ، فادركت فى اقل من اللحظـة انه كان يستخدم كمرحاض نظرا لانخفاضـه وصلاحيته ليخفى مؤخراتهم وعوراتهم حين يكشفونها فى هـذا الخـلاء المتسع للتخلص من افرازاتهم . كان على ان اختار : احمى نصفى الأعلى ام نصفى الأسـفل ؟ بل كنت قد اتخذت قرارى بالفعل أثناء تصرفى ، فلا مسافة بين اتخاذ القرار وتنفيذه ، كنت قد أدخلت راسى فى الفتحة الأرضية بحيث أصبح انفى يكاد يلامس ما تركه لى اخوتى فى البشرية من بقاياهم . ومع ان معظمها كانت قد قددته الشمس الا ان تلامس انفى معه كان امرا فظيعا غير محتمل لاسيما وان رائحـة نفاذة اقرب الى رائحة النوشادر كانت تنبعث من الخندق الضيق لتملأ انفى بما يثير الغثيان . وبينما استطعت أن أغلق عينى حتى لا ارى شيئا فانى لم أستطع ان افعل المثل مع انفى ، فكان على أن اظل محتفظـا بمسافة ـ ربما لا تزيد عن الملليمتر الواحد ـ بينه وبين ما يواجهنى دون أن افقد اتزانى ، وقد انحنى بقية جسـمى فوق الأرض ليصنع زاويـة منفرجة مع نصفى الأمـامى . وهكذا اصبحت مؤخرتى هى اكثر اجزاء جسمى تعرضا للاصابة . وبينما كانت أصوات الانفجارات من حولى تتتابع ووهجها ينفذ من الفتحـة نصف المعتمة التى وضعت فيها نصفى الأعلى ، خطر لى خـاطر افزعنى تماما : مؤخرتى الآن مكشوفة لأية شظيـة مجنونة . من قال اننى براسى فقط يمكن ان أعيش ، ليس بالراس وحـده يحيا الانسان . كيف أحيا اذن لو شطفت مؤخرتى .. كيف اقضى حيـاتى ..سينساب الصنبور .. وفجـاة وجدتنى أضحـك

وجسدى يهتز وأنا أحاول أن أزم شفتى حتى لا يتسلل بينهما شيء مما يزحم ارض الخندق .. عندما ترامى الى دوى رهيب وتناثر الرمل على ساقى ومؤخرتى يلسعها فى عنف . فتلاشت الضحكة فى الحال وتأهبت لتقبل أهول النتائج بينما انفى ــ وربما فمى ايضا ــ لابد وانه اصطدم بما تحاشاه طوال الوقت.. وعندما أفقت من غيبوبتى كان أول ما فعلته هو أن تحسست مؤخرتى فوجدتها سليمة بحمد الله . غير أنى عندما سألت عن رفاق سيارتى وسائقها وعلمت انهم ماتوا جميعا انتابتنى نوبة صرع ؛ ظللت أعانى منها سنوات طويلة حتى شفيت منها : أو على الأقل لم تعد تعاودنى فى السنوات الأخيرة .

* * *

ذات صباح دخلت المرحاض كعادتى ، لكننى خرجت منه كما دخلت لم ينقص منى شيء .. ثلاثة أيام يتكرر دخولى وخروجى كما انا رغم ما بذلته من محاولات ارادية استغرقت منى جهدا ووقتا ، ورغم أنى قرأت أثناءها ــ فى كل مرة ــ صحف الصباح اليومية الثلاث كلها ؛ حتى التهانى والوفيات . حاولت ان ابحث عن سبب مادى أو نفسى ؛ كان الجديد فى طعامى هو الجوافة ؛ فقد هل موسمها . والتهمت عددا لا بأس به من حباتها فى عشاء الليلة السابقة على ما انتابنى : بل كانت هى عشائى ، فهل تراها السبب . سامتنع عن أكلها ــ رغم شغفى بها ــ وارى . او لعله ما عانيته من خلاف بين رئيسين فى عملى كنت أوشك ان أكون ضحيته عندما هددت بنقلى نكاية من أحدهما فى الآخر ، ولو انى أعلم انه ما ان يصيبنى اضطراب نفسى حتى أسهل ، بينما العكس يحدث لى الآن . هل ترانى سأحتاج الى

حقنة كتلك التى كانوا يعطونها لى فى طفولتى . وعجبت أن شهيتى ما زالت مفتوحة ألتهم نفس كميــات الطعام التى التهمها كل يوم . أين تراها تجد متسعا ؟ غير ان مزاجى كان منحرفا . حتى كان اليوم الرابع حين صممت على التخلص من هــذا الذى تراكم فى أمعــائى ولعله زحف على معدتى وأخشى ان يبلغ حلقومى . جلست وضغطت بيدى مارا بمعــدتى فأمعــائى حتى احسست بتقلص وألم لذيذ لابد وانه احساس شبيه باحساس النســاء حين يجيئهن المخاض .. وأخيرا ، اخيرا جدا ، جاءنى الفرج . لكن ما هــذا الذى أحســه ، كأنما تفرز مؤخرتى سكينا حــادا يقطع منها ، فى نفس الوقت الذى احس فيه براحة تكاد تخدر جسمى ، وثمة الم اشبه بألم الجرح ، ولكى أقطع الشك باليقين أمسكت بقطعة من ورق التواليت ، وبكل حذر لمست موضــع الألم ، فلما رايتها هالنى أن تتحقق ظنونى ، وانا ارى بقعــة كبيرة من دم احمر فاتح تلوثها . اغتسلت بالمــاء ثم خرجت أقص على أبى ما حدث واستشيره . غير انه هون على الأمر ، وكشف عن مكان فى صيدليتنا المنزلية الصغيرة خصص لمداواة ما قــد يقع للمؤخرة من اصابات مماثلة : مطهرات وملينات ومراهم .

* * *

وعندما نشبت الحرب الرابعة بين العرب واسرائيل أخذت البضــائع فى مصر تختفى من السوق . قيل ان الدولة تختزنهــا لتموين الجيش ، وقيل ان التجــار يخزنونها لاعادة بيعها بأسعار أعلى (ناس يموتون وناس يربحون) . ولم يكن « ى » غبيــا . سرعان ما استشعر اتجاه السوق ، نزل يتجول فى شــوارع الحى حاملا معه حقيبة كبيرة اشبه بحقيبة السفر ، واحيانا ما رافقه

أبنه بدرأجته . ثم يستبضع كل ما يمكن أن يكون فى حاجة اليه لشهور طويلة ويتحمل البقاء : الصابون بأنواعه للحمام والمطبخ وغسيل الملابس ، الزيت والسمن والسكر والمعلبات ، البقول بأنواعها ، الفول والأرز والعدس وان كان السوس يتلفها اذا جاء حر الصيف لكن يمكن خلطها بالملح او تجفيفها وتحميصها فى فرن البوتاجاز .. ثم ورق التواليت . كانت اللفة بستة قروش ، ثم بثمانية ، وها هى ذى بعشرة قروش . كان كل ما عند البائع قاروصة واحدة بها عشرون لفة .. أخذها وهو لا يصدق ان البائع يعطيها كلها له . ومع أنه دفع ثمنها بالسعر المرتفع الذى حدده البائع الا انه احس كأنما اهديت له . بعدها بأسبوع نزل الى السوق ـ فى يوم الجمعة يوم أجازته الأسبوعية ـ قال له البائع : ارسلنا نطلب لم يصلنا شىء ، سمعت أن المصنع توقف ، الخامات لم تعد تستورد . رد عليه ساخطا : ليس هناك نظام ولا تخطيط ، قال له البائع مهدئا : بل يوفرون الأموال لما هو أكثر اهمية . من دكان الى دكان ذهب ، حدق ، وبحث قبل ان يسأل ، ثم سأل وهو يعرف الاجابة . حتى انه فوت على نفسه موعد صلاة الجمعة ربما لأول مرة فى حياته . يبدو أنه نفد تماما ، وكان هذا أمرا محزنا للغاية . وعندما بدأ يفكر فى وسائل بديلة ، وجد ـ لحسن حظه ـ فى دكان منزو متهالك لفتين اخيرتين أبى أن يبيعهما له التاجر الا بربع جنيه ، دفعه « ى » بعد جدل مصطنع وهو يحس فرحة لا تعدلها فرحة الحصول على كنز .

* * *

ولقد أهداه صديق ذات يوم هدية لا يذكرها الآن ، انما الذى يذكره جيدا أنها كانت ملفوفة فى ورق استرعى ملمسه انامله

(وقد تركزت قيمة الهدية فى هــذا الورق ، وواضح أن الصديق لم يخطر له هذا الخــاطر أبدا) ، فمضى يتحسســه ، وثمة فكرة تضيء عقله شيئا فشيئا : لمــاذا تعود ان يلقى مثل هذا الورق فى الزبالة . اليس انفع واجدى أن يحل محل ورق التواليت المختفى من الأســواق .. ومضى ينكش البيت كله باحثا عن ورقة هنا أو ورقة هناك ، يتحسسها بأنامله : هــذا سميك أو خشن ضرره أكثر من نفعه ، وهذا خفيف جدا شفاف جدا لا يتحمل .. حتى تجمعت لديه فى النهاية كميــة لا بأس بها . وعلى مائــدة الطعام أقام ورشة صغيرة ، مادتها الخام ما عثر عليه من ورق ، ثم مقص ومجموعة اســلاك كهربية قديمة وخرامه اشــتراها خصيصا لهذا الغرض . ثم مضى يقسم الورق مجموعات لا تأبى على المقص ان يقصها ، ثم يطبق كل مجموعة الى نصفين يفصــل المقص بينهما ، والنصف الى نصفين وهكذا حتى تصبح قصاصات طويلة فى حجم صالح للاستعمال ، ثم يثقب كل مجموعة معــا بالخرامة ، فتصنع ثقبين فى أحد طرفى القصاصات ، ثم يقص ما طوله بضعة سنتيمترات من السلك الكهربى القديم يمرره فى احد الثقبين ويعقــده ، ويفعل الشيء نفســه فى الثقب الآخر ، فتتماسك القصاصات من أحد طرفيها دون أن يتعذر انتزاعهــا عند الحاجــة . حتى تكونت لديه بضــع مجموعــات من هــذه القصاصـــات .

ولقد أدت هذه القصاصات غرضها ، رغم ما يشوبها من عيوب مثل عــدم تجانسها (فهى عمل يدوى وليست عملا آليا) كما انها لا ترتفع الى نوعية ورق التواليت المصنع خصيصا لهذا الغرض .

وسرعان ما أوشكت القصاصات أن تنفد ، فكان لابد لـ « ى »
من البحث عن مصدر آخر .

* * *

وكان ذلك المصدر أو المنجم (كما اطلق عليه) اقرب اليه مما يتصور : يعيش فيه ساعات يوميا لا يدرى أن حوله هذا الكنز الذى ليس عليه الا ان يمد يده ليغترف منه . لقد اكتشف ذات لحظة ان غرفة مكتبه مكدسة بملفات مضت عليها سنوات ، بعضها فى دولاب بجوار الحائط وهى تطل من خلف زجاجه فى كآبة علاها شحوب واصفرار ، ثم نمت فعلت الدولاب وعلاها غبار قلما يهتم السعاة بازالته ، ثم تضخمت فافترش بعضها الأرض . واكتشف ـ فيما اكتشف ـ أن من الممكن أن تحاصره هذه الملفات ذات يوم فلا يجد لضيوفه مكانا . وكانت الادارة فى حاجة الى مزيد من الدواليب لوضع ما يجد من الملفات ، ولكن لا الميزانية ولا المكان يسمحان بذلك . عندئذ أعلن لرئيسه (الذى حماه من تهديده بالنقل) أنه اكتشف حلا عبقريا لما تعانيه الادارة من ازمة . ما عليه الا أن يجرد دولابه ويستغنى عن كل أوراق مضت عليها سنوات . وليس من المحتمل الرجوع اليها . بذلك تجد الملفات الجديدة مكانها دون ارهاق للميزانية المتواضعة .

ورآه زملاؤه ذات صباح وهو ينفض الغبار عن هذه الملفات ثم وهو يجردها . وعندما عرفوا هدفه المعلن ـ الذى افصح عنه لرئيسه ـ حمدوا له هذه المهمة . وعندما عرضوا عليه معاونته أبى الا أن يقوم بها وحده .

بدأ أولا بما انتشر من ملفات على الأرض وهو يعلن قائلا :
فلنوسع على انفسنا ، الغرفة ضيقة ونحن نتزايد كل يوم ، والبركة فيمن ينافسون او ينافسن الأرانب . فلماذا تزاحمنا هذه القاذورات ؟ مكانها سلة المهملات . لكنه بدلا من أن يلقيها في سلة المهملات أو يدع تلك المهمة للسعاة . مضى يقلبها ورقة ورقة معلنا انه سيحتفظ بما قد تحتاج اليه الادارة يوما ما . ويأتى موعد الانصراف فلا ينصرف مع المنصرفين ؛ مما جعل زملاءه يثنون على — وبعضهم يستريبون في — هذا الاخلاص غير المعهود فيه . فاذا ما انصرفوا كان كل همه أن يبحث عن نسخ ورق الرز الخفيف الشفاف ينحيه جانبا بينما يلقى بقية المحتويات في سلة المهملات . فاذا تكونت لديه كمية تكفى لحشو حقيبته الجلدية المنتفخة تسلل من باب الادارة وهو يقول في نفسه ليست هذه سرقة ؛ فتلك اوراق مصيرها الحرق أو يبيعها السعاة لبائعى الروبابيكيا ، وأنا سأستخدمها فيما هو أجدى فضلا عن افساح المكان في الادارة لما يجد من اوراق . ولقد قرات أن الدول المتقدمة تستخدم مثل هذه المهملات في صناعات تعود على الناس بالفائدة ؛ فلأبدأ أنا بذلك في بلدى .

وهكذا وجد « ى » مصدرا بديلا لأوراق التواليت . وكان هذا النوع من الورق أقرب من سابقه الى ورق التواليت وان لم يكن في نعومته . وعندما تبخرت الملفات الأرضية بدأت تتآكل تلك التى فوق الدولاب . حتى اذا انتهى منها بدأ يخرج أحشاء الدولاب ، وهى ملفات أحدث ربما تطلبت الحاجة الرجوع اليها ، غير انه كان يقول : هذه الأوراق الشفافة مجرد نسخ أكثر عرضة للتمزق بحكم أنها اوراق ضعيفة ، اما الأصول المكتوبة على ورق أكثر سمكا وتماسكا فما تزال محفوظة . وفى كل مرة يحمل

كمية يحس بفرحة تغمره كانما انتصر فى معركة كان مهددا فيهـا بالهزيمة ، فرحة اشبه بتلك التى غمرته يوم عثر ـ منذ سنوات ـ على اللفتـين الأخيرتين من ورق التواليت ، فى الدكـان المنزوى المتهـالك .

فلما أوشك المنجم على النفاد بدأ فكره يعمل بسرعة ولكن عبثا هذه المرة . فلما نفد المنجم تماما واعيته الحيل ، عـاد مرغما الى استخدام ورق الصحف ، فكأنه يعود الى استخدام القلة بعد استخدام الثلاجة الكهربائية ، او وابور الجاز بدلا من البوتاجاز ، او الطشـت بدلا من البانيو .. وبعودتـه الى اسـتخدام ورق الصحف عاد الى قراءة مزقه المسلية :

حضرة صاحب الشقة

.. الدنيا بتغير فروق الناس ..

.. ان يكون بيكا أو باشا

حضرة صاحب المعالى أو حضرة

صار هـدف الانسان الأخير

حضرة صاحب الشقة ، تركزت

خلو أو بخلو معقول ، صار

. ...

وتبين من التحقيـق

والثانى قد جندهمـا

تخصص فى اصطيـاد

ضـــابط المخـابرات

احداث اكبر قدر ممكن

المتفجرات لعدة ايام

وقد عـلق اللواء ...

وفجـاة وجد الحل .

* * *

سمع أن هناك فى أول شارع الجيش ـ وبالقرب من ميدان العتبة الخضراء سرة القاهرة ـ سوقا لمختلف أنواع الورق . واقبل فى سيارة أحد زملائه بالعمل حتى وجدا لها مكانا قريبـا تقف فيه ، ثم ترك زميله ينتظره وهبط يسأل عن مكان السوق ، وسرعان ما وجد من يتطوع لارشاده . كانت طرقا قديمة ضيقة ، لكنهـا عامرة بالدكاكين الصغيرة والكبيرة المتزاحمـة عن يمينـه وشماله وقد تكدست بها أنواع الورق . عرج على أول دكان ، لم يكن ينوى الشراء ، لابد أن يعرف الثمن أولا . طلب ورقـا مثل هذا الذى فى يده ـ كانت العينة معه ـ فأحضر البائع له ما يشبهه ؛ جعل يلمس الصنفين بأنامله الخبيرة الآن مقارنا .. الرزمة خمسمائة فرخ بخمسة جنيهات ونصف جنيه ـ لكن هل من الممكن التخفيض .. كم رزمة تريد ان تشترى ؟ واحدة فقط، لا .. عشر رزم للمصلحة .. اذا لأجل خاطرك خمسة جنيهات .. ولكن هـل عنـدك بنى من هـذا الصـنف ؟ .. مجرد عـذر للانسحاب .

اختلط عليه الأمر ، لم يستطع أن يتأكد هل العينة التى امامه هى نفس العينة السابقة . كان لابد ان يحتاط فطلب من البائع ان يعطيه عينة لأنه سيعرضها على المسئولين فى المصلحة اولا قبل الشراء . ضرب بذلك عصفورين بحجر : لم يتورط فى الشراء وحصل على عينة يمكن مقارنتها بما سيعرض عليه من عينات اخرى . واخرج قلما وكتب على العينة سعرها . ثم ودع البائع على امل عودته فى الصباح التالى .

رفض الثالث أن يعطيه عينة كانما قرا ما يجول فى خاطره . وعند الرابع وجد انه أمام نفس الصنف الذى عرضه عليه البائع الثانى لكن سعره ينقص خمسة وعشرين قرشا ، فتوكل على الله ونقده الثمن وحمل الرزمة معه والفرح لا يسعه . لقد اطمأن على نظافة مؤخرته ومؤخرات افراد أسرته ستة أشهر مقبلة .

وفى البيت إعد ادواته : المقص والخرامة والسلك . وانهمك فى العمل . بعد أربع ساعات متواصلة لم يكن قد استنفد من الرزمة الا خمسها . فادرك أن المجهود يجب ان يبذل على مراحل . وهكذا احتفظ ببقية الرزمة فى مكان أمين ، فوق دولاب الملابس فى غرفة النوم ، بينما وضع ما أعده من الرزمة فى صندوق من الكرتون مع بقية ما سبق ان اختزنه من مواد التموين . وكانت كلما أوشكت مجموعة الأوراق المعدة على النفاد تفرغ « ى » يوم اجازته الأسبوعية ليعد مجموعة اخرى .

* * *

ويتقدم « ى » فى السن أصبحت مؤخرته تسرق منه شيئا فشيئا معظم وقته ، فيمضى فى دورة المياه زمنا قد يمتد الى

ساعات فى الصباح ومثلها فى المساء ؛ حتى انه بدأ يتعطل عن اداء مصالحه ويتأخر كثيرا عن موعد عمله مما جعل رؤساءه ينظرون اليه نظرتهم الى شخص مهمل ينتحل الأعذار لاهماله ، وحتى عندما يطلبه صـديق أو شخص اعمل ما فى تليفون بيته فان ابنه يرد بطريقة آلية « فى الحمام » ومعناها انه فى دورة الميـاه ، فقد أصبح الامساك مرضا مزمنا . حتى الملينات لم تعد تجدى كثيرا مما أدى الى انفتاح الجرح القديم المندمل .

* * *

ومع حرصى الكامل على استخدام المطهرات والأدوية القديمة الا أن النزيف استمر ، كما أننى بدأت أحس آلاما خفيفـة لكنها دفينة ومؤكدة فى مؤخرتى ، وأنا رجل شديد الوهم ؛ قلت : هو لاشك سرطان سياكل مؤخرتى ، واذا كنت قد نجوت من شظايا المعركة فى شبابك فلن تنجو من مخـالب السرطان فى شيخوختك ، ولقد كان لنا جار سمعت عن سرطان اكل مؤخرته حتى انهم ركبوا له أنبوبة طبية لتخرج فضـلاته من جنبه الأيسر (لابد أنه كان هناك سبب لتفضيل الجانب الأيسر على الأيمن) ومع ذلك فقد امتد المرض الخبيث حتى أصبح الرجل لا ينام حتى بالمسكنات ، كأن ثمة سباقا رهيبا بين الألم والمخدر ، حتى تغلب الألم على المخدر ؛ ثم تغلب الموت على الجميع .

ذهبت الى جراح عظيم ، خفت أن اتلقى الصـدمة وحدى فلا اتحملها ؛ فتوكأت على صـديق لى ولهذا الجراح . ما ازال اذكر العمارة الفخمة فى قلب العاصمة ، والمصعد النظيف اللامع ، والممر ذا الضـوء الخافت ، والممرض النوبى .. ونحن نستنشق رائحة أقرب الى رائحة المستشفيات . ولم ننتظر كثيرا ، كان ثمة مريض واحد يسبقنا ، وعندما دخلت تخلف صـديقى ، ولابد

أن ذلك كان تحرجا منه أن يرى مؤخرتى . واحسست بالخجل ـ لمدة ثوان ـ وأنا أكشف عن مؤخرتى لرجل غريب ولو كان طبيبا ، وتذكرت تحـذيرات والدى القديمة . كانت أمى فقط هى التى تراها عندما كانت تحمينى فى طفولتى وتضربنى عليها لأتوقف عن الصراخ حين يدخل الصـابون فى عينى . ولابد أن زوجتى رأت مؤخرتى ـ وان كنت لم أسألها عن ذلك أبدا ـ شأنها فى ذلك شأن جميع الزوجات ، أما أنا فقد رأيتها مرات عديدة منعكسة فى مرآة الحمام ، وأحيانا فى مرآة دولاب غرفة النوم محاولا عبثا أن أتبين أى آثار لمـا أعانيـه منها وبسببها . وعندما بدأ الطبيب مهمته أحسست أنه قد أدخل جسما صلبـا ، فسألته بريبـة عما يفعل أجابنى بأنه يستخدم منظارا كهربيا ليتسنى فحصى ، واذا بنوبة ضحك تنتابنى ـ أشبه بتلك التى انتابتنى يوم أخفيت نصفى الأعلى أثناء وقوع الغارة وتركت نصفى الأسـفل مكشوفا لها ـ فسألنى الطبيب عما يضحكنى فقصصت عليه قصة الفلاح الذى كان فى وضع مماثل وكيف ضحك مثلما ضحكت . وعندما سأله الطبيب أجابه : اننى أضحك لأن الكهرباء دخلت مؤخرتى قبل أن تدخل قريتى .. ها ها ها .. هىء هىء هىء .

وقد ذكرته هذه النكتة بنكتة أخرى عن فلاح كان يشكو من مرض البواسـير فنزف ذات يوم ، فمـا كان منه الا أن سـد مؤخرته بقليل من البن المصحون ليوقف النزيف على عادة الفلاحين ريثما يزور الطبيب . وعند الكشف سأل الفلاح طبيبه فى قلق : ماذا ترى يا دكتور ؟ أجابه على الفور : أرى سكة سفر .

(نكتة ثالثة تذكرها « ى » بينمـا كان الطبيب يواصـل فحصـه : كان من تقليد أحد النوادى أن يحرم على أعضـائه ارتياده اذا كانوا من الهيبيز المغرمين باطالة شعور رؤسهم . وكان

بواب هذا النادى ضريرا يستخدم حاسة اللمس فى التأكد من ان رؤوس الداخلين تنطبق عليها لوائح النادى ، غير ان شـابا ممن يطيلون شعور رؤوسهم استطاع أن يتحايل على ذلك البواب ، فقد دخل النادى مقلوبا يمشى على يديه وقد كشف عن مؤخرته التى اصبحت الآن مكان رأسه ، فلما تحسـسها البواب الضرير حاسبا انها راسه سمح له بالدخول وهو يتمتم فى اندهـاش : أعرف أن الذين برؤسهم شعر يستطيعون أن يفرقوه لكن هـذه اول مرة اقابل فيها اصلع بفرق . وقد حكى « ى » النكتـة لطبيبه الذى ضحك حتى ترك المنظار فى مؤخرة « ى » الى أن استكمل ضحكه ثم عاد لمهمته) .

فى نهاية الفحص قال له الطبيب : عندك مبادىء ناسور ، سنحاول علاجك أول الأمر بالمضـادات الحيوية فاذا لم تفلح فلا مفر من اجراء جراحة والا امتد وتشعب ، وأعطاه مرهمـا للتخدير ومطهرت وامره بعمل حمام مائى دافىء لمؤخرته به مطهر وذلك عقب اخراج فضـلاته كل يوم . ولـما كان « ى » حريصا على الشفاء فقد سارع باستخدام العـلاج بكل دقة : بعد العشاء يتجرع ملعقة كبيرة من زيت البرافين المقزز المذاق يلتهم بعدها مباشرة قطعة او حبة من اية فاكهة حتى يتلاشى هـذا المذاق المقرف ، وقبل النوم يدهن موضـع الألم بالمرهم . فى الصباح يقوم بعمل الحمام الدافىء يغمر فيه مؤخرته .. المفروض عشر دقائق ، لكنـه لا يصبر ، يكفى خمس دقائق يدهن بعدها بمرهم آخر ، هـذا الى جانب تناوله مضـادا حيويا حبة كل ثمـانى ساعات .. حتى تحسن الناسور ، وحسب « ى » انه شفى تماما منه . غير انه ما لبث أن تبين أنه كان واهما .

وكلما تقدم « ى » فى السن اصبح شعوره أكثر تبلدا ، ومؤخرته اكثر حساسية . فحوادث الاختلاس والرشوة التى تفيض الصحف بذكر تفصيلاتها واكوام الزبالة ومستنقعات المجارى التى اخذت تنتشر فى شوارع العاصمة : لم يعد شىء من هذا كله يثير اشمئزازه . وكان يظن انه قد تأقلم حتى يستطيع ـ فى مثل سنه ـ أن يواصل الحياة : فيعود الى منزله ، ويجلس لتناول طعامه بشهية ملحوظة ، وفى الليل يستغرق فى نوم عميق لا يؤرقه شىء ، غير انه ما يلبث أن يصحو بعد ساعة او ساعتين على نقح شديد فى مؤخرته : كأنما الناسور يحتج على ما لم يحتج عليه فكره وشعوره . وهو لم يربط بين العلة والمعلول الا بعد ان تكرر حدوثهما الواحد تلو الآخر : فادرك مدى الألم الذى سيلاحقه ويتحمله طالما اختلس زيد وارتشى عبيد : وطالما ظلت اكوام الزبالة موائد شهية لذباب العاصمة ومستنقعات المجارى معامل تفريخ للبعوض والهوام .

وعندما قصد الطبيب مرة اخرى اخبره ان الناسور للأسف قد توغل وتشعب ولابد من اجراء عملية جراحية للحاق به . ولقد اجرى اكثر من عملية ، كأنما ثمة سباق بين الناسور والطبيب ، غير أن الناسور كان أسبق فى كل مرة . وكانت حساسية « ى » قد ازدادت ـ أقصد حساسية مؤخرته ـ لكل ما يثيره فى حياته الخاصة والعامة . حتى توغل الناسور واصبح عسير الاندمال لا يستجيب للمضادات الحيوية . لقد توحش الآن واصبح غير قابل للترويض .

حتى لقد شوهدت ذات صباح ديدان رفيعة تلغ فى البؤرة الصديدية على الحافة تماما ومن الناحية اليسرى بحيث يمكن رؤيتها بالعين المجردة . كانت فى قصر ديدان المش التى كان

يرقبها « ى » فى طفولته وهى تنحنى على نفسها مكونة نصف دائرة لتقفز على ارتفاعات غير متوقعة ؛ ولكن هذه الديدان كانت ارفع منها كثيرا ؛ ربما فى سمك شعرة الراس . وكانت الآن تسبح فى الصديد وهى تتلوى بطريقة لم يستطع الطبيب نفسه أن يحدد ما اذا كانت تتلوى من شدة الألم أم ترقص من شدة الفرح . ورغم استخدام المطهرات فقد كانت عفونتها ذات رائحة تثير الغثيان .

وكان الجرح الآن قد انتقل الى مرحلة لم يعد يؤلمه فيها . لكن شيئا ادهى كان يحدث . كان يحس كأنما هناك دبيب خفى ؛ لعلها تلك الديدان الشعرية اللعينة وهى لابد الآن تلاعب بعضها بعضا . وكانت أقدام النمل ، عشرات النمل ، مئات النمل ؛ آلاف النمل ، تذهب وتجىء بلا انقطاع ، مما يغريه أن يحكها باظافره التى طالت لكى يسحقها مرة واحدة والى الأبد . لكنه لا يلبث أن يرد يده عندما يتبين أن اظافره لن تغوص الا فى جرح متعفن يصدها عنه شاش وعليه ضمادات تحول بينه وبين اظافره . وكان النمل مصرا على مواصلة مهمته فى جدية وبلا انقطاع ، مما حرمه النوم تماما فى فترات قصيرة كان يغلبه فيها الارهاق فيغفو ، غير أنه ما يلبث أن يصحو ليجد النمل ما يزال يدب هذا الدبيب الخفى المتواصل المثير وهو أعجز من أن يتدخل لافشال مهمته .. لبعثرته ؛ لاغراقه ، لاحراقه .. كما كان يفعل فى طفولته كلما رأى أحد تجمعات النمل فى مطبخ بيتهم أو حديقته .

فى طفولته كانت مؤخرات القرود تضحكه ؛ وفى مراهقته كانت مؤخرات السائرات تفتنه وتسكره . (ولا يزال يذكر تشبيها أعجبه عن احدى الممثلات وهى تسير : ... فكأن مؤخرتها جوال بداخله قطتان تتشاجران أو تتلاعبان) . أما فى كهولته فقد أصبحت مؤخرته ــ وكل المؤخرات ــ تفزعه .

ثم حدث تطور آخر أكثر خطورة ، اذ يبدو أن « ى » قد أصيب بتصلب مبكر فى الشرايين ، فضعفت سـيطرته على معظم وظائفه الحيوية. ضعفت سيطرته على حفظ توازنه فكان يرى وهو يسير مندفعا للأمام كانمـا يوشك ان ينكفىء على وجهـه ، وقد قصرت خطواته وتقاربت قدماه حتى وقع فعلا ذات يوم بكل ثقله مما أدى الى اصابة مفصل فخذه الأيسر اصابة جعلتـه فى حاجة الى أن يتكىء على شخص آخر اذا هو حاول التحرك ، فضـلا عما تسببه له تلك الحـركة من آلام مهولة خفت حدتها فيما بعد وان لم تزل تماما ؛ أما ما أصيب به وجهه من كدمات وسجحات فقد اختفت آثارها بعد أيام . كذلك فقد السيطرة على وظيفتى الاخراج حتى لكأنما ارتد طفلا فى حاجة الى من يغير له ملابسـه السفلية تغييرا متلاحقا ؛ ومع ذلك فقد كان دائم الحـركة من والى دورة المياه ، غير أنه ما يكاد يصل اليها ــ وحتى قبل ان يصلها ــ وهو متكىء على ذراع زوجته أو من تبقى فى البيت من أبنائه وبناته حتى يكون قد لوث ملابسه ولوث الجرح . ورغم أن الجميع قد شـاركوا فيما تتطلبه هـذه الحركة البندوليـة العبثية من جهد الا أن زوجته ــ رغم كبر سنها ــ هى التى تحملت العبء الأكبر سـواء فى تلك الحركة ، أو ما يترتب عليها من تنظيف وغسيل وتطهير متواصـل . أما « ى » فكانت تبدو عليه البهجة لأنه ــ وهو الذى عانى الامساك طويلا ــ قد وجد فى هذه السيولة من مؤخرته حلا لمشكلته المستعصية المزمنة .

ولقد امتد ضعف السيطرة عنده الى ذاكرته ، مما ترتب عليه أن تبادلت الأزمنة مواقعها ، فارتد الحـاضر الى المـاضى بحيث أصبح كأنه مجرد ذكريات باهتة بينما أصبح المـاضى شـديد الحضور امامه .. فى بداية القرن المـاضى تم اعدام سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية على مصر بعد نابليون ،

وكان اعدامه على الخازوق فى يوم الثلاثاء ٢٥ محرم سنة ١٢١٥هـ الموافق ١٧ يونيو سنة ١٨٠٠ . وفى مدينة ديترويت الأمريكية اعلن زواج الرجلين هرمان دونالد ونورمان جيمس ، وفى لندن قام الشواذ بمظاهرة يطالبون فيها باقرار حقوقهم قانونا ووافق البرلمان البريطانى على مطالبهم ، وفى نهاية الأربعينيات من القرن العشرين شاع فى مصر أن الحكومة ترهب معارضيها بالعسكرى الأسود ، وهو فى حقيقته عسكرى اسمر من قنا اشيع انه على استعداد للتعامل مع مؤخرات المعتقلين السياسيين اذا هم أصروا على انكار ما نسب اليهم من اتهام . وفى اليابان أعلنت احدى الشركات عن بيع نوع جديد من ورق التواليت وقد طبع على كل جزء صغير فيه ست كلمات انجليزية مع ترجمتها باليابانية وطريقة نطقها .. وقد أعلنت الشركة التى قررت مساعدة اليابانيين على تعلم الانجليزية بهذه الطريقة انها سوف تصدر اثنتى عشرة مجموعة من ورق التواليت التعليمى كل شهر وقد جاء قرار الشركة تنفيذا لتوصيات المؤتمر الذى نظمته رابطة المراحيض اليابانية بمناسبة اليوم العالمى للمراحيض ، حيث اجتمع الف خبير عالمى فى مدينة كورايوشى . وكان الموضوع الرئيسى للمؤتمر ايها أفضل : المرحاض الوطنى الحفرة أم المرحاض ذو القاعدة المستورد مع الغزو الحضارى الغربى . فاليابانيون يستخدمون المراحيض الوطنية الحفرة ويدافعون عنها بدعوى أنها اكثر صحية ، بينما يرى المعارضون أنها تمثل صعوبة بالنسبة للعجزة والمسنين ، كما اعلن خبير من كوريا أن جلوس القرفصاء فى المرحاض التقليدى يجعل من المتعذر على المرء أن يقرأ أو يفكر بشكل جدى . وقد انقسم المؤتمر الى اربع لجان كانت رؤوس موضوعاتها التى بحثتها : المرحيض والسفر ، المراحيض والتعليم ، المراحيض والمستوى الحضارى للمجتمعات ،

المراحيض والبيئة . ويرأس رابطة المراحيض اليابانية أستاذ متخصص فى علم المراحيض ، كما تحظى الرابطة بدعم من شركات المراحيض العامة والخاصة . وقد أحيا عقد هذا المؤتمر ذكرى ما وقع من تطور حضارى لمؤخرة « ى » عندما انتقل من استخدام المرحاض الحفرة الى استخدام المرحاض المقعد ، وأن ذلك التحول لم يكن بمعزل عن تطورات حضارية اخرى لعصر أفل وعصر بزغ .

وفى سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية صنع سيدنى موبل ملك تجارة المجوهرات العالمى مرحاضا خاصا تكلف ربع مليون دولارا مصنوعا من الذهب الخالص ومحلى بالماس ؛ وأمام الجالس عليه لوحة من لوحات الفنان الفرنسى تولو لوتريك . وجاء فى قضايا التعذيب أن السلطات كانت تعذب ضحاياها بنفخ بطونهم عن طريق مؤخراتهم فتتعلمب الضحية عذابا لا يطاق دون أن تظهر عليها اية آثار .. وفى يوم الخميس ١٣ مارس عام ١٩٨٠ انفجرت الماسورة الرئيسية لطرد المجارى من القاهرة الى الجيزة الى أبو رواش والمناطق التابعة لها ، وترتب على الانفجار عدم سحب مياه المجارى مما ادى الى طفحها على هيئة نافورات أطاحت بأغطية المجارى بجميع الشوارع الرئيسية والفرعية ؛ وأغرقت مناطق الجيزة واحمد عرابى ومدينة الصحفيين وميت عقبة وامبابة وبولاق الدكرور وزحفت على عدد كبير من المنازل حيث ارتفع منسوب الطفح الى أكثر من متر تقريبا ، كما ترتب على الطفح تعطيل المرور فى عدد كبير من الشوارع الرئيسية والفرعية ، ولم يستطع سكان تلك المناطق الخروج أو العودة الى منازلهم .

وكان المسجونون فى مصر ــ وربمــا فى غير مصر أيضــا ــ يهربون الممنوعات فى خوابير من البلاستيك فى فتحات مؤخراتهم بكميات مذهلة اذا قورنت بالسعة المفترضة لتلك الفتحات . بينما أعلن أحد مصــانع الكراسى فى الصحف والاذاعــة والتليفزيون مخاطبا عملاءه « ان انتاجنا هو الأكثر راحة لمؤخراتكم » . ونشرت احدى شركات الطيران الفرنسية مائة وضع لمؤخرة عارية معلنة ان مقاعد طائراتها لا تشوه جمال مثل هذه المؤخرة .

وكانوا يسمعونه يتســاءل من ذا الذى يستطيع أن يقوم بتحويل بقايا الرزمة التى اشتراها الى ورق صالح للاستعمال ؟ فكانوا يطمئنونه أنه حولها كلها وأنه لم تعد هناك بقايا ، كما أن ورق التواليت قد عاد للظهور فى الأسواق .

عندئذ أحس « ى » انه قد ادى مهمته ، فوجدوه ذات صباح راقدا فى فراشه باردا بلا حراك . فبكته زوجته وأولاده .

وقد عثروا فوق الكوميدينو بجوار سريره على ورقة مكتوب فيها بخط يده مطلع اغنية يبدو انه كان قد انتوى تأليفها ــ مع انه لم يعرف عنه أن له اية علاقة بتأليف الأغانى ــ وكان نص هذا المطلع :

مؤخــرتى مؤخــرتى

معــذبتى مطهــرتى

غير انه فيما يبدو لم تتح له الفرصة ابدا لاكمالها .

وعندما اقبل المغسل ليقوم بمهمته ويضع قطعة صغيرة من القطن يسد بها مؤخرته ، هاله أن يرى منظرها المشوه وأن تنفحه

وأنحتها العفنة . فاكتفى أن يسترها بجزء من قماش الكفن ؛ واضعا بذلك نهاية لتاريخها الحافل .

* * *

مؤخرة القصة : روى البعض أن آخر ما فاه به الفقيد كانت هذه الكلمات : اخر تاخريتاخر تاخيرا اخيرا آخرا فهو متاخر فى المؤخرة . وقد ذكر الرواه انه نطق بهذه الجملة عشر مرات بسرعة أخذت تتزايد حتى تلاحقت الكلمات واندمجت واختصرت فى النهاية فى ثلاث حروف كان اظهرها الخاء يليها الراء فالهمزة . وقد أجمع المفسرون على انه من الواضح انه استلهم هذه الجملة البالغة البلاغة من هذا الجزء او الموضع او العضو الذى كان ينتمى ــ ولا ينتمى ــ الى جسده ، والذى نغص عليه حياته ، وسبب مماته . غير أنهم اختلفوا بعد ذلك فى قيمتها ، فبينما يرى البعض انها مجرد هذيان محموم ، رأى البعض الآخر انها حكمة نطق بها مريض على فراش الموت أو ــ على حد تعبير بعض المفسرين ــ انسان أوشك ان يلاقى ربه ، يعنون بذلك أنها كلمات قيلت فى لحظة حرجة تتطلب الصدق ــ والله أعلم .

مابعد المجموعات

الانتقـــام

فى الصباح ادرك أن ناقته فى حالة هياج . عودها أن تشترك معه فى تدخين سجائره . لابد وأن الأمر بدأ مجرد صــدفة غير مقصودة ، ربما وقف ذات يوم يدخن احدى سجائره بجوارها ، تصاعدت لفائف الدخان ، عبق الجو بها ، تسللت الى خياشيم شراره . لم يتنبه حمدان الى مشاركة ناقته له فى دخان سجائره الا حين رآها تقترب متهادية منه ، كلمـا أشعل سيجارة تقف بجواره فى هدوء ـ وهى التى تغلب عليها الشراسة ـ تمد رقبتها نحوه ؛ تكاد تلتصق بوجهه المعفر برائحــة دخانه . اذا ابتعد عنها خطوات اقتربت منه خطوات .

منذ شهر شعر باختناق فى صــدره ، بعدها بأيام ، تحت الحــاح ابنه الأكبر هديب الطالب فى المدرسة الثانوية المفتتحــة حديثا ، اصطحبه الى طبيب الوحدة ، أعطاه بعض الأدوية وكثيرا من النصــائح ، اشدها قسوة أن يمتنع عن التدخين . لم يمتنع عن التدخين .

منذ يومين اشتد الألم ، عاتبه ابنه ، جرؤ أن يخفى عنه سجائره . انتابه ـ كما انتاب شراره ـ الضيق ، ظهر زبدها ،

قلّ رغاؤها وطعامها ، تطالبه بما حرم وحرمت منه . أجبرها أن تبرك ، ركبها أملا فى أن يركض بها فتنهد قواها وينفثىء غضبها ، حاولت اسقاطه لولا مهارته فى الامساك بخطافها ، مجنونة هى ، قفز مخاطرا من فوقها . فى ثورة غضبه منها وعصبيته لاعتلال مزاجه ساطها فى عنف مرتين على رقبتها . لمح بريق الغضب فى عينيها . حاول أن يصالحها ، أسرع يقدم لها تمرا .. عسلا .. لبنا . كل هذا لم يكن ليرضيها . عليه اذن أن يتخذ الحيطة من غدرها ، خبير بطبائع الجمال ، لاسيما مع شراره . أطلق عليها هذا الاسم لشراستها على غير عادة النوق ، طباعها اقرب الى طباع الفحول .

فى الليل لم ينم فى خيمته ، كوم مكان رقاده خرجا كان ملقى فى ركن الخيمة ، ومنسوله أو غطاءه ، وبعض زرابيله المصنوعة من صوف الغنم يضعها فى قدميه حماية من سخونة الرمل وزواحفه ، حتى بدا كأنما هو ممدد على فراشه . قرر أن يبيت فى خيام أبناء عمومته .

فى صباح اليوم التالى قصد مباشرة الى خيمته متسلحا ببندقيته ، وجد شراره ــ كما توقع ــ قد بركت بكل ثقلها على خيمته ، سوتها بما حولها من رمال .

برقبتها المشرئبة ، وعينيها المدهوشتين ، لمحته مقبلا فى عنفوان حيويته . تأهب لأية مفاجاة . اشرع مزلاج بندقيته .

فجأة ــ وعلى غير توقع ــ لمح رقبتها تسترخى ، عينيها تنطفئان ، لابد وأن رؤيته سممت بدنها .. ، جسدها يفترش الخيمة ، الخيمة تفترش الرمال ، تزداد التصاقا بها .

فى حذر اقترب ، أكثر واكثر اقترب ، لا حراك .. أصبحت جثة ــ صعقتها حركته ــ ما تزال دافئة .

الثور شاهين يعتزل

وصل سالم يقود ثوره شاهين الى حلبة المناطحة فى « بركاء » .

شمس الصيف كانت قد انكسرت حدتها بانكسار النهار ، المتفرجون ـ شيوخا وشبابا وأطفالا فى دشداشاتهم الفضفاضة البيضاء ومصرهم أو كميمهم المزركشة فوق الرؤوس ـ افترشوا الأرض على شكل حلقة متسعة حول ارض ترابية رملية . بعض الصغيرات احتللن ـ فى ثيابهن الملونة ـ اسطح السيارات فى مربضها المطل على الساحة . الأجانب اقبلوا من العاصمة مسقط من على بعد بضع عشرات الكيلو مترات ، وقفوا يحملون اطفالهم فوق أعناقهم ، نساؤهم بجوارهم يحملن كاميراتهن المتاهبة ليسجلوا اللعبة . لعبة يشاهدها الجمهور مجانا ، لا مكافأة فيها للمسئولين عن ادارتها ، لا جوائز لمن يفوز الا الزهو والكبرياء للثور وصاحبه ، حتى التصفيق لا يناله ، فرجولة العمانى الا يظهر انفعاله لا فرحا ولا حزنا . فى مكان بارز من الساحة جلست لجنة التحكم : شيخ وقور تحيط به مجموعة من الرجال تكسو وجوه معظمهم لحى بيضاء أو شابها البياض .

الثيران تكون شبه حلقة داخل الحلقة . أصحاب الثيران أو خدمهم جاءوا مبكرين فجلسوا أو وقفوا متناثرين فى الصفوف الأمامية . الثيران مشدودة الى أرسنتها المثبتة بأوتاد الى الأرض. بعضها يخور ، وبعضها ـ مثل الثور شاهين ـ يقف صامتا فى انتظار بدء مباراة له بها خبرة سابقة . فكر سالم : ترى هل يدرك الحيوان الزمن الماضى والمستقبل ؟ هل يدرك شاهين من خبرته السابقة كلما جاء الى هذه الحلبة أنه على وشك المناطحة مع ثور آخر ، أم انه لا يدرك الا اللحظة الحاضرة ، ولن يعرف انه على وشك المناطحة الا عندما يجد نفسه وجها لوجه مع الثور الآخر ؟ .. امس فقط أعلنت نتيجة امتحانه . تخرج من قسم التاريخ بكلية الآداب بالجامعة . أمامه بعض الوقت للالتحاق بعمل . هذه أول مرة يصحب فيها شاهين وحده . والده تخلف عن الحضور اليوم وسيتخلف الى الأبد . ملكيته اليوم كاملة للثور ؛ لا ينازعه فيها أبوه . ترى هل يقبل الثور تغيير المواقع ؟ ذهب أبوه الى الحج ، شهرا غاب ، عاد ليعلن :

ـ مناطحة الثيران حرام .

ـ هذا تراث أجدادنا ، محافظتنا عليه محافظة على هويتنا التاريخية .

ـ المناطحة يا ابنى كانت أصلا على نطاق فردى لاختبار قوة الثور عند استخدامه فى رى الأرض أو حرثها وتسويتها .

ـ ثم تطورت الى هذا الشكل الجماعى . انقرضت العلة يا أبى واستمر واستقل المعلول .

ـ لكن الله سبحانه وتعالى لم يخلقها لهذا .

ـ بل هو ترفيه عريق ، أفضـل من مسلسلات التليفزيون اليـوم .

ـ ترفه عن نفسك بمناطحة ثورين لا حيلة لهما ، وتقهقه عندما يطعن احدهما الآخر بقرنه المسنون ؟

ـ أفضل من مصـارعة الانسان للثيران فى بلاد الأسبان .

ـ بل مظهر من مظاهر وحشية الانسان يعدى بها الحيوان.

ـ بل آخر معاقل الثور بعد ميكنة الزراعة ، لولاها لأصبحت حدائق الحيوان مأواه الوحيد لا يتعرف الأطفال عليه الا فيها .

ـ يهديك الله يا بنى .

هـكذا أصر سـالم على اصطحـاب شـاهين الى ساحـة المناطحـة ـ لأول مرة ـ من غير أبيه شـاهين ثور يجمـع بين الشجاعة والكبرياء ، والذكاء بالنسبة لغيره من الثيران . يقترب فى ألفة من أفراد الأسرة الذين يتعاملون معه ، يتحسسهم بأنفاسه، يتعرف عليهم ـ فى مقدمتهم الصغار ـ دون أن يمسهم بسـوء رغم قرنيه البارزين مهما شـدوا ذيله أو امتطوا ظهره . تلك احدى عاداته التى ألفوها منه منذ اشتراه الوالد عبد الله عجـلا صغيرا لا يتجاوز السنة ونصف السـنة . لكنه خطر شرس مع الذين لا يتعاملون معه مثلما كان مع سـالم حتى وقت قريب . دراسته كانت تشغله عنه حتى وصل الأمر الى محاولة نطحه حين لم يتنبه ذات مرة الى انه اقترب منه أكثر مما يجب . لم يتميز فقط بانه لم يهزم أبدا ، بل اشتهر كذلك بحركاته الاستعراضية تضفى على انتصاراته اثارة تضاعف من جمهور الحلبة ، وتدفع الناس الي استعادة مشاهدته فى شريط الفيديو بالسهرة التى

يقيمها الشايب عبد الله فى بيته مساء يوم المناطحة ، وتجعله حديث « بركاء » فى اليوم التالى .

الشايب عبد الله هو الذى دربه على المناطحة فى تلك السن المبكرة ، يربط راسه الى راس ثور آخر مدرب على المناطحة من قرونهما : يحاول الثور المدرب مناطحة شاهين ، يضطر شاهين الى مقاومته بمناطحة مماثلة .. هكذا تدرب يوماً بعد يوم حتى اذا ما واجه ثورا آخر دون رباط بينهما بادر الى مناطحته .

حرص الشايب عبد الله على شراء هذا الثور برغم ارتفاع ثمنه ـ الف ريال عمانى منذ سنوات خمس ـ لأنه من سلالة عمانية اصيلة اشتهرت بالمناطحة أبا عن جد ، له أخ مشهور بالمصارعة فى منطقة فلج القبائل . أطلق عليه اسم شاهين لأنه من أسماء الصقر المعروفة ، تيمنا بأن ينقض على منافسه انقضاض الصقر على فريسته .

الشايب عبد الله هو الذى يقدم له الوجبات الرئيسية الثلاث : الافطار برسيم أو قت مع التمر ، والغداء برسيم . أما العشاء فطالما تأمل سالم اباه وهو يضع نوى التمر فى الماء ، ثم يغلى الماء على النار نصف ساعة ، يلين النوى ، يطفىء النار ، يتركه يبرد .. يقص البرسيم قطعا صغيرة صغيرة ويخلطه مع النوى المطهو مع قليل من السمك المجفف مع الماء . يقدمه لشاهين فيلتهمه بشهية ملحوظة . يكلفه ذلك ثلاثة ريالات عمانية كل يوم . قبل اسبوع المناطحة يقدم له وجبة رابعة فى الضحى من السردين تمنحه قدرة أكبر للدفاع عن النفس بل للهجوم .

الحاج عبد الله امتنع هـذا الأسبوع عن تقديم تلك الوجبة الرابعة . قام سالم بتقديمها لشاهين . كما سقاه ـ لأول مرة وحده ـ السمن البقرى . ربطه من مقوده الى جذع شجر السدر العتيقة ـ كما كان يشارك اباه فى مرات سابقة ـ راس الثور الى اعلا ، الزجاجة المملوءة سمنا معدة : صب نصفها من احدى فتحتى منخار الثور ، نصفها الآخر من الفتحة الثانيـة . كان واضحا ان الثور معتاد على تلك الوجبة الدسمة بعد أن سبقت ذلك محاولات تطلبت مجهودات شاقة على تدريبه كان معظم السمن يتدفق فى أولها منسكبا على الأرض . سال اياه ذات يوم :

ـ لمـاذا لا تعطيه السمن من فمه ؟

ـ لأنه قد يكسر البوطلة بأسنانه .

اليوم ضمروا شاهين : فرضـوا عليه الصـيام ، لم ياكل شيئا من الصباح . تلك قاعدة أخرى من قواعد اللعبة . سبق أن فرضوا عليه صياما دائما آخر ، حرموه الا يقرب انثى حتى يختزن بذلك حافزا قويا يدفعه الى المناطحة . فى الصـباح قام سالم بتبرية قرنيه ، اصبح سلاحا مسنونا حادا ضد الخصم .

سالم واثق الآن من انتصار ثوره . قام عقيد المناطحـة بمساماته بالثور نصر ، ثور من نفس الحجم والسـن والارتفـاع بل والقرون . لشاهين صولات وجولات سابقة فائزة مع اكثر من ثور .

الثيران العمانية الأقل حجما تتم مناطحتها الآن ، تتحمل شمس ما قبل الخامسة مساء . عقيد المناطحة ينادى أخيرا على شاهين ونصر . فك سالم رسن ثوره ، ربت على بشرته وهو مايزال

ممسكا برسنه في يده ؛ يتقرب اليه لعل الأمور تسير على ما يرام كما لو كان الوالد موجودا ، ما لبث ان اطلقه في اتجاه الحلبة الترابية . نصر مقبل من الاتجاه الآخر ، تقابل مع شاهين وسط الحلبة . كل منهما يحفر الأرض بقرنيه وقائمتيه الأماميتين مستعرضا قوته ومثيرا سحابة كثيفة من الغبار خلفه تهيؤا لمنازلة خصمه .

على عكس ما توقع سالم ، شاهين ما لبث أن توقف عن حفر الأرض كأنما تذكر شيئا . وقف وسط الحلبة فى بلادة كأن الأمر لا يعنيه ـ يتلفت حوله .. يتفحص الجماهير التى أقبلت للفرجة . هل كان يبحث عن صاحبه الشايب عبد الله بينهم ؟ الثور نصر يستفزه ، يحوم حوله ، يتجه نحوه ، يهرول قريبا منه ليستكشف رد الفعل . الثور شاهين مشغول تماما بشيء آخر ، منازلة خصمه آخر اهتماماته ، يبدو عليه الاكتئاب كأنما فقد الاتجاه . وضح للجميع أنه عازف عن المناطحة ، سيفوت عليهم فرصة الاستمتاع بشوط شيق من أشواط المناطحة اعتادوه مع شاهين .

الحكام يستثيرونه ، يهيلون بعض التراب الخفيف أمامه ، يمسك آخر منافسه الثور نصر بحبل ، يتجول به فى حلقة دائرية حوله . كل هذه المحاولات لم تفلح . بدا شاهين مرتبكا كطفل تخلت عنه أمه .

ما حدث من شاهين ليس غريبا على ساحة المناطحة لكنه غريب على شاهين . طالما أحجم ثوران عن المناطحة ، أو هرب أحدهما من الساحة رغم انتصاراته السابقة . حالة مزاجية تنتاب الكائن الحي لا يمكن التنبؤ بها . هل امراض شاهين اليوم

بتسبب غياب الوالد أم نوبة من هذه النوبات ، حدوثها أليوم مع غياب صاحبه مجرد صدفه ؟ سالم لا يعرف على وجه اليقين .

فجأة ـ ودون توقع وان كان أمرا متوقعا ـ هجم الثور نصر على شاهين يبحث عن نصر رخيص ، شاله من جنبه الأيمن بقرنه الحـاد المسنون . نزفت دماء شاهين حمراء قانية تنتشر على جلده اسفل البطن ، تتجمع فى قطرات ، تسـقط .. تلون التراب والرمل بلون داكن يتخذ مسار شاهين وهو يرغم على التقهقر بلا انتظام ثم العدو هربا من منازلة فرضت عليه . ذلك كله لم يستغرق أكثر من دقيقتين . عقيد المناطحة امر القباضة بالقبض على الثورين قبل أن يعدو أحدهما فى اتجـاه متفرجين فزعين لا يحميهم ولا حتى سور منخفض من ثور جريح مذعور وآخر اسكرته نشوة النصر . تقدم فريقان كل منهما مكون من ستة من اشـد الشباب واسرعهم عدوا ، ثلاثة من كل فريق القوا حبلا حول الساقين الخلفيتين معا لكل من شاهين ونصر لعرقلة حركتهما ، الثلاثة الآخرون من كل فريق أمسكوا بذيل الثورين ، تعـاون كل فريق على شـد ثوره نحوه ، لم يلبث الثوران ان استسلما . احيل التراب على ظهر نصر اعلانا عن فوزه ، وبشرى لصاحبه ، ومنعا للحسد .

سالم فاض قلبه ببكاء متجمد ، الهزيمة هزيمته : عرض ثوره لموقف ندم عليه . يعتذر لكل من أتاه مستفسرا أو مواسـيا أو متشفيا :

ـ شاهين لم يهزم ، لم يناطح اصلا .

سامعه يكتشف أن صوته يكاد يختنق .

مهمته الآن أن يعالج ثوره من جروحه الجسمية والنفسية . شاهين يبدو عليه الانكسار ، كيف يرفع روحه المعنوية ؟

الشمس مالت كثيرا نحو سطح البحر والتهب قرصها . اصطحب ثوره اليه ، هبطا معا فى المياه الباردة المالحة لقتل سموم الجرح ولاعادة نشاط ثوره الذى فقد حيويته . عندما عاد الى البيت غسل جروح ثوره بالمطهرات : ديتول ثم يود .

نبأ الهزيمة طار الى الحاج عبد الله . عندما التقى بابنه قال مؤنبا :

ـ لم تسمع كلامى ، قتلت شاهين .

ـ لا تؤاخذنى يا ابى ، بل انت الذى قتلته بعدم خروجى معه .

ـ لماذا اخذته ؟

ـ لم يكن له عمل آخر .

ـ كنا نبيعه .

ـ من يشتريه لن يحلبه او يذبحه .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اقصد انه لن يشتريه الا للمناطحة ، فماذا فعلنا ؟

سالم حاول عبثا أن يقدم لثوره الغبار . وجبة العشاء الدسمة ؛ بعد صيام دام طوال النهار وتعرض لارهاق لا مثيل له . لم تبد على شاهين اية شهية للطعام . سالم نفسه لم يدخل فمه فى تلك الليلة الا الماء القراح . لحق به عار لا يمحوه الا انتصار ولو بثور آخر يشتريه مهما كلفه ذلك .

الحزن هو الشيء الوحيد الذى يولد كبيرا ثم يصغر . لكن سالم لم يكن فى الصباح التالى اكثر نجاحا مع شاهين . اصطحبه الى الطبيب البيطرى ، حقنـه ببعض المقويات وقال : جرحه سطحى فى طريقه للشفاء . تلك حدود قدرته ، ليس عنده دواء لجراح شاهين النفسية .

يوما بعد يوم ازداد هزال شاهين ، روحه كسيرة . لم يعد يستجيب لمداعبات الأطفال . بدا كما لو كانت عيناه مغرورقتين بالدموع . لم يجرؤ أحد على اقتراح ذبحه ـ كالعادة فى مثل هذه الحالات ـ انتفاعا بلحمه . انه أحد أفراد الأسرة .

يئس سالم من محاولات اغراء شاهين بالعدول عن اضرابه عن الطعام ، بدا ان اهتمامه بهـذه القضية قد تراجع بانشغاله باجراءات التعبين . اخذا يألف الأمر الواقع ، وينتظر النهايـة . ذات ليلة حلم انه فقد اباه وان ثلاثة من أبطال التاريخ العمـانى اقبلوا يواسـونه : مالك بن فهم الأزدى طارد الفرس من عمـان قبل الاسلام ، وسيف بن سلطان اليعربى طارد البرتغال فى نهاية العصور الوسطى ، واحمد بن سعيد البوسعيدى طارد الفرس مرة أخرى على مشارف العصر الحديث . معالم وجوههم غير واضحة ، فقط لحاهم الشديدة البياض الكثيفة المهيبة .

صحا فزعا ، رأى أباه أمامه يوقظه . فى نغمة حزينة قال : اذهب الى حظيرة شاهين . ادرك ما حـدث . فى الحظيرة شاهين ممدد على الأرض بلا حراك . توافد أهل البلد مشاركة منهم ، لم يلقوا جثته فى الصحراء طعاما لجوارح الجو ووحوش البر . تكريما له حفروا فى المزرعة حفرة دفنوه فيها . الأسرة فقدت أحد أفرادهـا .

« فرحة » تفوز فى السباق

فجأة علا صوت المذيع يشرح : يشترك فى هـذا السباق متسابقون من الاسطبل السلطانى ، ومن ولايات صحار وصحم والخابورا والسويق والمصنعة وبركاء والسيب . أقيمت التصفية اولا لكل منطقة على حده ، اشترك فيها ثلاثة عشر متسابقا عن المنطقة الواحدة . اشترك الفائز الأول من كل منطقة مع الفـائز من الاسطبل السلطانى لتصفية الأشواط . يقام الآن الشـوط الأخير لاختيار الخمسة الفائزين الأوائل فى هـذا السباق الكبير الذى يقام بمناسبة عيدنا الوطنى العظيم .

شمس نوفمبر تنفض عنها اردية الليل ؛ الفجر والصـباح يتنازعان ؛ نسمة خريفية رطبة تهب على بحر رمال ممتدة فتنعش النفوس المتأهبة لمتعة قديمة متجددة ؛ وتفتح مسامها لاثارة مقبلة بل موشـكة .

ارض منبسطة واسعة بدت فيها الجمال متناثرة عن يمين وعن شمال بلونها الصحراوى العريق ورقباتها المشرئبة فى كبرياء، وعيونها الوادعة المستفهمة . ارتدت فوق سنامها السرج .. أيها

يا ترى تشترك فى السباق لأول مرة ، ايها سبق لها الاشتراك ، أيها تفوز اليوم ، ترى هل تعى ذاكرتها ما اشتركت فيه منذ عام أم يختلط عليها التدريب وسباق الأعياد والأعراس والختان .

بجوار أحد الجمال المتاهبة للسباق وقف صبى خجول فى الثالثة عشر من عمره ، الطفولة والشباب يتنازعانه ، على وجهه ملامح البراءة وملامح الرجولة . يتذكر الآن مشواره اليومى الى مدرسة الوارث بن كعب بالسويق ، يقطع كيلو مترين ذهابا من بيته الى المدرســة ، ومثلهما عودة على الطريق الرئيسى الساحلى بين مسقط وصحار .

فجاة نادى المسئول : نوخ ، نوخ . أسرع كل صبى بناقته الى مكانهـا من الصـف . المسـئول يصيح بلهجتـه المحليـة : لا تستعجلون ، لا تستعجلون . الجمال تتدافع ؛ تبرك واحدة بعد الأخرى ، تصبح مجموعة من الارتفاعات المتتابعة كأنها اهرامات صغيرة متكررة تتقدمها رقابها الطويلة المشرئبة تعلوها رؤوســها المستطيلة . تجتر . تلوك شيئا ما . تفرز ما هو اشبه بالزبد يتلكأ على الشفتين وما بينهما . تجأر بأصوات لعلها تحيى بها بعضها البعض قبل بدء السباق .

« على بن حمـد السـعدى » أحكم جلســته فوق سرج « فرحة »؛ شد خطامها بيده اليسرى شدا خفيفا ، أمسكت يده اليمنى عصـا قصيرة يحث بها ناقته .

يحلم الآن بالفوز .. بوالديه واخوته يهنئونه ، ومدرسـيه وزملائه بالسنة السادسة الابتدائيـة لا لفوزه فقط بل لأنه أصغر من امتطى الناقة « فرحة » ابنة السنوات الست .. يحلم بأن

يشهد فوزه الملايين فى جميع أنحاء العالم على الشاشة الصغيرة ، حلم كان من المستحيل أن يراود اجداده .

غابة من الخلق اصطفوا على جانبى ممر شبه معبد لا يزيد طوله عن كيلو متر ونصف الكيلو ، ترى العين أوله وآخره ، عرضه بضعة أمتار ، امتد على جانبيه حبلان مشدودان يحددان معالمه ، خلف هذين الحبلين وقف خليط الوطنيين والأجانب : هؤلاء جاءوا ليحيوا طقسا من طقوس عمانيتهم البدوية الخليجية الأصيلة ، شاهدوه عشرات المرات وترسب فيهم منذ طفولتهم ؛ اصبح جزءا من وجودهم ورابطا من روابطهم العاطفية والتقليدية والاجتماعية بهذه الأرض التى يعيشون فوقها برغم انحسار العصر الذهبى للجمل . السباق آخر ما تبقى له ؛ يطل به حيا من متحف التاريخ . الأجانب أقبلوا ملهوفين ليروا رمز الصحراء التى طالما تاقوا الى رؤيتها ورؤية صفرتها الرملية وملك حيوانها المتربع على عرشها منذ زمن لا يعرف أوله . بشمت عيونهم من الخضرة اللانهائية التى تكسو بلادهم ، برموا بصقيعها ، اقبلوا يغمرون ويمرغون أجسادهم فى شمس نوفمبر فى صحراء عمان ويدفئون وجدانهم برؤية جمالها فى سباق السيب .

الخوف يملأ قلبه ، « فرحة » قد تخرج عن خطها المستقيم ، تحن الى البيت ؛ تعدو فى اتجاهه ؛ حدث هذا مع ناقات أخريات فى سباقات مماثلة . بعض زملائه كان أسوأ حظا ، تدافعت النوق فى بداية السباق ؛ تصادمت ببعضها ، وقع زميل لهم من فوق ناقته ، سقطت تحت اقدام الجمال المهرولة ، فقد فرصته فى السباق ، بل حملته سيارة الاسعاف ليعالج أكثر من شهرين بالمستشفى . تطمئنه صداقته مع « فرحة » ، خمسة أشهر كاملة اشترك خلالها فى تدريبها على الجرى ثمانية

كيلو مترات يوميا ، عمه « سيف » كان يختار لفرحة أجود الطعام ليمنحها قوة ونشاطا وتفوقا فى مثل هذا اليوم ، رآه يقدم لها التمر وعسل النحل البرى وسمن البقر المحلى والشعير والبرسيم واللبن . وقبل عشرة ايام اقتصر طعامها على الشعير والبرسيم واللبن بكميات محدودة للتخلص من اى شحم زائد استعدادا لهذا السباق .

يطمئنه ايضا أن عمه دربه على ركوب هجن السباق ثلاث سنوات ، ليست هذه أول مرة يشترك فيها فى سباق الهجن ، فى العام الماضى كان الرابع فى سباق كبير اقيم بأبى ظبى، كما انه الفائز بالمركز الأول على ولايته « السويق » فى هذا السباق . اليوم يريد .. يطمح .. يطمع ان يكون الفائز الأول على ولايات السلطنة كلها .. كلها .

الشمس الآن نفضت خدر الليل تماما ؛ بدات تداعب بحراراتها جماهير المتاهبين للفرجة على متعة لن تطول ، اختيرت للسباق ساعة مبكرة من النهار لأنهم يدركون أن شمس نوفمبر عمان وان كانت هينة فى الصباح الباكر الا انها ليست كذلك بقية النهار لا سيما فى هذا الخلاء المفتوح . تحسبا لذلك خصص مكان مظلل لكبار الضيوف أعدوا فيه مقاعد ومقصفا لاطفاء ظمأ محتمل .

أجهزة الاذاعة المحلية تأهبت لاذاعة النتائج اولا بأول ، عدسات التليفزيون استعدت لالتقاط الوقائع ونقلها الى عشاق السباق ممن لم يتمكنوا من الحضور .

تحت وهج شمس دافئة تطلعت الوف الأعين ـ وقد أعد البعض كاميراته ـ نحو الجمال التى تاهبت للسباق . وقف الى

جانبها راكبوها ، اغلبهم فى سن الصبا ، كلما خف وزن الراكب خف حمل الجمل فكان اسرع عدوا .

فجاة صاح المسئول : روح . فى لمح البصر نهضت النوق .

على الطرف الآخر حيث ينتهى السباق وقف صاحب « فرحة » يفكر هو الآخر فى الفوز لكن بطريقة أخرى . لن يظهر على شاشات التليفزيون أمام ملايين الأعين ، اذا فازت « فرحة » سيحصل على اربعمائة وخمسين ريالا عمانيا يعطى منها أربعين للصبى ، الباقى قليل يعوض كثيرا انفقه على ناقته تدريبا وغذاء خاصا . الأهم من ذلك كله أن ثمن « فرحة » سيقفز فيبيعها بآلاف الريالات العمانية . سمع أن ناقة فازت فى سباق مماثل فبيعت بمائة ألف ريال عمانى . قلبه هو الآخر ملىء بالخوف والأمل .

النوق تندفع فى سباقها القصير السريع المجنون . السباق ما كاد يبدأ حتى انتهى ، برق ومض . عينا « سيف بن سعيد بن ناصر » لم تفقد لحظة ناقته « فرحة » ولا صبيه الطموح المدرب « على بن حمد السعدى » وهو يحث ناقته بعصاه القصيرة ، تتقدم أخواتها تقدما ملحوظا لاشك فيه .

سيف راى نفسه يقفز مصفقا ، المذيع اعلن أن الفائز الأولى « فرحة » وراكبها « على بن حمد بن عويد السعدى » من ولاية السويق . الصبى علت وجهه ابتسامة النصر وهو يهبط من على ظهر ناقته .

آلاف الأكف تصفق ، مئات العدسات ـ بما فيها عدسات التليفزيون ـ تلتقط آلاف الصور للصبى ولناقته . تشكلت

صفوف من حشود حولهما تريد أن تشبع من رؤيتهما عن قرب ، وتسجل فى عيونها هـذه اللحظة الفريدة . صاحب « فرحـة » يحاول أن يحشر نفسه فى الصفوف الأمامية ؛ كأنما ليعلن لهم أنه صاحب الناقة ومدربها وأن الفوز فوزه والفرحة فرحته .

عنـدما كان المشاهـدون يتفرقون ، والنوق وأصحابهـا يتفرقون ، واللحظة الحية المتماسـكة تتفرق .. تتسرب .. تنساب فى داخلهم ؛ كانت الشمس اللاهبة الآن ـ وقد علت الأفق ـ تستحثهم على الفرار من لفح قيظها ووهج بريقهـا ولهيب رمالها ، فيعود للمكان هموده ، وللصحراء صمتها ، وللنهـار ظمأه ، والليل وحشته ورهبته .

الحفيـــدة والجـــد

ذات يوم كنت اقضى عطلة نهاية الأسبوع فى منزل اسرة ابنتى ، حيث تعودت أن أسعد بالحديث واللعب مع حفيدتى التى أشرفت على الرابعة . كانت تبهرنى بمحصـــولها اللغوى الذى لابد وان تكون قد التقطته من بيئتها : مما تسمعه من حولها أو من برامج التليفزيون ، وبطريقة نطقها الممتعة : تقديمها أو تاخيرها لحروف الكلمات ، أو لكلمـــات جملها القصيرة المعبرة . فأنتم تعرفون كم يكون ذكاء الأطفال وتلقايئتهم وبراءتهم فى تلك السن المبكرة ، وكيف يكونون أقدر على ملاحظـــة دقائق تفوت علينـــا نحن الكبـــار .

بعد تناول الغـــداء احببت ـ كعـــادتى ـ أن أغفو قليلا . تسللت نورا الى غرفة النوم ورائى وهى تحتضن احدى عرائسها. استأذنتنى فى ابتســـــام وهى تهز رأسها كأنما يحرجها ما تطلب :

ـ ممكن يا جدو أنام بجانبك ؟

ـ على شرط أن تنامى فى هدوء .

ـ طيب ممكن أحكى حكاية لعروستى ميريت حتى تنام اولا؟

وكانما لتحول دون اعترافي ـ وقبل أن افكر فى الاجابة ـ استانفت حديثها بتقديم رشـوة ذكية دون مقدمات :

ـ انا احبك جدا يا جدو .

ـ وانا أيضا يا نورا .

على صوت حديثنا اقبلت أمها . عبثا حاولت أن تقنعهـا بالعدول عن رغبتها . تعلم أنها ليست جادة فى الرغبـة فى النوم وانها قد تضيع على فرصـــة راحتى .نورا تشبثت بل استنجدت بى . رجوت أمها أن تدعها :

ـ ليس مهما أن اغفو ، يكفى أن استرخى قليلا .

ـ على راحتك ؛ لكننى حذرتك .

استلقت نورا بجوارى ، بيننا ارقدت عروستها الصغيرة ذات الشعر الذهبى والعينين الداكنتى الرموش تفتحهمـا حين تجلسـها وحين توقفها محدثة صوتا لا هو بالأنين ولا الضحك ، وتغلقهما وتصمت حين تجعلها تستلقى على ظهرها . ثم بدات تقص عليها قصصا مثلما تفعل معها أمها كل مساء قبل النوم .

حاولت عبثا ان أستغرق فى النعاس . صــوت نورا كان مرتفعا وهى تروى ما تؤلفــه من قصص على عروستها . طلبت منها أن تخفض صــوتها قليلا حتى أستطيع النوم . سمعتهـا تواصل حكاياتها بصوت أكثر انخفاضــا فعلا لكنه كان ما يزال مسموعا بحيث يقلقنى . عدت اطالبها بمزيد من خفض صوتها . استأنفت رواياتها بصــوت لابد أنها تصورته أكثر انخفاضــا ، لكنه كان فى الحقيقة ما يزال مرتفعا بما يكفى لعدم اتاحة الفرصة لى لأغفو . للمرة الثالثة رجوتها :

ـ يا نورا يا حلوة صوتك ما يزال مرتفعا ، ممكن تخفضينه أكثر ؟

اجابت الحفيدة فى صـوت يجمع بين التساؤل والحيرة والاحتجـاج :

ـ لكن اذا اخفضت صوتى أكثر من ذلك ، كيف تسمعنى ميريت اذن !

ابتسمت وقبلتها وقبلت عروستها : واسـلمت أمرى لله ولها . وحتى لا يضيع وقتى تماما حاولت أن أصغى لمـا ترويه حفيدتى . وهكذا أصبحت نورا تحكى قصصها بأسـلوبها المبتكر الخاص بها لعروستها ولجد أشرف على السبعين .

دعوة لتنــاول الشاي

وقعت احداث هذه القصة العجيبة أثناء احدى زياراتى لمدينــة لندن . كنت اسير بعد ظهر يوم صيفى فى طــريقى الى مسكنى بضاحية كوينز بارك أو متنزه الملكة ، قادما من محطــة مترو الأنفاق . الطريق فى ذلك الوقت يكاد يكون خاليا . عن يمينى يقع المتنزه الكبير الذىطالمــا حذرونى من السير فيه ليلا بمفردى لكثرة ما يقع به من حوادث اعتداء وسرقة واغتصــاب ، وعن يسارى بضع فيلات متناثرة تفصــلها حدائقها عن بعضها البعض فتضاعف من وحشة الطريق . الجو لا هو بالصحو ولا هو بالمطر ، الأدق انه كان ينذر بالمطر ، فالسماء ملبدة بالغيوم الداكنة وثمة رذاذ يتســاقط مما اضطر الجميــع الى ارتداء معاطفهم الصيفية الواقية من المطر . المــارة القليلون من الاتجاه المعاكس يبدو كأنهم دمى متحركة : ما أن يحاذونى حتى أســمع حفيف خطاهم وهم يبتعدون صامتين او هامسين . لمحت شابة حسناء تسير أمامى وفى اتجــاهى ، لفتت انتباهى حقيبتها التى تنوء بحملها مما جعل خطواتها أبطأ قليلا من خطوات المــارة المتعجلين. كانت تتلفت حولها بطريقة فسرتها ــ كقادم من الشرق العربى ــ

على أنها دعوة لشهم ذى نخوة يعاونها على ما تحمل . كنت احس الوحدة والغربة فى هـذه العاصمة المتسعة اللامكترثة . اسرعت الخطى عامدا حتى حاذيتها . حييتها فيما يشبه الهمس تحية الانجليز فى ذلك الوقت من النهار :

ـ بعد ظهر الخير .

احسست انها اجفلت لحظة ، فسرتها من جانبى انها قد تكون بسبب استغراقها فى تفكير قطعته عليها ، أو لعلها هذه التحية المفاجئة من غريب شرقى الملامح . سرعان ما تماسكت والتفتت الى باسمة وهى تتاملنى :

ـ بعد ظهر الخير يا سيدى .

لفظت هذه الكلمة الأخيرة بطريقة فسرتها بأنها قد تعود الى ما لابد انها لاحظته من فارق السن الواضح بيننا مما شككنى فى نجاح محاولتى .

ـ هل يمكن أن احمل عنك حقيبتك ؟

ـ ان كنت انت رجل (حذفت الا انك كبير السن) فلا تنس اننى شابه (تقصد وان كنت امراة الا اننى صغيرة السن) .

قلت فى نفسى : لا يخدعنك منظر فودى الآشيبين ، قلبى ما يزال شابا فى العشرين مثلك . دفعت الى الحقيبة وهى تستطرد :

ـ يمكن ان نتبادلها على اية حال ، اشكرك .

اعطتنى الحقيبة ، احسست بثقل غير عادى وان كان محتملا . هذه العلاقة الجديدة أعطتنى الحق أن اسألها :

ـ اين تقصدين ؟

ـ لا أعرف بعد ، انا غريبة مثلك عن لندن . قيل لى انك ستجدين فى هذه الضاحية اكثر من غرفة للاقامة .

ـ وهل تبحثين عن مكان وانت تحملين كل هذه الحقيبة ؟ لماذا لم تتركيها فى مخزن الحقائب باحدى المحطات ؟ على فكرة ماذا بها ؟ حجارة ؟

ضحكت وهى تجيب : لماذا لاتكون كتبا ؟ السـت أبدو طالبة ؟

ـ ماذا تدرسين ؟

ـ العلوم السياسية .

قلت لنفسى : لعنة الله على السياسة ، سببت افظع المآسى على طول التاريخ .

حانت منى التفاته نحو الحقيبة التى أحملها . يبدو انها من الجلد او البلاستيك المقوى ، بنية اللون . لو كانت من القماش او البلاستيك المرن لربما تفسخت تحت وطاة الكتب أو تأثرت ببروز أركانها هنا وهناك . حاولت قراءة طرازها او مكان صنعها ، مكتوب بخط دقيق لايمكن قراءته الا عن قرب اكثر . الأرجح انها من نوع السامسونيت أو تقليدها . رذاذ المطر ينزلق عليها ، وان تلكأت بعض قطراته قبل ان تغادر سطحها .

امام مسكنى وجدنا انفسنا : غرفة بالدور الثانى من مبنى يتكون من ثلاثة طرابق ، تديره سيدة انجليزية تقطن بطابقه الأول وتؤجر غرفه الباقية . تعودت أن أقيم به كلما جئت العاصمة الانجليزية فى زيارة منفردة . قلت أمهد لدعوتها وانا اضع حقيبتها على الأرض لأريح يدى :

ـ مسكنى المتواضع هنا ...

لم تعطنى الفرصة لأكمل جملتى ، تطوعت باتمام خطتى ، وجدتها لدهشتى تدعو نفسها :

ـ ليس لديك مانع فى ان اشاركك شرب شاى بعد الظهر ؟

اجبتها ضاحكا : بكل سرور اقبل دعوتك لشرب الشاى فى غرفتى .

حمدت الله على ان الغرفة لم تكن بطابق أعلى والا انخلع ذراعى وانا أحمل حقيبتها ، فمبنى من ثلاثة طوابق ليس فى حاجة الى مصعد . ساعدتنى على حمل حقيبتها من طرفها الخلفى حتى لا تصطدم بدرجات السلم اثناء صعودنا : « كلفنى شراؤها أكثر من خمسين جنيها ؛ لا اريدها أن تصاب بتشوهات من أول استعمال لها » .

فتحت الباب ، دخلت وراءها أجر حقيبتها ، عبقت غرفتى برائحة الأنثى . أخذت منى الحقيبة ووضعتها فى مدخل الباب ، نزعنا معاطف المطر وعلقناها . لاحظت أنها تضع الحقيبة فى حرص بالغ فسرته بموضوع تلك التشوهات التى تريد أن تتجنبها . أشرت لها بالجلوس على أحد المقعدين الموجودين بالغرفة ، لم تكن فى حاجة الى اشارتى : الارهاق واضح عليها كأنهما هى آتية من سفر طويل ؛ وجدت فى ذلك تفسيرا لدعوة نفسها على تناول الشاى معى . ألقت بنفسها على المقعد وأنا أخالسها النظر عسانى أزداد تعرفا عليها وأضع حساباتى للخطوة التالية : لا تتعدى العشرين ، أصغر من ابنتى ، ترى هل فارق السن هو الذى طمأنها أم خيب أملها ؟ على أية حال ستؤنس وحشتى لبضع دقائق . أتيت العاصمة الانجليزية لأجمع

بين الترفيه وانجـاز بعض الأعمال . هذه الساعة من الساعات المخصصة للترفيه .

تركتها تتأمل بعض اللوحات الرخيصـة المعلقة على جدار الغرفة ، ذهبت لأعد الشاى فى المطبخ المشترك لغرف الطابق .. الماء يغلى .. فى داخلى ما يشبه الفوران ، هل أدع فرصـة ذهبية تفلت منى .. هل أغازل فتاة فى سن ابنتى .. لا تستطيع ان تمنع الأفكار ان تحوم فوق رأسـك لكنك تستطيع منعها من ان تعشش فيها .. عدت بابريق الماء الساخن والشاى والسكر واللبن وبقايا علبة بسكويت . اعتذرت عن تواضـع ما أقدمـه لأسباب واضحة . افتر ثغرها عن ضحكة طفولية . تذكرت اننى لم أعرف اسمها حتى الآن .

ـ اسمى ابراهيم وبلغتكم ابراهام .

ـ نادنى باسم آن يا مستر ابراهام ، واضح انك عربى .

ـ وواضح انك انجليزية .

ردت بدلال وهى تزيح الى الوراء خصلة من شعرها الذهبى المسترسـل :

ـ ابن البلد هو وحـده الذى يستطيع من طريقـة النطق واللهجة ان يحدد بدقة منطقة محدثه بالانجليزية .

اجابتها تركتنى فى شبه حيرة بحيث لم أستطع ان افسرها هذه المرة . كان طبيعيا ان يتشعب بنا الحديث عن الأوضـاع السياسية فى الشرق الأوسط . تعرف عنها ما يكفى لأن تقول :

ـ اغتصاب بيتك عمل شرعى يلقى التأييد .

بلورت أفكارى بالعربية ـ فيما بينى وبين نفسى ـ فى جملة بليغة : والتصدى له ارهـاب ، يستحق العقـاب ، بمزيد من الاغتصاب . ثم بصوت مرتفع بالانجليزية :

ـ خلطوا الأوراق بين الارهاب والدفاع عن النفس .

ـ ليصبح الجانى الضحية والضحية الجانى .

أحسست اننى ربما اكون قد اندفعت ، لسبب لا أدريـه فسرت كلامها بأنها ربما تعمل لحساب مخابرات احدى الدول ، تجرنى فى الحـديث لتتسقط منى معلومات .. انطبـاعات .. اسلوب تفكير .. نظرة الى الحقيبة الملأى بالمراجع جعلتنى أستبعد هذا الخـاطر . احتمال آخر قفز الى ذهنى ثم تبخر : أن يكون بهذه الحقيبة هيروين .. حشيش ، من أدرانى ؟ لا أظن ان المواد المخدرة بهذا الثقل . لمـاذا افسد لحظـة جميلة بمثل هـذه الوساوس انا انسان هذا العصر الكئيب . طردت وساوسى .

قلت شارحا ؛ وربما لمجرد مزيد من الثرثرة .

ـ لعل الوضع قريب مما يعتقده البعض فى جارتكم جمهورية ايرلندا الجنوبيـة ؛ الانجليز اغتصبوا منهم ايرلندا الشماليـة حتى انهم لاستعادتها كونوا الجيش الجمهورى السرى .

اهتز فنجان الشاى فى يدها هزة لا تكاد تلحظ ، ثارت فى شكوك من نوع آخر كافحت لوأدها . سمعنا المطر يهطل بغزارة فى الخـارج ، يضرب بعنف زجـاج النافذة الصغيرة الوحيـدة بالغرفة . قلت لأغير الحديث :

ـ عندى ابنة فى عمرك .

ـ والدى توفى وانــا فى العــاشرة ـ أمى ربتنى ، تعمــل مدرســة ...

رشفت من فنجانها رشفة اخيرة ، نظرت فى ساعتها ، تاهبت لمغادرة الغرفة .

سفراتى عودتنى على اللقــاء فالفراق ، كأعمدة التلغراف حين تشاهد من نافذة قطار سريع ، عمود يختفى آخر يبرز . قلت متســائلا :

ـ الى اين تذهبين بهــذه الحقيبــة الثقيلة ، يمــكن ان تستخدمى تليفونى للبحث عن سكن .

ـ شكرا ، هناك صديقة تنتظرنى فى مكان قريب ، ارجو ان تكون قد وفقت فى تدبير مكان ما .

قلت مجــاملا :

ـ آمل أن نتقابل مرة اخرى .

ـ اذن اعطنى رقم تليفونك ، ضرورى سأتصل بك .

ـ ورقم تليفونك أيضا .

ـ كيف يكون لى رقم ولم اعثر على سكن بعد ؟

جذبت حقيبتهــا الثقيلة ، عاونتها على حملهــا حريصــا الا تصطدم بشىء ، هبطنا درجات السلم بسلام . المطر توقف ، السماء بدت اقل تلبدا بالغيوم . نظرتها الأخيرة لم استطع لهــا تفسيرا : مزيج من الحب والامتنان ، لعلها رقة لحظــة الوداع . بدت وهى تغيب عنى كطفلة شقية ، مليئة بالحيوية .

فى عصر اليوم التالى ، بينما أتناول الشاى فى غرفتى فى نفس الوقت تقريبا ، رن جرس الهاتف ، على الطرف الآخر سمعت صوتها يفسر كل تفسيراتى السابقة :

ـ اشكرك مستر ابراهام ، كنت على وشك مصارحتك . . .

ـ مصـــارحتى بماذا ؟

ـ اتحت لى مخبأ آمنا خلال الساعة التى استضفتنى فيها.

ـ من المطـر ؟

ـ بل من الشرطة ، الحقيبـــة كانت ملأى بقنسابل الجيش الجمهورى .

سرقــة أبلة بهيــة

كيف دخل كيف خرج ، هل هى حبيبتها زينات أم شغالتها الوفية أم رضــا ؟ يا رسول الله اكشف غمتى ، وارفع بلوتي .

تقترب من السبعين ، تعيش وحدها فى احدى شقق مبنى تقادم عمره ـ مثلها ـ وتقادم طرازه . احيلت الى المعــاش عندما بلغت الستين حاملة معها لقب ابلة منذ تدرجت فى وظائف التدريس حتى وصلت الى ناظرة احدى المدارس الثانوية للبنات . توفى زوجها فى حادث منذ بضــع سنوات ، كان عزاء السيدات لها : اولادك تخرجوا من الجامعة ، البركة فيهم . لها ابنة متزوجة عندها منها حفيدتان شديدة التعلق بهما ، ابن تزوج حديثــا واستقل بشقة فى احدى ضواحى المدينة .

ـ هل تتهمين احدا يا سيدتى ؟

ـ لا ، يا سيادة المحقق .

ـ هل سبق أن اعطيت مفتاح الشقة لشخص من أقربائك او أصدقائك .

ـ أبنتى عندها نسخة وابنى نسخة أخرى .

ابنها الآخر توفى فى الثلاثين من عمره . قيل انه مرض ولد به يستهلك شريانا فى المخ فى نصف الفترة التى تستهلك فيها شرايين البشر الأخرين . قبل أن يموت طلب منها تحقيق رغبته التى لم يستطع تحقيقها فى حياته : أن تقوم بالحج نيابة عنه .

بكت جارتنا العجوز ابنها الشاب وبكيناه معها ، موت الوالدين قبل الأبناء منسجم مع طبيعة الحياة ، العكس فاجع كاد يقصف عمر السيدة العجوز المسكونة بالأمراض والكوارث . طلبة فلذة كبدها وهو على فراش الموت يطالبها التماسك ، فالحج بعد أسابيع . استكملت أوراق سفرها ، حصلت على موافقة الجهات الرسمية ؛ ذهبت الى البنك ، سحبت ثلاثة آلاف جنيه نفقات رحلة الحج . عادت الى بيتها ، القتها فى اطمئنان فوق أحد رفوف دولاب ملابسها ، ثلاثة رزم كل منها الف ، الدار أمان . عانت سرقة احبائها ـ استغفر الله بل هم احياء عند ربهم يرزقون ـ لكن قشة من بيتها لم تسرق ، ليته كان العكس.

فى اليوم التالى احست انها ليست على ما يرام ، أشبه بحمى تجتاح جسدها مع قشعريرة من حين لآخر ، ثمة آلام فى كل مفاصلها . حاولت أن تنهض ، أن تذهب لطبيبها ، لا تكاد تقوى على الحركة . شعرت بوحدتها ، تذكرت أعزاءها الراحلين ، ابنها وابنتها قريبان بعيدان ، كل منهما مشغول بعمله وأسرته . رن جرس الهاتف :

ـ صباح الخير يا ابلة بهية .

ـ أهلا زينات ...

زينات احدى تلميذاتهـا السابقـات ، انهت دراسـتها ، تزوجت ، أصبحت ربة بيت ، عندها طفلان ، ما تزال تحتفظ بولائها لمدرستها السابقة ؛ مثلها الأعلى ؛ تعاملها كأم . يوم تمت خطبتها حرصت على زيارة ابلة بهية فى بيتها مع عريسها لتشاركها فرحتها وتبارك زيجتها . حضـورها فى حياة ابلة بهية الآن يذكر الناظرة العجوز بأيام التدريس الممتعة . كانت تعشـق مهنتها ، رفضت عروضـا أخرى كثيرة تبدو اكثر اغراء لغيرها . لا عجب أن تبادلت المودة واستمرت العلاقـات مع كثيرات من تلميـذات الأمس وسيدات اليوم .

ـ كيف الأحفاد والصحة و ...

ـ والله خطرت على بالى الآن ...

ـ خير ان شاء الله .

زينات تسـكن غير بعيد عن ابلة بهيـة ، تمتـلك سـيارة مرسيدس ؛ كانت عندها بعد ربع ساعة .

ـ تركت عبلة وهشام من اجلى ؟

ـ معهما الدادة .

ابلة بهية شوهدت فى حجابها ـ وقد افلتت من تحته بضع شـعيرات بيضـاء ـ وهى تتوكأ على كتف زينـات وتدلف الى سـيارتها .

عند عودتهما من عيادة الطبيب اصرت زينات على الدخول معها . ابله بهية قالت فى شبه استنكار :

ـ وعبلة وهشـــام ؟ يجب يا حبيبتى أن تذهبى لبيتـك وتطمئنى عليهما ، وكتر الف خيرك الى هنا .

ـ التليفون موجود .

ابلة بهية فى حاجة هـذا اليوم الى من يقف بجوارها فى وعكتها . ليس عندها مثل زينات دادة وشغالة طوال الوقت ، ما تستطيع تدبيره شغالة تأتى لها مرة اسـبوعيا لتنظيف البيت. وجود زينات اتاح لأبلة بهية الا تبذل مجهودا كبيرا . أعدت لهـا طعام الغداء . ابلة بهية تشير : الشاى هنا والسكر هناك .. تطلب منهـا من وقت لآخر : ارجوك تناولينى الروب من على الشماعة ؛ من فضلك خذى خمسة جنيهات من الصندوق الخشبى المطعم الموضـوع على الرف الأعلى من الدولاب (كان من قبل صندوقا به بعض الحلى الذهبية هدية الزواج) .. اعطيها لبائع اللبن تحت الحساب .

زينات تخدمها بمحبة وسعادة كما تخدم والدتها وربمـا افضل . تماضر ابنة ابلة بهية كثيرا ما تتبرم بخدمة أمهـا فى الساعات القليلة التى تزورها فيها بحجة مسئولياتها مع زوجهـا ومشغوليتها بأطفالها . من الطبيعى أن تفضى ابلة بهية لزينـات بما يشغلها : الغالى طلبه غالى ، رجاؤه امر ساحقق له أمنيته وأمنيتى انا ايضـا وأحج هـذا العام نيابة عنه ، احضرت من البنك ثمن تذكرة السـفر ، لولا مرضى لذهبت اليوم الى مكتب شركة الطيران وحجزت .. كـله بأمر الله . فرت دمعتـان من عينيهـا .

فى اليوم التالى تحسنت صحة ابلة بهية . جاءتها شغالتها ام رضا . سـيدة متينة البنيـان فى منتصف العمر ، ذات قامة

مشدودة ، عليها امارات عز آفل (عزيز قوم ذل) . مات زوجها الموظف مبكرا فترك لها معاشا ضئيلا وخلفة كثيرة . مؤهلاتها التعليمية معرفة القراءة ومباديء الكتابة . ارغمت ان تكافح من اجل اطفالها الستة ، تخرج الآن اثنان ، ما يزال ثلاثة فى دراستهم الجامعية والفنية ؛ السادس تعثر فى الطريق لكنه يكسب فى الأسبوع ما يكسبه اخواه فى شهر . تمر على ابلة بهية يوما فى الأسبوع منذ أكثر من عشر سنوات بلا انقطاع الا لظروف طارئة . تحرص أن تعود الى حارتها مبكرا قبل ان يعود الطلبة من مدارسهم والموظفون من أعمالهم حتى لا يكتشفوا سرها ، رغم انهم يعرفون ؛ لكنهم يحترمون رغبتها ولا يثرثرون .

فى ذلك اليوم وصلت أم رضا فى موعدها المبكر كعادتها ـ بعد ذهاب الطلبة والمدرسين ـ الى مدارسهم وأعمالهم . نزعت ملابسها المحتشمة (فليس فى الشقة ذكور) وارتدت ثوبا قديما قصير الأكمام والذيل تهيؤا لتنظيف البيت . دعتها أبلة بهية للافطار معها قبل بدء العمل كما تدعوها كل مرة ، اعتذرت كما تعتذر كل مرة ، هذه المجاملة طقس من طقوس العمل . كانت ابلة بهية تعاونها عادة عندما تنقل كنبة الصالون الثقيلة أو مراتب السرير لتنظيف ما تحتها ، اليوم كانت أضعف من أن تمد يد المساعدة ، القت عليها عبء العمل كله ، قامت أم رضا بواجبها ـ كما تقوم به فى كل مرة ـ بأمانة واخلاص وسرعة . نظفت الشرفتين والصالون والصالة وغرف النوم الثلاثة بما فيها غرفة ابلة بهية ، الغرفتان الأخريان لم تعودا تستعملان الا عند الزيارات العارضة . الجميع غائبون على مسافات متباينة : بعضهم يزورها مرات فى الأسبوع وقلما يبيتون ، وآخرون لا يزورونها الا فى الهواجس والأحلام . عند انتصاف اليوم ذهبت

أبلة بهية الى دولاب ملابسها ، مدت يدها ، سحبت كيس نقودها ، سلمت أم رضا أجرها .. وسلمى على الأولاد ولا تنسى موعد الأسبوع القادم .. لا .. السفر الى الحج ما يزال أمامه ثلاثة أسابيع ، سأسافر بالطائرة وليس على جمل يا أم رضا .

فى الصباح ارتدت أبلة بهية ملابسها ، تهيأت للخروج للذهاب الى شركة الطيران وحجز تذكرتها . خطت نحو دولاب ملابسها لتأخذ المبلغ من حيث وضعته منذ ثلاثة أيام . لم تجده فى مكانه ، ربما تدحرج هنا أو هناك ، ليس جنيها ولا خمسة ولا حتى عشرة ، مبلغ ضخم يصعب أن يغوص بين هذه العلب وزجاجات العطر وقطع القماش ، يتندر عليها أبناؤها لاحتفاظها بكل هذا الخليط فى مثل هذا المكان .. تسارعت حركة يديها ، ازدادت عيناها تركيزا وربما اتساعا ، عقلها يطوف الزمان والمكان ، يتسارع الطواف ، تتسارع دقات القلب . آه ... لابد أننى نسيت أين وضعته ، أضع ما أحرص عليه فى مكان أمين بحيث يخفى حتى على أنا .. أنسى كثيرا هذه الأيام .. الأولاد يتهموننى بذلك ، أنا أنكر .. هم على حق .

ــ هل فقد ابنك أو ابنتك نسخته من مفتاح شقتك ؟

ــ كل منهما حتى أمس كانت معه نسخته .

ــ ربما سرقه شخص من أحدهما ثم ارجعه بعد أن صنع نسخة مقلدة .

ــ المفتاح فى سلسلة مفاتيحهما ، ولم يذكر أحدهما فقدان سلسلته .

بعد أن كانت تبحث بشىء من الهدوء وتعيد ما اخرجته الى مكانه وجدت نفسها تلقى على السرير بكل ما فى هذا الرف الأسفل ،

فالذى يليـه ، حتى أصبحت هنـاك كومة .. فوضى .. هـلّ معقول ؟ لا يمكن .. على أن اتذكر جيدا ، حدث هـذا معى عدة مرات ، لم أكتشف ما أخفيته الا بعد عدة شهور .. بعد أن كنت قد يئست تماما بل ونسيت تماما . اريد المبلغ الآن .. الآن .

ابنتها وعدتهـا أن تزورها الليلة ، لم تصبر ، امسـكت سماعة الهاتف ؛ ستسخر من قلقها . اتصـلت بها فى مكتبهـا بالعمل ، جاءها صوت ابنتها يقول :

ـ ربما سرق المبلغ يا امى .

ـ لا يمكن ؛ ليس هناك ما يدل على دخول الشقة عنوه . كل شىء سليم .

ـ اذن سنفتش الليلة معا عندما ازورك .

ـ لا تتأخرى كثيرا ، أريد أن أعثر على المبلغ الليلة لأذهب غدا الى مكتب شركة الطيران .

فتشت تماضر كل مكان ، فى زهريات الورد غير المستعملة ، وراء الكتب القليلة الموضـوعة على الرفوف من ايام الدراسـة ، بين مراتب السرير .. ليس هناك اثر للمبلغ .

ـ من زارك فى الأيام الأخيرة ؟

ـ شخصـان .

ـ من همـا ؟

ـ أعلن تنازلى عن شكواى ان كان احدهما موضع شك .

ـ ساعدينا نساعدك .

ـ المبلغ لا يساوى فقدى علاقتى بهما .

تسلل الى قلبها هاجس ارعبها ، هل يمكن أن يكون السارق ممن دخلوا الشقة امس أو اول أمس ؟ وبالتحديد هل .. هل هى زينات أو أم رضا ؟ استبعدت زينات ، اخلاقها التى تعرفهـا منذ كانت طالبة شابة ، اسرتها وما تتمتع به من ثراء ، يستبعد ذلك تماما ، اقوى ما فى صفها وضد هـذا الاتهام اللعين ما أسدته اما من خدمة كريمـة أول أمس ، هل جزاؤها أن يطوف بخاطرها هذا الظن الآثم ؟ لكى تنقذ زينات لم يكن امامها الا أم رضـا . تاريخ أم رضا معها منذ عشر سنوات لا يمكن أن ينتهى هـذه النهاية السوداء ، تدينها ، اخلاصـها .. ربما كانت فى ازمة فأغواها الشيطان ان تمتد يدها وتقترض المبلغ ، سترده حين تأتى الأسبوع القادم أو حين تفك أزمتها . عرضت هواجسها ـ وهى خجلى ـ على تماضر ابنتها :

ـ هناك مرض اسمه كليبتومانيا يا امى ، تسرق دون حاجة الى السرقة .

ـ عيب يا بنتى ، هذه سيدة محترمة ، هل هذا مكافأتها ؟

ـ انه مرض ، وليس انحرافا .

ـ ولـو ...

ـ مجرد فرض ... احتمال .

ـ كيف نتحقق منه ؟

منذ هذه اللحظة لم يعد يشغل ابلة بهيـة ضياع المبـلغ ولا احتمال معاودة سرقة الشقة واقتحام عزلتها اقتحاما لا تدرى عواقبه اذا كانت موجودة بالشقة وقتها ، قدر ما شغلها ذلك

الصراع الذى اشتعل فى داخلهـا ، وجعلها تحس كأنها تحترق : زينات أو ليست زينات .

ذهبت الى البنك ، تسلمت مبلغا آخر ، توجهت مباشرة الى احدى وكالات السفر ، قطعت تذكرتها ، حجزت غرفة فى أحد فنادق مكة مع مجموعة سياحية من السيدات تجاوزن الستين .. أم رضـا فى زيارتها الأسبوعية سألتهـا أبلة بهيـة ـ كأنمـا عرضا ـ ان كانت قد رأت المبلغ : ثلاثة باكوات . خبطت على صـدرها :

ـ ورحمة زوجى ، وحياة أولادى ، وغلاوتك عندى ، اذا وجدت عشرة أمثالهم تنقطع ذراعى ولا امد يدى أبدا .

أم رضا دخلت البيت مئات المرات ، داست كل موقع قدم فيه ، كان به ما هو أكثر من هـذا المبلغ موضوعا بغير حرص : حلى ذهبية مطعم بعضها بفصوص ماسـية (شبكة تماضر) لم ينقص منها قيراط واحد .

باستبعاد أم رضا ، عادت زينات تلح عليها . بقيت زينات لأنه لم يكن هناك بديل ، ولم تبق زينات لأنها أبعد الناس عن الشبهات . انسانيتها تنفى ذلك ، وعدم وجود آثار لاستخدام العنف ينفى النفى . اخلاصها ينفى ذلك ، وعدم ظهور بديل يوقع فى هوة سحيقة لا قرار لها كأن هناك يدين تلطمانها بالتبادل : هى .. لا ليست هى .. من اذن يكون أو تكون .. كيف دخل كيف خرج ؟ بل هى .. لا ليست هى .. سرق اللص طمأنينتها ، سرق ثقتها فى أقرب الناس اليها .. يا رسول الله اكشف غمتى ، وارفع بلوتى ، عندما تكتحل عيناى بمرأى مقامك وأطوف بقبرك .

* * *

١٩٩٥

فى الأرض المقدسة طافت حول الحجر الأسود ، سعت بين الصفا والمروة ، وقفت على عرفات ، كبرت فى منى وألقت سبع حصيات ؛ رمت الجمرات ؛ هللت مع الجموع الحاشدة : لبيك اللهم لبيك ؛ لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك . ثم من اعماقها هتفت : اللهم ارحم فلذتى انه من عبادك الصالحين ، فادخله جناتك يا أرحم الراحمين . وازل حيرتى ، وانقذنى من محنتى ، وهبنى طمأنينتى، واستجب دعوتى ؛ انك لسميع مجيب .

أحست بصفاء عجيب ؛ تخففت من ذنوبها .

* * *

هبطت الحاجة بهية من الطائرة ، انهت اجراءاتها ، اول سؤال القته فى لهفة على ابنها وهو يتقبلها بالأحضان : ما الأخبار ؟

لمحته يبتسم ابتسامة خافتة ؛ ادركت ، أرادت ان تستوثق :

ـ هل وقع مكروه ؟ لا تخف ولا تخف .

ـ سأبلغك خبراً أرجو الا يزعجك .

لم تشك لحظة أن تكون هناك كارثة موت أو مصاب فى حادث ؛ على كثرة ما مر بها فى حياتها . سألته فى عفوية :

ـ سرقنا من جديد ؟

ـ نعم .

ـ لكننا غيرنا مفاتيح البيت ؟

ـ كسر زجاج باب المطبخ هذه المرة وسرق الـ ...

بدلا من ان تصغى لبقية الحديث ، سمعها تهمس ، عضلات وجهها ارتخت ، علامات صفاء قدسى بدت عليه .

ـ اشــكرك اللهم لأنك استجبت طلبتى ، وقضــيت على محنتى ، فاغفر زلتى ؛ انك لغفور رحيم .

سألها ابنها وعلى وجهه الف علامة استفهام :

ـ ماذا تقولين ؟

اجابته بلغز آخر كأنما لتمنعه من اقتحام خصوصياتها :

ـ الحمد لله ، ليست هى ..

انســان الغابــة

أيها السادة سأروى لكم قصتين قصيرتين جدا شــاءت الأقدار أن أكون شاهدا عليهما ، وقد رأيت أن الجمع بينهما ـ ودون مواربة ـ ربما فيه جواب من بين أجوبة كثيرة على الفرق بين التقدم والتخلف الحضــارى . لهذا اختزنتهما فى ذاكرتى ولهذا أرويهمــا .

القصــة الأولى :

فى احدى حدائق الحيوان شاهد الجمهور انسان الغابة ـ ذلك الحيوان الضخم الشبيه بالانســان شكلا وذكاء ـ ينــاوله حارسه بيد طبقا من الخضروات والفواكه : جزرا وخســا وموزا وتفاحا .. يأخذ منه واحدة واحدة باحدى يديه الطويلتين ، يأكلها وهو جالس بين يدى حارســه كما يأكل الطفل من يدى أمه . الحــارس يربت باليد الأخرى على فروة رأســه فى حنــان من حين لآخر .

انتهى الحيوان من طعامه ، أخرج الحارس من كيس معه حبة من حبوب دواء ما . تلقاها انسان الغابة بكفه اليمنى ، القاها فى فمه . ناوله الحارس كوب ماء . أمسكه انسان الغابة بحرص بكلتا يديه ، شرب منه ، ابتلع الحبة ، اعاد الكوب لحارسه .

فجاة شاهدنا انسان الغابة يقف على قائمتيه الخلفيتين القصيرتين المقوستين ، ليمسك بكفيه معا ـ فى لحظة عاطفية ـ راس حارسه ، يجذبها نحوه ، يقبلها .

القصة الثانية :

فى حديقة حيوان أخرى احتشد المتفرجون حول قفص انسان غابة آخر ، كبارا وصغارا ، ذكورا واناثا . ألقوا له حبات الفول السودانى غير المقشور ، التقطها بأصابعه ، قشرها كما يفعل البشر ، القاها فى فمه . اطمأنوا الى أنه اطمأن اليهم ، بدأوا يقذفونه بحصى صغير شبية بحبات الفول ، أدرك الخدعة ، انصرف عنهم متشاغلا بقفزاته بين القضبان الممدودة عبر قفصه . الحشد المتفرج ـ وكان يضج الآن بزياط العيال وتهليل الكبار ـ لم يعجبهم انصراف الحيوان عن مداعباتهم الغليظة ، وحرمانهم من متعة اغاظته . واصلوا استفزازه برشقه بالحصى واطلاق الأصوات المنكرة والحركات الهازئة .

توقف الحيوان عن قفزاته . جلس قبالتهم على مؤخرته مادا ساقيه الخلفيتين امامه . نظر نحوهم كانما فى ازدراء . بلغ زياطهم ذروته . كور باطن كفه اليمنى بين فخذيه ، تبول فيها حتى ملأها ، دفع البول بيده فى فمه حتى ملأه بدوره .

فى لمح البصر قذف المتفرجين المستمتعين بما فى فمه ، طال كلا منهم شىء من رذاذه ، تراجعوا صائحين فزعين ، ثم على انفسهم ضاحكين ، وهم يمسحون ما علق بوجوههم وثيابهم مما طالها من رذاذ . اختلط الأمر فلم يعد يعرف من يتفرج على من ، ولا أين انسان الغابة : داخل القفص أم خارجه .

العفـــاريت

هذه حدوتة شعبية فيما يبدو لاننى سمعتها من صـديق هندى يعمـل فى احدى دول الخليج ، ومن زميل من أمريـكا الجنوبية ــ الأرجنتين أو البرازيل لا اذكر ــ حين تقابلنا فى أحد المؤتمرات ، كما سمعتها فى صياغة مصرية من ابن من أبنـاء قريتنا شارونة بالصعيد الأوسط . واعيد روايتها هنا لبساطتها وما فيها من مغزى للكبار وتسلية للصغار .

هذه القصة التى لا انساها وقعت حوادثها منذ زمن بعيد حين كانت العفاريت يمكن أن تجد لها سكنا فى مقابر قريتنـا وفى عقول بعض أبنائها . ففى شبابنا ــ حين كنا ما نزال طلبة ندرس فى الجامعة ــ كنت وابناء جيلى نلتقى معا اثناء أجازة الصيف ، ولم يكن نادى القرية قد أنشىء بعد ، لهذا كنا نلتقى على الجسر الممتد بطول ترعتها المـارة بقريتنا تحت أقدم شجرة جميز بها ، وذلك فى معظم امسـيات الصيف الحـارة ، نستعيد بطولاتنـا وهزائمنا اثناء العام الدراسى ، نفخر بها أو نسخر منها حينا ونثير العطف حينـا ، ونحن نهش النـاموس ، ونراقب قطعـان

المـاشية والفلاحين والفلاحات مع حميرهم وجاموسهم ، يثيرون الغبار وهم عائدون من حقولهم قبل أن تغمر العتمة الطرقـات وتتسلل رهبتها الى القلوب . فلم تكن الكهرباء قد عرفت طريقها الى قريتنا فى ذلك الزمان .

فى تلك الليلة التى قلت اننى لا انساها افترش خمسة منا مكاننا الأثير تحت الجميزة قبيل منتصف الليل ، عندما كان معظم أهل قريتنا قد اطفأوا أنوارهم وناموا . ولا نعرف كيف تشعب بنا الحديث وامتد حتى وجدنا أنفسنا قد انقسمنا الى فريقين : فريق يؤمن بأن العفاريت تسكن مقبرة القرية ويتكون من أنور وأسعد ؛ وفريق يسخر من هـذا الاعتقاد وهو فريق الأغلبية : مصطفى وفريد وأنا ، وفى محـاولة للتحدى واثباتا لصحـة رأيه تحمس مصطفى ـ الذى يدرس علم النفس ـ وقرر أن يذهب بمفرده الى مقابر القرية عند انتصـاف الليـل حيث يقـال ان العفاريت تسرح وتمرح هناك فى ذلك الوقت . ورغم أننى حاولت أن اثنيه عن عزمه بدعوى احتمال تعرضـه لأحد الوحوش الا انه أصر قائلا : سأخطف رجلى الى بيتنا واحضر بندقية ابى . وكان أبوه شيخ خفراء القرية ، ومصطفى يجيد ـ مثل ابيه ـ تصويب السلاح . غير أن أنور وسعد طالباه بما يثبت أنه قد وصـل الى المقابر فعلا ، واستقر الرأى أن يأخذ معه مسمارا وشاكوشـا يدق به المسمار فى الجدار المنخفض لحوش مقبرتهم . وبحماس الشباب واندفاعه وجدنا فى ذلك تسـلية مثيرة وجديدة فى تلك الليلة ، وبرغم عدم ارتياحى تماما لمـا يجرى ، الا اننى اعترف اننى اعتبرت ذلك القلق شرطا من شروط المغامرة . وهكذا سرعان ما اختفى مصطفى وعـاد بعد دقائق حاملا بندقية ابيه على كتفه، والشاكوش فى يده والمسمار فى جيب جلبابه .

مرة اخرى أبتعد عنا مصطفى فى اتجاه المقبرة . لم تكن بعيدة جدا عن مكان جلستنا . كنا فى طرف القرية الشرقى ، والمقبرة تقع فى سفح تلال المقطم على بعد ثلث الساعة من نهاية الحقول . تتبعنا مصطفى وهو يبتعد عنا فى جلبابه الأبيض ، ترفرف أطرافه من حين لآخر هبات نسيم ليلى ما تلبث أن تخمد، حتى أصبح مصطفى مجرد شبح يتغلب سواده شيئا فشيئا على بياضه ، يلوح .. يضؤل .. يبهت .. ثم لا يكاد يبين فى بحر لا نهائى من الظلمة ، حتى امتصته العتمة تماما .

انتظرنا عودته ، كل منا يريد ان يثبت صحة رايه . انتظارنا طال .. ساعة بعد ساعة ، اصبحنا نعد الوقت بالدقائق ، جحظت أعيننا من التحديق فى نهايات أفق لم تكد تفلح نجوم الليل فى اضاءته الا قليلا . ارهفنا آذاننا علنا نسمع عواء ذئب .. زغرودة ضبع .. فقط نباح كلاب القرية التقليدى يعلو من حين لآخر ويشتد كأنما هى فى جوقة او معركة ، ووقع أحذية الخفراء الثقيلة ونحنحتهم يعلنون بذلك عن وجودهم ويطمئنون ربما أنفسهم .

فكرنا ان نذهب معا ، لاشك انه فى حاجة الينا . بصراحة مجرد عدم عودته اخافنا ، حتى الفريق الذى اعلن انه لا يؤمن بالعفاريت ـ ومنهم انا ـ طاف به أكثر من هاجس : فلعله .. ربما .. قد يكون تعرض فعلا لأذى عفريت من هذه العفاريت التى تتسلى قريتنا بالحديث عنها فى ليالى سمرهم . واحد منهم داعب الشيخ فرغلى تاجر المانيفاتورة وهو عائد ليلا على حمارته، ظهر له فى شكل حمار آخر طالت سيقانه حتى قارب ان يمس سعف النخل ، قرأ الفاتحة فعاد الى حجمه الطبيعى بعد أن أرعبه واختفى ، يدل على صدق شهادته أن حمارته بالت دما . عفريت

أخر ظل يطـارد عباس حلاق قريتنا ويقذفه بالطوب ، وعبـاس لا يرى أحدا خلفه ، فانطلق يجرى باقصى سرعة نحو مبـانى القرية ، لم ينقطع قذف الطوب الا حين انكفأ عباس على وجهـه وتلوث جلبابه السكروتة بالوحل والغبار على مشارف مساكن القريـة .

شقشق الفجر ، العشرات منا بأسلحتهم وعصيهم يحتمون فى بعضهم البعض ، يهرولون نحو المقابر . ما أن وصلنا حتى عثرنا على مصطفى .. جثة هامدة منكفئا على جدار مقبرتهم . نجح فى دق المسمار فى الجدار ، لكنه كان قد دق المسمار أيضا فى جلبابه ، بينما البندقية والشاكوش ملقيـان على الأض بجوار الجثـة .

لابد أن مصطفى كان كلمـا حـاول أن ينهض بعد أن ادى مهمته الشجاعة وجد أن هناك ما أو من يشده الى الجدار فانهارت شجاعتـه الهشة . كان واضحـا أن العفاريت التى وأدها فى الطبقات الجيولوجية لوعية قد استيقظت واعتبرها مسئولة عن جذبه الى الجدار : ربما عقابا له على تحديها ، ولابد انه فزع حينئذ فزع الموت .

لا اذكر اننى اسفت فى حياتى على لعبة مثلما اسفت على هذه اللعبة المميته التى كلفتنا عزيزنا مصطفى ، والتى ساهمنا ـ سواء بمعارضتنا او تأييدنا ـ فى تلك النهاية المفجعة . لهذا قلت أنها قصة او ليلة لا انساها .

* * *

بعد ثلث قرن من الغياب عن قريتنا عدت اليها فوجدت ان الكهرباء والزحمة قد طردت العفاريت ، وان الأحياء من البشر قد سكنوا مقابرها فأصبحوا هم عفاريتها .

قائمـــة ببليوجرافيـــة
بما كتب عن يوسف الشارونى

اولا ــ مقـابلات :

مع أحمد سعيد محمدية ، الحـوادث ، بيروت ، ٤ كانون الثانى ، ١٩٦٣ .

مع نبيل فرج ، المساء ، القاهرة ، ٢٩ نوفمبر ١٩٦٩ .

مع نبيل فرج ، ملحـق الأنـوار الأســبوعى ، بيروت ، ٢٦ يوليو ١٩٧٠ .

مع أحمد محمد عطيه ، الحقيقة ، بنغازى ، ٢٩ اغسطس سنة ١٩٧٠ .

مع نبـيل فرج ، الآداب ، بيروت ، يناير ١٩١ .

مع حسن محسب ، المجلة ، القاهرة ، اغسطس ١٩٧١ .

مع نجيب محفوظ ، الطليعة ، القاهرة ، يناير ١٩٧٣ .

مع فاروق خورشــيد ، الشرق الأوســط ، لندن ، ١٣ و ١٤ ديسمبر ١٩٧٨ .

مع محمد قطب ، القصة ، القاهرة ، ٢٤ يونيو ١٩٨٠ .

مع نبيل فرج ، الصياد ، بيروت ، ١٨ فبراير ١٩٨٣ .

مع عبد الستار خليف ، الأسرة ، مسقط ، ١٥ ابريل واول مايو ١٩٨٤ .

مع فوزى سليمان ، البيان ، الامارات ، ٢٠ و ٢١ اكتوبر ١٩٨٩ .

مع سليمان جودة ، الوفد ، القاهرة ، اغسطس ١٩٩٠ .

مع آمال عبد المحسن ، العمانية ، مسقط ، ديسمبر ١٩٩٠ .

ثانيا ـ يوسف الشارونى قصاصا :

(أ) دراسات عامة :

القصصى الصغير ، يوسف الشارونى والقصة ، الحياة العراقية ، بغداد ، ١٩ تشرين الثانى ١٩٥٣ .

حسين مروة ، يوسف الشارونى بين الرومانسية والواقعية (من كتاب دراسات نقدية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٦٥ ، صفحات ٧١ ـ ١٢٥) .

احمد محمد عطيه ، من الأزمة الى النكسة : مع انسان الشارونى ، الآداب ، بيروت اغسطس ١٩٦٩ . وأعيد نشره فى كتاب : أحمد محمد عطيه ، الالتزام والثورة فى الأدب العربى الحديث ، دار العودة ، بيروت ـ دار الكتاب العربى ، طرابلس ، ١٩٧٤ ، صفحات : ١٨٣ ـ ٢١٢ . وكذلك كتاب : الخوف والشجاعة ، كتابات معاصرة ، القاهرة ، ١٩٧١ ، صفحات ١٠٦ ـ ١٣٠ .

د. عبد الحميد ابراهيم ، تكوينـات يوسف الشارونى ، الآداب ، بيروت ، مارس ١٩٧٠ . وكذلك فى كتـاب : الخـوف والشجاعة ، صفحات : ١٣١ ـ ١٤٨ .

جلال العشرى ، ثلاثية القصة القصيرة ، الفكر المعاصر ، القاهرة ، يوليو ١٩٧٠ . وأعيد نشره فى كتاب : جلال العشرى ، ثقافتنا بين الأصالة والمعاصرة ، الهيئـة المصريـة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، صفحات : ٢٧٣ ـ ٢٩٠ . وكذلك فى كتاب : الخوف والشجاعة ، صفحات : ٧٩ ـ ١٠٥ .

د. سيد حامد النساج ، الاتجـاه الفـكرى عند يوسـف الشارونى (من كتاب : اتجاهات القصة المصرية القصيرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ . صفحات ٣١٦ ـ ٣٢٩) .

فخرى قعوار ، القصة القصيرة عند يوسف الشـارونى ، اليمامة ، الرياض ، ٢ مارس ١٩٧٩ .

سعد عمران ، يوسف الشارونى : المهم قضايا الانسان فى القرن العشرين ، الأحداث ، لندن ، ٥ سبتمبر ١٩٩١ .

د. احمـد درويش ، يوسف الشـارونى : نصف قرن من الابداع القصصى ، ملحق الأهرام الأدبى ، ٢٤ سبتمبر ١٩٩٣ .

(ب) العشاق الخمسة :

فوزى العتيل ، العشاق الخمسـة ، الآداب ، بيروت ، مارس ١٩٥٥ .

د. عادل سلامه ، العشاق الخمسة ، الآداب ، بيروت ، فبراير ١٩٥٦ . وكذلك فى كتاب الخوف والشجاعة ، صفحات : ١٤٩ ـ ١٦٠ .

(جـ) رسالة الى امرأة :

يحيى حقى ، يوسف الشاروني ورسالة الى امرأة ، مجلة الشهر ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٦٠ . وأعيد نشره فى كتاب : خطوات فى النقد ، مكتبة دار العروبة ، د.ت ، صفحات ٢٦٤ ــ ٢٧٨ . وكذلك كتاب : الخوف والشجاعة ، صفحات ١٧٠ ــ ١٨٤ .

مطاع صفدى ، مجموعة رسالة الى امرأة وموقف السخرية المتمردة ، الوحدة السورية ، دمشق ، ١١ نوفمبر ١٩٦٠ . وكذلك كتاب : الخوف والشجاعة ، صفحات ١٦١ ــ ١٦٩ .

فؤاد دواره ، فى أعقاب معركة القصة القصيرة ، المساء ، القاهرة ، ١٤ نوفمبر ١٩٦٠ .

د. ريمون فرنسيس ، رسالة الى امرأة
RAMOND FRANCIS, Lettre à une Femme, Aspects de la Litterature Arabe Contemporaine, Dar AL-Maaref, Le Caire, 1963, PP. 171 — 178.
ومترجمة الى العربية فى كتاب : الخوف والشجاعة ، صفحات ١٨٥ ــ ١٩١ .

وحيد النقاش ، رسالة الى امرأة ، الأهرام ، القاهرة ، ٦ فبراير ١٩٦٦ .

(د) الزحام :

أحمد محمد عطيه ، الزحام ، الاذاعة والتليفزيون ، القاهرة ، ٣١ يناير ١٩٧٠ .

د. سيد حامد النساج ، يوسف الشـاروني فى الزحـام ، المجلة ، القاهرة ، ١٩٧٠ . وكذلك كتاب : الخوف والشجاعة ، صفحات ١٩٣ ـ ٢٠٥ .

د. صبرى حافظ ، عالم يوسف الشارونى فى الزحـام ، المجلة ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٧٠ .

د. على شلش ، زحـام يوسف الشـارونى ، القصـة ، القاهرة ، يونيو ١٩٧١ .

فاروق منيب ، الزحـام ، الجمهوريـة ، القـاهرة ، ٢٤ يونيو ١٩٧١ .

فاروق عبد القادر ، لمحـات من حيـاة وأعمـال صاحب الزحام ، روزاليوسف ، القاهرة ، ٢٨ يونيو ١٩٧١ .

محمد البساطى ، المعمار الفنى فى الزحـام ، الأقـلام ، بغداد ، فبراير ١٩٧٢ .

سامى خشبة ، البحث عن الجمال والحقيقة المزدوجة ، الآداب ، بيروت ، مارس ١٩٧٤ .

(هـ) الخوف والشجاعة :

محمد محمود عبد الرازق ، الخوف والشجاعـة ، المجلة ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٧١ .

(و) الأم والوحش :

عبد الفتاح رزق ، اعترافـات ضـيق الخـلق والمثانة ، روزاليوسف ، القاهرة ، ٢٢ نوفمبر ١٩٨٢ .

علاء الديب ، عاشق القصة القصيرة ، صباح الخير ، القاهرة ، ٢٥ نوفمبر ١٩٨٢ .

خيرى شلبى ، الأم والوحش ، الاذاعة والتليفزيون ، القاهرة، ٤ ديسمبر ١٩٨٢ .

عبد الستار خليف ، وتبقى الأم ، الوطن ، مسقط ، ٢٢ مارس ١٩٨٣ .

أبو المعاطى أبو النجا ، الحديث عن أدب متفرد ، الوطن ، الكويت ، ٢٢ مارس ١٩٨٣ .

يوسف القعيد ، الأم والوحش ، الكواكب ، القاهرة ، ١١ يناير ١٩٨٣ .

(ز) المختارات :

فخرى صالح ، من الحكاية الغنائية الى الكوميديا السوداء ، الناقد ، لندن ، فبراير ١٩٩٠ .

ياسين رفاعيه ، مختارات يوسف الشارونى ، الشرق الأوسط ، لندن ، أول ابريل ١٩٩٢ .

د. احمد عفيفى ، قراءة فى مختارات يوسف الشارونى ، عمان ، مسقط ، ١٤ مايو ١٩٩٢ .

د. احمد عفيفى ، التصوير الأدبى فى مختارات يوسف الشارونى ، الأسرة ، مسقط ، ٢٠ مايو ١٩٩٢ .

علاء الديب ، مختارات يوسف الشارونى ، صباح الخير ، القاهرة ، ٢١ مايو ١٩٩٢ .

عباس بيضون ، عالم معلق عبر الهاجس عبر الذكاء ، ملحق النهار ، بيروت ، ٢٢ مايو ١٩٩٢ .

علی سرور ، يوسف الشارونی ، مرونة السخرية المجزأة ، ملحق النهار ، بيروت ، ١١ يونيو ١٩٩٢ .

الياس العطرونی ، جمال القبح ، الناقد ، لندن ، يوليو ١٩٩٢ .

فاروق عبد القادر : حفل عائلی للقصة القصيرة ، روزاليوسف ، القاهرة ، ١٣ مارس ١٩٩٣ .

ثالثا ــ يوسف الشارونی شاعرا :

د. عز الدين اسماعيل ، المساء الأخير ، الثقافة ، القاهرة ، ٨ أكتوبر ١٩٦٣ .

د. لويس عوض ، المساء الأخير ، الأهرام ، القاهرة ، أول نوفمبر ١٩٦٣ .

فاروق منيب ، المساء الأخير ، المساء ، القاهرة ، ٢٠ نوفمبر ١٩٦٣ .

د. عادل سلامه ، المساء الأخير ، الآداب ، بيروت ، يوليو ١٩٦٤ .

رابعا ــ يوسف الشارونی دارسا :

(أ) دراسات عامة :

د. احمد كمال زكی ، يوسف الشارونی ناقدا (من كتاب : النقد الأدبی الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، صفحات ١١٨ ــ ١٢٥) .

(ب) دراسات ادبيــة :

د. فؤاد زكريا ، دراسات ادبية ، الثقافة ، القــاهرة ، ٢٦ مايو ١٩٦٤ .

عبد الجبار عباس ، دراسات ادبية ، الآداب ، بيروت ، يناير ١٩٦٥ .

محمد محمود عبد الرازق ، دراسات يوسف الشارونى ، الآداب ، بيروت ، سبتمبر ١٩٧٢ .

(ج) دراسات فى الأدب العربى المعاصر :

فاروق منيب ، دراســـات فى الأدب العــربى المعــاصر ، الجمهورية ، القاهرة ، ١٧ ديسمبر ١٩٦٤ .

فتحى غانم ، ثلاث خطوات للقراءة الجيدة ، صباح الخير ، القاهرة ، ٤ فبراير ١٩٦٥ .

فوزى العنتيل ، دراسات فى الأدب العربى المعاصر ، الكتاب العربى ، القاهرة ، يناير ١٩٦٦ .

(د) دراسات فى الحب :

محمد محمود عبد الرازق ، دراسات فى الحب ، الآداب ، بيروت ، يناير ١٠٦٧ .

كمال النجمى ، الحب والصداقة فى التراث وفى عصرنا ، المصور ، القاهرة ، ٢ ابريل ١٩٧٦ .

(هـ) اللامعقول فى الأدب العربى المعاصر :

خيرى شلبى ، الاتجاهات الطليعية فى مواجهة التيارات الغربية الحديثة وادب اللامعقول ، سنابل ، دمنهور ، فبراير ١٩٧٠ .

(و) القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا :

د. عبد العزيز شرف ، التفسير الاعلامى للابداع القصصى ، الأهرام ؛ القاهرة ، ٢٢ يوليو ١٩٧٧ .

عبد الله ابو هيف ، القصة القصيرة كما يراها يوسف الشارونى ، البعث ، دمشق ، ٢٠ أكتوبر ١٩٧٧ .

فتحى سلامه ، بين تطور الرواية وتطور النقد ، الأهرام ، القاهرة ، ١٧ فبراير ١٩٧٨ .

خامسا ـ يوسف الشارونى محققا :

علاء الديب ، عجائب الهند ، صباح الخير ، القاهرة ، ٢١ يونيو ١٩٩٠ .

سعيد محمد الصقلاوى : عجائب الهند ، من قصص الملاحة البحرية ، الوطن ، مسقط ؛ أول نوفمبر ١٩٩٠ .

خالد زياده ، جغرافيا العجائب ، الناقد ، لندن ، نوفمبر ١٩٩٠ .

مؤلفات يوسف الشارونى

قصص قصيرة :

١ ــ **العشاق الخمسة** ، طبعة اولى ، الكتاب الذهبى ، روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، طبعة ثانية ، الكتاب الماسى ، الدار القومية ، ١٩٦١ .

٢ ــ **رسالة الى امراة** ، الكتاب الذهبى ، روزاليوسف ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٣ ــ **الزحام** ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٩ .
اعيد نشر قصص هذه المجموعات مع بعض الاضافات .

٤ ــ **حلاوة الروح** ، كتاب اليوم ، دار اخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٥ ــ **مطاردة منتصف الليل** ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٦ ـ **آخر العنقود** ، كتـاب اليوم ، دار أخبـار اليوم ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٧ ـ **الأم والوحش** : ١٩٨٢ .

٨ ـ **الكراسي الموسيقيـة** ، الهيئـة العامـة للكتـاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

نثر غنـائي :

٩ ـ **المساء الأخير** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

دراســـات :

١٠ ـ **دراسات أدبية** : مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١١ ـ **دراسات في الأدب العربي المعاصر** : مؤسسة التأليف، والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٢ ـ **دراسات في الحب** ، كتاب الهلال ، القاهرة ١٩٦٦ . ويتناول مؤلفات التراث العربي في موضوع الحب والصـداقة ، وقـد أعيد نشره بعنوان ((**الحب والصداقة في التراث العربي والدراسات المعاصرة**))، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٦ ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ط ٣ ، ١٩٩٢ .

١٣ ـ **دراســات في الرواية والقصـة القصيرة** ، مكتبـة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٤ ـ **اللامعقول في الأدب المعاصر** ، المكتبـة الثقافيـة ، مؤسسة التأليف والنشر ، ١٩٦٩ .

١٥ ـ **الرواية المصرية المعاصرة** ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

١٦ ـ **القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا** ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

١٧ ـ **نماذج من الرواية المصرية** ، « مشروع المكتبة العربية » ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

١٨ ـ **القصة والمجتمع** ، « سلسلة كتابك » ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

١٩ ـ **شكوى الموظف الفصيح** ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٢٠ ـ **الروائيون الثلاثة** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٢١ ـ **رحلتى مع القراءة** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٢٢ ـ **مع القصة القصيرة** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

٢٣ ـ **مع الدراما** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

مؤلفات عن سلطنة عمان :

٢٤ ـ **سندباد فى عمان** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٢٥ ـ **قصص من التراث العمانى** ، توزيع مجان ، سلطنة عمان ، ١٩٨٧ .

٢٦ ـ **اعلام من عمان** ، رياض الريس ومشاركوه المحدودة، لندن ، المملكة المتحدة ، ١٩٩٠ .

٢٧ ـ **فى ربوع عمان** ، رياض الريس ومشاركوه المحدودة ، لندن ، المملكة المتحدة ، ١٩٩٠ .

٢٨ ـ **ملامح عمانية** ، رياض الريس ومشاركوه المحدودة ، لندن ، المملكة المتحدة ، ١٩٩٠ .

٢٩ ـ **فى الأدب العمانى الحديث** ، رياض الريس ومشاركوه المحدودة ، لندن ، المملكة المتحدة ، ١٩٩٠ .

تحقيق :

٣٠ ـ **عجائب الهند لبزرك بن شهريار** ، رياض الريس ومشاركوه المحدودة ، لندن ، المملكة المتحدة ، ١٩٩٠ .

اعـداد وتقـديم :

٣١ ـ **سبعون شمعة فى حياة يحيى حقى** ، الهيئة العامة للكتاب ، « مشروع المكتبة العربية » ، ١٩٧٥ .

٣٢ ـ **الليلة الثانية بعد الألف** ، « مختارات من القصـة النسـائية فى مصر » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، « مشروع المكتبة المصرية » ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

ترجمـــات :

٣٣ ـ **سينيكا** ، **اوديب** ، اعداد تدهيوز ، سلسلة المسرح العالمى ، وزارة الاعلام بالكويت ، ١٩٧٦ .

٣٤ ـ **صوفى تريدويل** ، **الآلية** ، سلسلة المسرح العـالمى ، وزارة الاعلام بالكويت ، ١٩٨٨

٣٥ ـ **جون بولدرستون** ، ميدان باركلى ، سلسلة المسرح العالمى ، وزارة الاعلام ، الكويت ، ١٩٩١ .

مجموعات قصصية بلغات اجنبية :

بالانجليزية :

Blood Fued, trans, Denys Johnons-Davies, Heinemann. (London 1983) PP. 137. In Arab Authors (1984) A·U.C. Press (1991).

بالألمـانية :

Nacrichten aus Aegypten, L.C.B. Editionen, (Berliner Kunster Programm des Daad. 1977).

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة



لقد أدركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق في
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ٣٠٠ قرش